

الثامن عشر من برومير

"لويس بونابرت"

كارل ماركس

مقدمة المؤلف للطبعة الثانية

لقد عزم صديقي جوزيف فيديماير (القائد العسكري لمقاطعة سان لويس أثناء الحرب الأهلية الأمريكية)، الذي وفاه الأجل قبل الأوان، على إصدار مجلة سياسية أسبوعية في نيويورك اعتباراً من اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) عام ١٨٥٢. ودعاني إلى تزويد هذه المجلة الأسبوعية بتاريخ Coup d'état (الانقلاب). وبناءً على ذلك، كتبت له، كل أسبوع، لغاية منتصف شهر شباط (فبراير)، مقالات تحت عنوان: "الثامن من عشر من برومير لويس بونابرت". بيد أن خطة فيديماير الأصلية قد أصابها الفشل في هذه الأثناء، فبدأ عوضاً عن ذلك، في ربيع عام ١٨٥٢، في إصدار مجلة شهرية هي مجلة "Die Revolution"^(١) التي كان العدد الأول منها يتكون من بحثي "الثامن عشر من برومير". وقد وجدت بعض مئات من نسخ هذا العدد طريقها إلى ألمانيا في ذلك الحين ولكن دون أن تأخذ سبيلها إلى التداول في تجارة الكتب الفعلية. وإذا عرضت بيع كتابي هذا على ناشر ألماني يدعى الراديكالية المتطرفة، رفض بهلع الصالحين "هذه النية التي جاءت في غير أوانها".

يتضح مما قيل أن المؤلف الحالي قد كتب بتأثير الانطباعات المباشرة من الأحداث وأن مادته التاريخية لا تتعذر شهر شباط - فبراير (عام ١٨٥٢). أما إعادة نشره الآن، فهي ترجع جزئياً إلى الطلب في سوق الكتب، كما ترجع إلى الطلب الملحة التي تقدم بها أصدقائي في ألمانيا.

من بين المؤلفات التي تناولت الموضوع نفسه، والتي ظهرت في ذات الوقت تقربياً مع كتابي هذا، أثناء فقط جديران بالانتباه "نابوليون الصغير" لفكتور هوغو و "الانقلاب" لبرودون.

أما فكتور هوغو فهو يقتصر على حملات لاذعة وبارعة النكتة ضد ناشر الانقلاب المسؤول. والحادث نفسه يبدو في مؤلفه كأنه صاعقة في سماء صافية. وهو لا يرى فيه سوى عمل عنيف قام به فرد واحد. إنه لا يلاحظ أنه يعظم من شأن هذا الفرد، بدلاً من أن يصغره، بما نسب إليه من قوة مبادرة شخصية ليس لها نظير في تاريخ العالم. أما برودون فهو يسعى من جانبه إلى أن يصور الانقلاب قد غدا، بصورة غير ملحوظة، تبريراً تاريخياً لبطله. وهكذا وقع في الخطأ الذي يقع فيه من نسميه بالمؤرخين الموضوعيين. أما أنا فإني أثبت، على النقيض، كيف أن الصراع الظيفي في فرنسا قد أوجد الظروف والعلاقات التي مكنت شخصاً سخيفاً متوسط الموهوب من أن يؤدي دور بطل.

أن تعديل المؤلف الحالي قد يجرده من لونه الخاص. ولذا فقد اكتفيت بمجرد تصحيح الأخطاء المطبعية وحذف التلميحات التي لم تعد مفهوماً في الوقت الحاضر.

والكلمات الأخيرة التي ختمت بها كتابي: "ولكن عندما تسقط العباءة الإمبراطورية أخيراً على كتفي لويس بونابرت، سيهوى تمثال نابوليون البرونزي من على قمة مسلة فندوم ويتحطم" (مسلسل بيت في أعوام ١٨٦٠ - ١٨١٠ في ساحة فندوم بباريس من المدافع التي ضمنها نابوليون وأقيم فوقها نصب تذكاري له، تخليداً للذكرى انتصاراته. الناشر) قد تحققت الآن.

(١) «Die Revolution» ("الثورة") مجلة شهوية أسبوعية، أصدرها عام ١٨٥٢ في نيويورك فيديماير، صديق ماركس وأنجلس وعضو عصبة الشيوعيين. وافق ماركس وأنجلس على الكتابة بانتظام للمجلة. غير أن فيديماير توقف في إصدار عددين فقط من مجلته الأسبوعية في شهر كانون الثاني (يناير) ١٨٥٢، وبعد ذلك، تعين عليه وقف إصدارها بسبب المصاعب المالية. وفي أيار (مايو) ١٨٥٢، أصدر فيديماير مؤلف ماركس "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" في كتاب على حدة، وبصورة العدد الأول من مجلة «Die Revolution» "غير دورية" - ص. ٣.

لقد أفتتح العقيد شاراس الهجوم على عبادة نابوليون في مؤلفه عن زحف سنة ١٨١٥. ثم قام الأدب الفرنسي، فيماك بعد ذلك، خصوصاً في السنوات الأخيرة، بالإجهاز على أسطورة نابوليون بأسلحة البحث التاريخي والنقد والهجاء والذكاء البارعة. وقد ظلت هذه القطيعة الحادة مع الإيمان الشعبي التقليدي، وهذه الثورة الفكرية الهائلة، غير ملحوظتين تقريباً وغير مفهومتين إلى مدى أبعد، في خارج فرنسا.

وأخيراً، آمل أن يسهم مؤلفي في محو ذلك المصطلح المدرسي الشائع، خصوصاً في ألمانيا الآن، وهو ما يسمى "بالقيصرية" Cesarisme (المترجم). إن النقطة الرئيسية تظل منسية في هذا التشبيه التاريخي السطحي، إلا وهي أن الصراع الطبقي في روما القديمة كان يجري ضمن دائرة أقلية ذات امتياز فحسب، بين الأغنياء الأحرار والقراء الأحرار، بينما كان السواد الأعظم من السكان المنتجين، أي العبيد، لا يشكلون سوى القاعدة الخاملة لهؤلاء المتصارعين. أن الناس ينسون ملاحظة سيسموندي السديدة التالية: أن البروليتاريا الرومانية كانت تعيس على حساب المجتمع بينما يعيش المجتمع الحديث على حساب البروليتاريا. ومع وجود مثل هذا الفارق الجذري بين الظروف المادية والأقتصادية لصراع الطبقات قدِّيماً وحديثاً، لا يمكن للشخصية السياسية التي ينتمي إليها هذا الصراع أن يقوم فيما بينها أيضاً وجه شبه أكبر مما هو قائم بين رئيس أساقفة كانتربري ورئيس كهنة صموئيل.

كارل ماركس

لندن، في ٢٣ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٩.

كتبها ماركس للطبعة الثانية من كتابه:

"الثامن عشر من برومير لويس بونابرت"

الصادرة في هامبورغ في تموز

(يوليو) ١٨٦٩.

مقدمة فريديريك أنجلس للطبعة الألمانية الثالثة

أن نشوء الحاجة إلى إصدار طبعة جديدة من "الثامن عشر من برومير" بعد ثلات وثلاثين سنة من صدوره لأول مرة، ليثبت أن هذا المؤلف لم يفقد شيئاً من قيمته حتى في أيامنا هذه.

لقد كان في الحق عملاً عقرياً. فقد طلع علينا ماركس مباشرةً بعد الحادث الذي داهم عالم السياسة كله كأنه صاعقة أنقضت من السماء الصافية، الحادث الذي لعنه البعض بصرخات عالية من الاستهجان الخالي، وتقبله الآخرون باعتباره خلاصاً من الثورة وعقاباً على أخطائها، الحادث الذي لم يثر إلا دهشة الجميع والذي لا يفهمه أحد - بعد هذا الحادث مباشرةً طلع علينا ماركس بعرض موجز ساخر لاذع بسط فيه كامل مجرى التاريخ الفرنسي منذ أيام شباط (فبراير)، بما في هذا المجرى من علاقات داخلية، ورد فيه معجزة الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ⁽²⁾ إلى كونها نتيجة طبيعية وضرورية لهذه العلاقات. وهو إذ فعل ذلك لم يكن في حاجة لأن يعامل بطل الانقلاب بغير الاحتراف الذي أستحقه تماماً. وقد رسم ماركس هذه الصورة بيد ماهرة بحيث أن كل فضح جديد جاء فيما بعد لم يفعل غير أن أورد براهين جديدة على مدى الدقة التي كانت الصورة تعكس بها الحقيقة. أن، هذا الفهم الممتاز للتاريخ الحي المعاصر وهذا التقدير الواضح لمغزى الأحداث في لحظة وقوعها مما حقاً مما لا نظير له.

ولكن من أجل ذلك كان الأمر يقتضي سعة معرفة بالتاريخ الفرنسي كالتي كانت لدى ماركس. أن فرنسا هي البلد الذي كان الصراع الطبقي التاريخي يصل فيه كل مرة، وأكثر مما في أي بلد آخر، إلى نهاية فاصلة، وهي وبالتالي البلد الذي كانت فيه الأشكال السياسية المتغيرة التي يتحرك ضمنها هذا النضال الطبقي، والتي تتلخص فيها نتائجه، تتطبع في خطوط جلية إلى أقصى حد. أن فرنسا التي كانت، منذ عهد النهضة، مركز الإقطاع في العصور الوسطى والقطر النموذجي للحكم الملكي الإقطاعي الموحد قد قامت بهدم الإقطاع في الثورة الكبرى وأقامت حكم البراجوازية الصرف في نقاء كلاسيكي ليس هناك ما يضارعه في أي قطر أوروبي آخر. كما أ، كفاح البروليتاريا الصاعدة ضد البراجوازية الحاكمة ظهر هنا في صورة حادة لا نعدها في أن مكان آخر. وهذا هو السبب الذي حدا بماركس لا إلى دراسة تاريخ فرنسا الماضي بشغف خاص فحسب بل إلى تتبع تاريخها الحالي بكل تفاصيله أيضاً، وإلى تجميع المادة لاستعمالها في المستقبل، ولذلك، لم تكون الأحداث تباغته على الإطلاق.

ثم أن هنالك فضلاً عن هذا، ظرفاً آخر، أن ماركس هو على وجه التحديد أو من اكتشف القانون العظيم لحركة التاريخ، - القانون الذي يقول أن النضال التاريخي ليس في الواقع سوى التعبير الواضح، بدرجة تزيد أو تقل، عن النضال بين الطبقات الاجتماعية - سواء أقام هذا النضال في ميادين السياسة أم الدين أم الفلسفة أم في أي ميدان أيديولوجي آخر، وإن وجود هذه الطبقات، وبالتالي الاصطدامات التي تقع بينها، إنما تحددها بدورها درجة تطور وضعها الاقتصادي وطبع الإنتاج وأسلوب الإنتاج وطريقة التبادل التي يعينها أسلوب الانتاج. أن هذا القانون الذي يعني بالنسبة للتاريخ نفس ما يعنيه قانون تحويل الطاقة بالنسبة للعلم الطبيعي - أن هذا القانون كان بالنسبة لماركس في هذا الحال أيضاً بمثابة المفتاح لفهم تاريخ

(2) الثاني من كانون الأول (ديسمبر) - المقصود هنا انقلاب الثاني من كانون الأول عام ١٨٥١ في فرنسا وقد قام به لويس بونابرت الذي كان يشغل ابتداء من ١٠ كانون الأول ١٨٤٨ منصب رئيس الجمهورية الفرنسية: فقد جرى حل الجمعية التشريعية ومجلس الدولة، واعتقال عدد كبير من النواب، وإعلان الأحكام العرفية في مقاطعة، ونفي الرعماء الاشتراكيين والجمهوريين من فرنسا. وفي ٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٢، أقر دستور جديد يحصر السلطة كلها في يد الرئيس؛ وفي ٢ كانون الأول ١٨٥٢، نودي بلويس بونابرت إمبراطور فرنسا باسم نابوليون الثالث - ص. ٧.

الجمهورية الفرنسية الثانية. وعلى محك هذا التاريخ، تحقق في هذا المؤلف من صحة القانون الذي أكتشفه، ولا بد لنا أن نقول حتى بعد ثلاث وثلاثين سنة أن هذا الامتحان أسفى عن نتائج رائعة.

ف.ا

كتبها انجلس للطبعة الثالثة من كتاب:

"الثامن عشر من برومير لويس بونابرت"

الصادرة في هامبورغ في ١٨٨٥.

(١)

يقول هيغل في مكان ما أن جميع الأحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر، إذا جاز القول، مرتين. وقد نسى أن يضيف: المرة الأولى كمأساة والمرة الثانية كمسخرة. كوسيدير مكان دانتون، لويس بلان مكان روبيير، "جبل" ("الجبل" - Montagne - مونتان). أسم أطلق على العياقبة الذين كانوا يمثلون الجناح البرجوازي الراديكالي اليساري في أثناء الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. وقد أطلق عليهم أسم "الجبل" لأنهم كانوا يحتلوا المقاعد العليا في قاعة جلسات الكونفانسيون "الجمعية الوطنية" وقد أخذ حزب ليدرو - رولان الجمهوري الديموقراطي البرجوازي الصغير هذا الاسم في سنوات ١٨٤٨ - ١٨٥١ وكان كتلة في الجمعيات الفرنسيتين التأسيسية والتشريعية. الناشر).

١٨٤٨ - ١٨٥١ مكان "جبل" ١٧٩٣ - ١٧٩٥، ابن الأخ مكان العم. والصورة الكاريكاتورية نفسها تظهر في الظروف التي رافقـت الطبعة الثانية للثامن عشر من برومـير^(٣)!

إن الناس يصنعون تاريخهم بيدهم؛ إنهم لا يصنعونه على هواهم. إنهم لا يصنعونه في ظروف يختارونها هم بأنفسهم بل في ظروف يواجهون بها وهي معطاة ومنقولـة لهم مباشرة من الماضي. إن تقـاليد جميع الأجيال الغابرة تجثم كالكابوس على أدمغـة الأحياء. وعندما يـبدو هؤلاء منشغلـين فقط في تحويل أنفسـهم والأشيـاء المحيطة بهـم، في خـلق شيء لم يكن له وجودـ من قبل، عند ذلك بالضبط، في فترات الأزمـات الثورـية كـهذه على وجه التـحدـيد، نـراهم يـلـجـئـون فيـ وجـلـ وـسـحرـ إـلىـ استـحضارـ أـروحـ المـاضـيـ لـتـخـدـمـ مـاقـدـصـهـمـ، وـيـسـتـعـيـرـونـ مـنـهـاـ الـأـسـمـاءـ وـالـشـعـارـاتـ الـقـاتـالـيـةـ وـالـأـزـيـاءـ لـكـيـ يـمـثـلـوـ مـسـرـحـ جـديـدةـ عـلـىـ مـسـرـحـ التـارـيخـ الـعـالـمـيـ فـيـ هـذـاـ الرـداءـ التـكـريـيـ الـذـيـ اـكتـسـيـ بـجـالـ الـقـدـمـ وـفـيـ هـذـهـ اللـغـةـ الـمـسـتـعـارـةـ. هـكـذاـ اـرـتـدـىـ لـوـثـرـ فـنـاعـ الرـسـوـلـ بـوـلـسـ وـاـكـتـسـتـ ثـورـةـ ١٧٨٩ـ - ١٨١٤ـ بـثـوبـ الـجـمـهـورـيـةـ الـرـوـمـانـيـةـ تـارـةـ وـثـوبـ الـإـمـبرـاطـورـيـةـ الـرـوـمـانـيـةـ تـارـةـ آـخـرـ، وـلـمـ تـجـدـ ثـورـةـ ١٨٤٨ـ شـيـئـاـ أـفـضـلـ مـنـ التـقـالـيدـ السـاخـرـ لـعـامـ ١٧٨٩ـ حـيـناـ وـلـلـقـالـيدـ الـثـورـيـةـ لـسـنـوـاتـ ١٧٩٣ـ إـلـىـ ١٧٩٥ـ حـيـناـ آـخـرـ. وـعـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ يـعـدـ دـائـمـاـ الـمـبـدـىـ الـذـيـ تـعـلـمـ لـغـةـ جـديـدةـ إـلـىـ تـرـجـمـةـ هـذـهـ الـلـغـةـ بـالـفـكـرـ إـلـىـ لـغـةـ الـأـصـلـيـةـ وـهـوـ يـسـتـعـمـلـ الـلـغـةـ الـجـديـدةـ.

إن التأمل في هذه الاستحضرـاتـ لـمـ غـيـرـ فـرـقـ بـارـزـ فـيـماـكـ بـيـنـهـاـ. فـإـنـ كـمـيـلـ دـيمـوـلـانـ وـدـانـتوـنـ وـرـوـبـيـيـرـ وـسانـ - جـوـسـتـ وـنـابـولـيـونـ، أـبطـالـ الثـورـةـ الـفـرـنـسـيـةـ الـقـدـيمـةـ، وـكـذـلـكـ أحـزـابـهاـ وـجمـاهـيرـهاـ الشـعـبـيـةـ، قدـ أـدـوـاـ مـهـمـةـ زـمـنـهـمـ فـيـ أـرـيـاءـ رـوـمـانـيـةـ وـبـأـلـفـاظـ رـوـمـانـيـةـ - مـهـمـةـ فـكـ الـقـيـودـ وـإـقـامـةـ الـمـجـتمـعـ الـبـرـجـواـزـيـ الـحـدـيثـ. الـأـولـونـ نـسـفـوـاـ أـسـسـ الـإـقـطـاعـيـةـ تـامـاـ وـحـصـدـوـاـ الرـؤـوسـ الـإـقـطـاعـيـةـ الـتـيـ نـمـتـ عـلـيـهـاـ. وـالـأـخـيـرـ أـوـجـدـ فـيـ دـاـخـلـ فـرـنـسـاـ الـظـرـوفـ الـتـيـ يـسـنـسـنـ فـيـهـاـ وـحـدـهـاـ لـلـمـنـافـسـةـ الـحـرـةـ أـنـ تـنـتـطـوـرـ وـلـأـرـضـ الـمـوزـعـةـ أـنـ تـسـتـغـلـ وـلـطـافـةـ الـأـمـةـ الـإـنـتـاجـيـةـ الـصـنـاعـيـةـ الـتـيـ أـطـافـتـ مـنـ الـقـيـودـ أـنـ تـسـتـخـدـمـ، وـعـدـ فـيـ كـلـ مـكـانـ فـيـمـاـكـ وـرـاءـ الـحـدـودـ الـفـرـنـسـيـةـ إـلـىـ تـهـيـمـ الـأـشـكـالـ الـإـقـطـاعـيـةـ إـلـىـ الـمـدىـ الـذـيـ كـانـ فـيـهـ ذـلـكـ ضـرـورـيـاـ لـتـزوـيدـ الـمـجـتمـعـ الـبـرـجـواـزـيـ فـيـ فـرـنـسـاـ بـيـئـةـ مـلـائـمةـ فـيـ الـقـارـةـ الـأـوـرـوـبـيـةـ وـتـسـتـجـيبـ لـمـتـطلـبـاتـ الـزـمـنـ. وـإـذـ تـأـسـيـسـ الـتـشكـلـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـجـديـدةـ، اـخـتـفـيـ عـالـقـةـ مـاـ قـبـلـ الطـوفـانـ وـاـخـتـفـيـ مـعـهـمـ الـعـهـدـ الـرـوـمـانـيـ الـقـدـيمـ الـذـيـ بـعـثـ إـلـىـ الـحـيـاةـ - أـيـ جـمـيعـ الـبـرـوـتـوـسـاتـ وـالـغـرـاكـوسـاتـ وـالـبـوـبـلـيـكـولـاتـ وـالـخـطـبـاءـ وـأـعـضـاءـ الـسـنـاتـوـ وـالـقـيـصـرـ نـفـسـهـ. إـنـ الـمـجـتمـعـ الـبـرـجـواـزـيـ، فـيـ حـقـيقـتـهـ الـعـقـلـيـةـ الـعـمـلـيـةـ، قـدـ وـلـدـ شـرـاـحـهـ وـالـسـنـةـ حـالـهـ الـحـقـيقـيـنـ فـيـ أـمـثـالـ سـايـ وـكـوـزـينـ وـرـوـيـةـ - كـوـلـارـ وـبـيـامـينـ كـوـنـسـتـانـ وـغـيـرـهـ وـمـنـ

(٣) Brumaire، الشهر الثاني من سنة التقويم الجمهوري (٢٢ تشرين الأول - ٢٠ تشرين الثاني) الذي كان معمولاً به في فرنسا من ١٧٩٣ حتى ١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٦.

الثامن عشر من برومـير السنة السابعة كان اليوم التاسع من نوفمبر ١٧٩٩. في هذا اليوم قـامـ نـابـولـيـونـ بـوـنـابـرتـ بـانـقلـابـ أـطـاحـ بـهـ مجلسـ المـدـيرـينـ وـأـعـلنـ نفسهـ قـنـصـلاـًـ لـفـرـنـسـاـ. وهـكـذاـ وـصـلـتـ مرـحلـةـ الثـورـةـ الـبـرـجـواـزـيـةـ الـمـعـاكـسـةـ إـلـىـ كـمـيـاـهـ وـأـقـيـمـتـ الـدـيـكـاتـورـيـةـ الـعـسـكـرـيـةـ. وـيعـنيـ مـارـكـسـ عـلـىـ خـوـ سـخـريـ بالـطـبـعـةـ الـثـانـيـةـ مـنـ "الـثـامـنـ عـشـرـ مـنـ بـرـومـيرـ"ـ انـقلـابـ الثـانـيـ منـ كـانـونـ الـأـوـلـ (ديـسـمـبرـ) ١٨٥١ـ الـذـيـ قـامـ بـهـ لوـيـسـ بـوـنـابـرتـ اـبـنـ أـخـ نـابـولـيـونـ الـأـوـلـ - صـ ١١ـ.

شاكليهم. وجلس قادته العسكريون الحقيقيون في المكاتب، وكان لويس الثامن عشر، ذو رأس الخنزير، رئيسة السياسي. وإن غمس هذا المجتمع كلياً في أنتاج الثورة وفي الكفاح السلمي الذي يقوم على المنافسة، نسي إن أشباحاً من عهد روما القديمة كانت تسهر على مده. ولكن المجتمع البرجوازي، مع ما هو عليه من قلة البطولة، أقتضى إخراجه إلى حيز الوجود ببطولة وتضحية وإرهاباً وأقتنصى حرّياً أهلية معارك بين الشعوب. وقد وجد مصارعوه في التقليد ذات الصرامة الكلاسيكية التي خلفتها الجمهورية الرومانية، المثل العليا والأشكال الفنية والأوهام التي كانوا في حاجة إليها لكي يخفوا عن أنفسهم ما كان عليه محتوى صراعاتهم من قصور برجوازي ولكي يبقو حماستهم في المستوى العالي للمسألة التاريخية العظيمة. ومن هذا القبيل، وفي مرحلة أخرى من التطور، وقبل ذلك بقرن من الزمان، استعار كرومويل الشعب الانجليزي الكلام والعواطف والأوهام من "العهد القديم" لتراثهم البرجوازية. وعندما تم الوصول إلى الهدف الحقيقي، عندما تم أنجاز التحويل البرجوازي للمجتمع الانجليزي، حل لوك محل النبي حقوق.

وهذا كان بعث الموتى في تلك الثورات يؤدي مهمة تمجيد الصراعات الجديدة، لا التقليد الساخر للصراعات القديمة، مهمة تعظيم الواجب المعين في الخيال لا الهروب من إيجاد حل له في الحقيقة، مهمة اكتشاف روح الثورة مرة أخرى، لا جعل شبهاً يوم ثانية.

منذ سنة ١٨٤٨ ولغاية سنة ١٨٥١ كان يحوم شبح الثورة القديمة فحسب، ابتداء من مارست، هذا républicain en gants jaunes (الجمهوري ذو القفاز الأصفر. الناشر).

الذي تتكر في ثوب بايي القديم، حتى المغامر الذي كان يخبي ملامحه التافهة المنفرة تحت القناع الحديدي لنابوليون الميت. أن شعباً بأكمله كان يتصور أنه، عن طريق الثورة، قد سرّع تطوره يجد نفسه فجأة يرجع الفهري إلى عصر انفرض. ولكن لا يكون ثمة مجال للشك في شأن هذه الردة، عادت إلى الظهور التواريخ القديمة والتقاويم الزمنية القديمة والأسماء القديمة والمراسيم القديمة التي غدت منذ زمن طويل موضوعاً لهواه الأشياء القديمة المحنكين، وعاد كذلك إلى الظهور رجال الدرك القдامي الذين بدا أنهم اندثروا منذ أمد طويل. وشعرت الأمة بمثل ما يشعر به ذلك الانجليزي المجنون تزيل البدرام^(٤) الذي يتوجه أنه يعيش في زمن الفراعنة القدماء فيندب كل يوم العمل الشاق الذي ينبغي أن يؤديه في المناجم الأثيوبيّة كحفار يستخرج الذهب، حبيس في هذا السجن الواقع تحت الأرض مشدود على رأسه مصباح خافت الإنارة، وخلفه رفيق العبيد وفي يده سوط طويّل، وعند المخارج الجنود البربرية الذين لا يفهمون عمال السخرة في المناجم ولا يفهمون واحدهم الآخر لأنهم جميعهم يتكلمون لغات مختلفة. ويتهجد الانجليزي المجنون قائلاً: "ويترتب علىي أن أتحمل كل هذا. أنا البريطاني الحر الأصل، قصد استخراج الذهب للفراعنة القدماء". والأمة الفرنسية تنتهد قائلة: "قصد تسديد ديون أسرة بونابرت". الانجليزي، مadam مالكا لقواه العقلية، لا يستطيع التخلص من الفكرة الراسخة وهي استخراج الذهب. والفرنسيون، ما داموا منشغلين في ثورة، لا يستطيعون التخلص من ذكرى نابوليون، كما أثبت ذلك انتخاب العاشر من كانون الأول (ديسمبر)^(٥) أنهم يحنون للعودة من مخاطر الثورة إلى حل اللحوم المصرية^(٦). واليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١ كان هو الجواب. فلم يعد لديهم صورة كاريكاتورية عن نابوليون القديم فسحب، بل صار لديهم أيضاً نابوليون القديم نفسه بصورة كاريكاتورية، كما لا بد له أن يبدو في منتصف القرن التاسع عشر.

(٤) "بدلام"، مستشفى للمجانين في لندن - ص ١٤.

(٥) في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨، انتخب لويس بونابرت رئيساً للجمهورية الفرنسية بنتيجة اقتراع عام، ص - ١٥.

(٦) أثناء فرار اليهود من الأسر في مصر، كما تروي التوراة، شرع الجناء بينهم، من حراء مصاعب الطريق وبسبب من الجوع، يتأسفون للأ أيام التي قضوها في الأسر، إذ كانوا آنذاك، على كل حال، شبعانين. ومن هنا جاء القول المأثور: "تأسف على حل اللحوم المصرية" - ص ١٥.

أن ثورة القرن التاسع عشر الاجتماعية لا يسعها أن تستمد أشعارها من الماضي بل من المستقبل فحسب. أنها لا تستطيع أن تبدأ بتنفيذ مهمتها قبل أن تقضي على كل احترام خرافي للماضي. لقد كانت الثورات السابقة في حاجة إلى استعادة ذكريات ما مضى من حوادث تاريخ العالم لكي تخدع نفسها بشأن محتواها هي بالذات. أما ثورة القرن التاسع عشر فكان يترتب عليها لكي تستوضح نفسها محتواها الخاص أن تدع الموتى يدفنون موتاهم. هناك كانت الجملة تتعدى المحتوى وهنا كان المحتوى يتعدى الجملة.

أن ثورة شباط (فبراير) كانت هجوماً مفاجئاً، كانت أخذًا مباغتاً للمجتمع القديم. وقد أشاد الشعب بهذه الضررية غير المتوقعة باعتبارها عملاً ذا أهمية تاريخية عالمية يؤدي بحقيقة جديدة. وفي اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) تختفي ثورة شباط (فبراير) بين يدي نصاب ماكر ويبدو في النتيجة أن ما أطيح به ليس هو الملكية بل التنازلات الليبيرالية التي انتزعتها منها قرون من الكفاح. وبدلًا من أن يظفر المجتمع نفسه لنفسه بمحتوى جديد، بدا أن الدولة قد عادت إلى أقدم أشكالها فحسب - إلى السيطرة البدائية العديمة الحياة - سيطرة السيف والقانسوه الكنهونية. والجواب على Coup de main (ضربة جريئة، عمل حاسم. الناشر). شباط (فبراير) ١٨٤٨ أعطاه Coup de tête (عمل طائش، عمل وقع. الناشر). كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١، وما تأتي به الزوابع تأخذه الرياح. ولكن هذه الفترة من الزمن لم تضع سدى. فمن سنة ١٨٤٨ لغاية سنة ١٨٥١ هضم المجتمع الفرنسي - وتم هذا بطريقة مختصرة لأنها ثورية - العبر والتجارب التي كان ينبغي لها في تطور يسير بصورة صحيحة، أو، إذا جاز القول، بصورة منهاجيته، أن تسبق ثورة شباط (فبراير) لو كانت هذه الثورة أكثر من مجرد هزة على السطح. أن المجتمع يbedo الآن وكأنه أرتد إلى ما وراء نقطة انطلاقه. أما في الواقع فلا يترتب له سوى أن يوجد لنفسه نقطة الانطلاق لثورته وللوضع والعلاقات والظروف التي لا تصبح الثورة الحديثة بدونها ثورة جديدة.

أن الثورة البرجوازية، كتلك التي حدثت في القرن الثامن عشر، تندفع كالعاصفة من نجاح إلى نجاح، وأثارها الدرامية تفوق بعضها بعضاً، ويبدو فيها الأشخاص والأشياء في إطار باهر وهاج، ويكون كل يوم مشبعاً بالحماسة والنشوة. بيد أن عمر هذه الثورات قصير، فسرعان ما تدرك هذه الثورات نقطة الأوج وتختيم على المجتمع وخمة السكرة الطويلة الممضة قبل أن يستطع أن يهضم بتعقل واتزان نتائج فترة الضغط والاندفاع العاصف تلك. أما الثورات البروليتارية كتلك التي تحدث في القرن التاسع عشر، فهي، بالعكس، تتنقد ذاتها على الدوام، وتقاطع نفسها بصورة متواصلة أثناء سيرها، وتعود ثانية إلى ما بدا أنها أجزتها لتبدأ فيه من جديد، وتسرخ من نواقص محاولاتها الأولى و نقاط ضعفها وتفاوتها باستقصاء لا رحمة فيه، ويبدو أنها تطرح عدوها أرضاً لا شيء إلا ليتمكن من أن يستمد قوة جديدة من الأرض وينهض ثانية أمامها وهو أشد عتوً، وتنكس المرأة تلو المرأة أمام ما تتصف به أهدافها من ضخامة غير واضحة المعالم، وذلك إلى أن ينشأ وضع جديد يجعل أي رجوع إلى الوراء مستحيلاً وتصرخ الحياة نفسها قائلة بصرامة:

Hic Rhodus, hic saltat

هنا الوردة، فلتُرقص هنا! ^(٧)

(٧) Hic Rhodus, hic saltat (هنا روادوس، فلتُرقص هنا! – وتعني: هنا الأمر الرئيسي، وهنا قدم البرهان!) – قيل هذا (في قصة "الفشار" لا يزوب) لفارس زعم أنه وثبة هائلة في جزيرة روادوس.

"هنا الوردة، فلتُرقص هنا!" – تعديل القول السابق (Poooç – روادوس – باليونانية اسم الحزب المعروفة، وتعني كذلك "الوردة") أوردة هيغل في مقدمة كتابه "فلسفة الحق" – ص ١٧.

وعلى كل حال، كان لابد لكل مراقب بصير وأن قليلاً، حتى ولو لم يتتابع مجرى الأحداث في فرنسا خطوة خطوة، من أن يكون قد ساوره هاجس بأنه كتب لهذه الثورة عار لا سابق له. وكان يكفي المرء أن يسمع نباح النصر الذي كان يردد باغتياب السادة الديموقراطيون وهم يتبادلون التهاني بالعواقب الخيرة التي ينتظرون أن يسفر عنها الأحد الثاني من شهر أيار (مايو) ١٨٥٢⁽⁸⁾. لقد أصبح عندهم الأحد الثاني من شهر أيار (مايو) ١٨٥٢ فكرة راسخة، أصبحت عقيدة غبية، شأنها شأن اليوم الذي سيعود فيه المسيح إلى الظهور ويبدا في العصر الأنفي السعيد عند الألفين⁽⁹⁾. وكما هي الحال دائماً، التجأ العجز إلى الاعتقاد بالمعجزات وتصور أن العدو غالب على أمره إذا تغلب عليه في الخيال عن طريق الابتهاج وقد ان كل شعور بالواقع بسبب من التمجيد الباطل بالمستقبل الذي ينتظره وبالماضي التي ينوي أن يقوم بها ولكنه لا يريد أن يخبر عنها بعد. أولئك التي ينوي أن يقوم بها ولكنه لا يريد أن يخبر عنها بعد. أولئك الأبطال الذين يسعون إلى تحضير الرأي القائل بمحزبهم الواضح بتهادي عواطفهم المتباعدة وبالتالي التجمهر في جماعة خاصة قد اوتقوا حقائبهم وجمعوا أكاليل الغار مقدماً، وكانوا في ذلك الوقت بالضبط منهمكين في سوق الأوراق المالية يخصمون جمهورياتهم *in partibus infidelium* - خارج الواقع الفعلي (حرفيًا: "في بلاد الكفار") - إضافة إلى لقب المطرانة الكاثوليكية المعينين في مناصب المطرانة الاسمية الصرف في البلدان غير المسيحية). الناشر)، التي كانوا قد فرغوا مسبقاً من تنصيب موظفيها الحكوميين خلسة وبكل القناعة الملزمة لهم. وأنقض عليهم اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) انقضاض الصاعقة من سماء صافية الأديم. فالشعوب التي تسمح بطيبة خاطر لأصحاب الأصوات العالية أن يغرقوا مخاوفها الداخلية في الفترات التي تتحط فيها المعنويات، ربما افتعلت هذه المرة بأن الزمن الذي يستطيع فيه فوق الوز إيقاد الكابيتول⁽¹⁰⁾ قد ولّ وانقضى.

أن الدستور والجمعية الوطنية وأحزاب الأسرة المالكة والجمهوريين الزرق والحرم وأبطال أفريقيا⁽¹¹⁾ والإرداد من فوق منصات الخطابة والإبراق على صفحات الجرائد اليومية، والأدب بأسره والأسماء السياسية والسمعة الفكرية والقانون المدني وقانون الجزاء *liberté, égalité, fraternité*، والأحد الثاني من أيار (مايو) ١٨٥٢ كلها تلاشت كخيال الظل أمام سحر رجل لم يكن أعداؤه أنفسهم ساحراً من السحرة. وبدا أن حق الاقتراع الشامل لم يمكث لحظة إضافية إلا لكي يتمكن من أن يخط بيده أمام أعين الدنيا قاطبة وصيته الأخيرة ويعلن باسم الشعب نفسه: "أن كل ما ينبعث جدير بالزوال"⁽¹²⁾.

ولا يكفي القول، كما يفعل الفرنسيون، بأن أمتهم قد أخذت على حين غرة. فإن الأمة والمرأة لا تغترف لهما تلك اللحظة التي تفقدان فيها الحذر ويتمكن أول مغامر يمر بهما من أن ينتهكهما. أن جمالاً كهذه لا تستطيع حل اللغز بل تصوغها بشكل آخر فقط. بقى أن نفسر كيف يستطيع ثلاثة نصابين أن يأخذوا على حين غرة ويأسروا دون مقاومة أمّة يبلغ تعدادها ستة وثلاثين مليون نسمة.

(8) في أيار (مايو) ١٨٥٢، انتهت مدة رئاسة لويس بونابرت. وعوجب الدستور الفرنسي لعام ١٨٤٨، كان ينبغي انتخاب الرئيس الجديد مرة كل أربع سنوات في الأحد الثاني من شهر أيار (مايو) - ص ١٧.

(9) الأنفية Chilliiasm (من الكلمة اليونانية "خيلياس" ومعناها ألف). مذهب ديني صوفي يقول بمحى المسيح ثانية وقيام "العهد الأنفي" الذي تسوده العدالة والمساواة التامة والبركة والخير. انبثقت عقائد هذا المذهب في مرحلة تفسخ نظام الرق من جراء ما كان يعنيه الكادحون من مظام وألام لا تطاقي، ففتحوا عن مخرج في أحلام خيالية غريبة. وقد انتشرت هذه العقائد واسع الانتشار في زمن المسيحية الباكرة، ثم ابعت على الدوام في تعاليم مختلف الشيع والملل في القرون الوسطى - ص ١٧.

(10) تقول الأساطير أن قبائل الغاليين قد استولت على روما وحاصرت قلعتها الكابيتول. وذات ليلة، أخذوا يتسلقون جدران القلعة دون أن يحدثوا أي صوت، ولكن طير الوز المقدس طفقت توقف ورأيقطت الرومانين - ص ١٨.

(11) المقصود هنا الجنرالات الذين اشتركتوا في الاستيلاء على الجزائر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر. - ص ١٨.

(12) غوته "فاوست". الفصل الأول. المشهد الثالث ("مكتب فاوست"). - ص ١٩.

لتراجع الآن بياجاز المراحل التي مرت بها الثورة الفرنسية من ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٨ لغاية كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١. هنالك فترات رئيسية ثلاثة لا ريب فيها: فترة شباط (فبراير)، الفترة من ٤ أيار (مايو) ١٨٤٨ إلى ٢٨ أيار (مايو) ١٨٤٩؛ وهي فترة الجمهورية الدستورية أو فترة الجمعية الوطنية التشريعية.

الفترة الأولى، من ٢٤ شباط (فبراير)، أي من وقت الإطاحة بلويس فيليب إلى الرابع من أيار (مايو) ١٨٤٨، أي إلى انعقاد الجمعية التأسيسية - فترة شباط بمعناها الحقيقي - يمكن أن توصف بأنها مقدمة الثورة. وقد تجيء طابعها بصورة رسمية عندما أعلنت الحكومة نفسها التي ارتجلتها هذه الفترة إنها حكومة مؤقتة. وكل ما جرى اتخاذه أو محاولته أو التصريح به في أثناء هذه الفترة كان، شأنه في ذلك شأن الحكومة، يعلن عن نفسه بأنه مؤقت فحسب. لم يكن أي شيء أو أي إنسان يجرؤ على الادعاء بحق البقاء الدائم وبالعمل الحقيقي. وجميع العناصر التي أعدت الثورة أو حدتها - أي المعارضة الأسرية⁽¹³⁾ والبرجوازية الجمهورية والبرجوازية الصغيرة الديمقراطية الجمهورية والعمال الاشتراكيون - الديمقراطيون، - وجدت مكانها مؤقتاً في حكومة شباط.

وما كان بالإمكان غير ذلك. أن أيام شباط كانت تقصد بالأصل إجراء أصلاح انتخابي يتمحض عن توسيع دائرة المتمتعين بالامتيازات السياسية داخل الطبقة المتملكة ذاتها ويطيح بالسيطرة المطلقة الارستقراطية المال. ولكن حين وصلت الأمور إلى النزاع الفعلي، عندما أعتلى الشعب المتاريس وأخذ الحرس الوطني موقف الانتظار السلبي وأحجم الجيش عن المقاومة الجدية وهرب الملك، ظهر تأسيس الجمهورية كأنه مسألة طبيعية. وكل حزب فسرها بطريقته الخاصة. أما البروليتاريا التي ظفرت بهذه الجمهورية والسلاح في أيديها، فقد طبعتها بطبعها وأعلنتها جمهورية اجتماعية. وهكذا رُسم المحتوى العام للثورة المعاصرة، وهو محتوى يتناقض تناقضاً عجيباً إلى أقصى حد مع أي شيء يمكن تحقيقه دفعه واحدة ومباعدة استناداً إلى ما كان متوفراً من مواد وما بلغته الجماهير من مستويات التطور، وفي الظروف والعلاقات المعنية. ومن الناحية الأخرى لُبِّيت مطالب جميع العناصر الباقية التي أسهمت في نجاح ثورة شباط، بحصة الأسد التي نالتها في الحكومة. ولذلك لا نجد في أي فترة أخرى خليطاً أكثر تنويعاً من الكلام المنمق وانعدام الثقة الفعلية والعجز الفعلي ومن السعي الفائق الحماسة إلى الجديد ومن السيطرة الراسخة الجذور للرتابة العتيقة ومن الانسجام الظاهري الغشاش للمجتمع بأسره والتناقض العميق بين عناصره. وبينما كانت بروليتاريا باريس ما تزال سادرة في الطرف بمنظار الآفاق العراض التي افتتحت أمامها ومنغمسة عن جد في مناقشات حول القضايا الاجتماعية كانت قوى المجتمع القيمة تتكتل وتحشد وتستفيق وتتجدد تأييداً لم يكن متوقعاً من جمهرة الأمة، من الفلاحين والبرجوازيين الصغار الذين اقتحموا كلهم المسرح السياسي دفعه واحدة بعد سقوط الحاجز التي أقامتها ملكية تموز (يوليو).

الفترة الثانية، من الرابع من أيار (مايو) ١٨٤٩ حتى نهاية أيار (مايو) ١٨٤٨، هي فترة تشكيل، تأسيس الجمهورية البرجوازية. بعد أيام شباط (فبراير) مباشرة لم تقاجأ المعارضة الأسرية بالجمهوريين ولم يفاجأ الجمهوريون بالاشتراكيين فحسب بل فوجئت فرنسا كلها بباريس. أن الجمعية الوطنية التي انعقدت في الرابع من أيار (مايو) ١٨٤٨ والتي انتخبتها الأمة كانت تمثل الأمة. كانت هذه الجمعية احتجاجاً حياً على ادعاءات أيام شباط وكان من شأنها أن تهبط بنتائج الثورة إلى مستوى المقاييس البرجوازية. وعِبَّا حاولت بروليتاريا باريس، التي أدركت على الفور طابع هذه الجمعية الوطنية، في اليوم الخامس عشر من أيار (مايو)، أي بعد بضعة أيام من انعقادها، أن تتفى وجودها بالقوة وأن تحظى وأن تفتت ثانية هذا الشكل العضوي الذي هددت فيه البروليتاريا روح الأمة التي ارتدت ضدها، إلى الأجزاء التي يتآلف منها. ومعلومة أن اليوم الخامس عشر من

(13) "المعارضة الأسرية" - كتلة برئاسة أوديلون بارو في مجلس النواب الفرنسي في عهد ملكية تموز (يوليو). كان مثلاً هذه الكتلة التي تتصفح عن مزاج الأوساط الليبرالية من البرجوازية الصناعية والتجارية، يطالعون بإجراء إصلاح انتخابي معتمد بوصفه وسيلة لتحاشي الثورة وللحفاظ على سلالة أورليان - ص ٢٠.

أيار (مايو) لم يكن له من نتيجة سوى إقصاء بلانكي ورفاقه في الفكر، أي القادة الحقيقيين للحزب البروليتاري، عن المسرح الاجتماعي طيلة كل الفترة التي نحن بصددها.

أن الملكية البرجوازية لعهد حكم لويس فيليب لا يمكن أن تليها إلا جمهورية برجوازية، وبعبارة أخرى بينما كانت فئة محدودة من البرجوازية تحكم متسنة باسم الشعب. أن مطالب بروليتاريا باريس هي هراء خيالي ينبغي أن يوضع له حد. على هذا التصريح الصادر عن الجمعية الوطنية التأسيسية أجابت بروليتاريا باريس بتمرد حزيران (يونيو)، وهو أضخم حادث في تاريخ الحروب الأهلية في أوروبا. وانتصرت الجمهورية البرجوازية. فإلى جانبها كانت تقف ارستقراطية المال والبرجوازية الصناعية والفئات الوسطى والبرجوازية الصغيرة والجيش وحالة البروليتاريا (Iumpen-proletariat) المنظمون في حرس متقل والمتفقون ورجال الأكليروس وسكان الأرياف. وإلى جانب بروليتاريا باريس لم يكن يقف أحد سواها. وبعد النصر على هذه البروليتاريا ذبح ما ينوف على ثلاثة آلاف متمرد ونفي خمسة عشر ألفاً دون محاكمة. وبهذه الهزيمة تمضي البروليتاريا إلى مؤخرة المسرح الثوري. إنها تحاول من جديد أن تنتقم إلى الأمام كلما لاح فيها أن الحركة تهضم من جديد، ولكن هذه المحاولات تضعف أكثر فأكثر وتسفر عن نتائج تتضاعل أكثر فأكثر. وحالما كان يعتري أحدى الفئات الاجتماعية الكائنة فوقها جيشان ثوري، كانت البروليتاريا تدخل في حلف معها وهكذا كان لها نصيب في جميع الهزائم المتواتلة التي منيت بها الأحزاب المختلفة. بيد أن هذه الضربات التي تلت كانت تضعف بقدر ما كان سطح المجتمع الذي تتوزع فوقه يتسع. إن ابرز قادة البروليتاريا في الجمعية وفي الصحافة تساقطوا على التعاقب ضحايا للمحاكم. ويحل محلهمأشخاص يزداد أمرهم اشتباها. أن قسمًا من البروليتاريا ينصرف إلى تجارب نظرية غير عملية وإلى تأسيس المصارف التعااضدية وجمعيات العمل أي، بكلمة أخرى، إلى حركة تخلي فيها البروليتاريا عن فكرة أحداث انقلاب في العالم القديم بمجموع الوسائل الجبارية المتوفرة في هذا العالم القديم بالذات، بل تحاول تحقيق خلاصها من وراء ظهر المجتمع، بسبيل خاص وضمن شروط وجودها المحدودة، أي بسبيل يقودها إلى الإفلات. ويبعد أن البروليتاريا لم تعد قادرة لا على استعادة عظمتها الثورية السابقة في ذاتها ولا على اكتساب طاقة جديدة من الارتباطات التي دخلت فيها حديثاً، طالما لم تسقط جميع الطبقات التي ناضلت ضدها في حزيران (يونيو) طريحة إلى جوارها. بيد أن البروليتاريا سقطت على الأقل بشرف جدير بالكافح التاريخي العالمي العظيم. فليست فرنسا وحدها بل أوروبا جميعها ارتجفت من زلزال حزيران، بينما كانت الهزائم اللاحقة التي منيت بها الطبقان العليا تقدى بمن بخس لدرجة أنها كانت تقتضي مبالغات عديمة الحياة من جانب الحزب المنتصر لكي يكون في الإمكان إعطاءها طابع الأحداث على العموم، مع العلم أن هذه الهزائم كانت تزداد خزيًّا كلما أبتعد الحزب المهزوم عن الحزب البروليتاري.

صحيح أن هزيمة متمردي حزيران (يونيو) قد هيأت ومهدت الأرض التي يمكن عليها بناء صرح الجمهورية البرجوازية، بيد أنها أوضحت في الوقت نفسه أن المسألة في أوروبا لا تتعلق بالخلاف حول موضوع: "الجمهورية أو الملكية" بل بشيء آخر. فقد بينت هذه الهزيمة أن الجمهورية البرجوازية تعني هنا الاستبداد غير المحدود الذي تمارسه طبقة ضد الطبقات الأخرى، وأنبتت أن الجمهورية، في الأقطار ذات الحضارة القديمة والتقسيم الطبقي المتتطور وحيث ظروف الإنتاج عصرية وحيث الوعي الفكري ذابت فيه بفعل القرون جميع الأفكار التقليدية، لا تعني بصورة عامة إلا الشكل السياسي لتحويل المجتمع البرجوازي تحويلًا ثوريًا وليس شكل الحياة الذي يصون وجوده، كما هي الحال مثلًا في الولايات المتحدة بأميركا الشمالية حيث توجد الطبقات ولكنها لم تتحدد حتى الآن بل أنها تتغير على الدوام وتتبادل عناصرها في حركة دائمة وحيث نجد وسائل الإنتاج الحديثة غير متفقة مع وجود فيض مزمن من السكان وليس هذا وحسب بل تعوض بالعكس عن النقص النسبي في الرؤوس والأيدي، وأخيرًا حيث لم تترك حركة الإنتاج المادي النشطة، الراخمة بالحماسة والقوة، التي عليها أن تملك عالمًا جديداً، لا وقتًا ولا فرصة للقضاء على عالم الأشباه القديم.

خلال أيام حزيران (يونيو)، أتحدت كل الطبقات والأحزاب في حزب النظام ضد الطبقة البروليتاريا بوصفها حزب الفوضى والاشتراكية والشيوعية. و"أنقذت" المجتمع من "أداء المجتمع". وأختارت كلمة السر لجيشها شعار المجتمع القديم القائل "المملكة، العائلة، الدين، النظام" وشجعت صليبيي الثورة المضادة قائلة: "بهذه العلامة سوف تغلبون!" ومنذ تلك اللحظة كان كل حزب من الأحزاب العديدة التي اتفقت حول هذه العلامة ضد متمردي حزيران، حالما يريдан يثبت أقدامه في ميدان القتال الثوري لمصلحته الطبقية الخاصة، يهزّونه تحت شعار: "المملكة، العائلة، الدين، النظام!". كان أنقاذ المجتمع يتم كلما كانت دائرة حاكمه تتقلص وكلما كانت مصلحة أضيق تتغلب على مصلحة أوسع. وكل مطلب كان ينطوي على أبسط صلاح مالي برجوازي أو على آية ليبيرالية مهما كانت عادية أو على آية اتجاهات جمهورية مهما كانت شكلية أو على أشد أنواع الديموقراطية ضحالة، كان يعاقب عليه في نفس الوقت بوصفه محاولة "اعتداء على المجتمع" ويوصم بـ"الاشتراكية". وأخيراً طرد كبار كهان "الدين والنظام" أنفسهم ركلاً من هياكتهم البيئية⁽¹⁴⁾ وانتزعوا من أسرتهم في غياب الليل ووضعوا في عربات السجن وزجوا في السجون أو نفوا من البلاد، ونصف معدهم من الأساس حتى سوئ بالتراب وختم على أفواههم وكسرت أفلامهم ومزقت شريعتهم شر ممزق - باسم الدين والملكة والعائلة والنظام. والمتغصبون للنظام من البرجوازيين قتلوا بالرصاص وهم على شرفاتهم بأيدي جماعات غوغائية من الجنود السكارى وأنتهك حرمات معابدهم البيئية وقصفت منازلهم بالمدافع لمجرد اللهو - باسم الملكية والعائلة والدين والنظام المقدسة ودخل البطل كرابولنски⁽¹⁵⁾ إلى قصر التوبيري بوصفه "منقذ المجتمع".

(14) بيضا، كاهنة هيكل الإله أبولون في مدينة دلفيس في زمن الإغريق. وكانت تجلس في حوار الهيكل على كرسى ثلاثة الأرجل منصوبة فوق فج ضيق تتصاعد منه أخيرة مخددة. وبتأثير هذه الأخيرة، كانت بيضا تنطق بكلمات غير موصولة ببعضها البعض، ويفسرها الكهان على أنها نبوءات - ص ٢٥.

(15) كرابولنски، بطل قصيدة هينه "الفارسان"، نبيل بولوني مبدرا. واسم عائلة كرابولنски مركب من الكلمة الفرنسية *crapule* - وتعني الانهكاك في الخالعة والأكل والسكر كما تعني أيضاً السفلاق.

دعونا نلقط خيوط الحديث مرة أخرى.

أن تاريخ الجمعية الوطنية التأسيسية منذ أيام حزيران (يونيو) هو تاريخ سيطرة الكتلة الجمهورية من البرجوازية وإنحلالها، تلك الكتلة التي تعرف بلاسماء التالية: الجمهوريون المثلث الألوان، الجمهوريون الصرف، الجمهوريون السياسيون، الجمهوريون الشكليون الخ.....

كانت هذه الكتلة في عهد ملكية لويس فيليب البرجوازية تشكل المعارضة الجمهورية الرسمية وكانت بالتالي عنصراً معترفاً به من العناصر التي تألف منها عالم السياسة آنذاك. كان لها ممثوها في المجالس التمثيلية وكان لها نفوذ واسع في الصحفة. وكانت صحيفة "National" (١٦) التي تتطق بلسانها في باريس تعتبر، بين الصحف من نوعها، في نفس مستوى الاحترام كصحفية "Journal des Débats" (١٧). وكان طابعها يتفق مع هذا المركز الذي احتلته في ظل الملكية الدستورية. إنها لم تكن كتلة من البرجوازية تربطها مصالح مشتركة كبرى وتتميز بظروف إنتاج معينة، بل زمرة من البرجوازيين ذوى الاتجاهات الجمهورية، ومن الكتاب والمحامين والضباط والموظفين، ذين ينفوذها إلى الفور الذي تكه البلاد لشخص لويس فيليب وإلى ذكريات الجمهورية الأولى والى الإيمان بالجمهورية لدى حفنة من الخياليين ولكن في الدرجة الأولى إلى القومية الفرنسية التي عمدت هذه الكتلة بصفة دائمة إلى أثره كراهيتها لمعاهدات فيينا وللحالف مع إنجلترا. أن جزءاً كبيراً من أتباع "National" في عهد لويس فيليب يعود سبب بالذات أن تواجه "National" نفسها فيما بعد، في عهد الجمهورية، كمنافس مظفر في شخص لويس بونابرت. لقد حاربت "National" أرستقراطية المال كما فعلت ذلك سائر المعارضة البرجوازية. وقد كانت الحملات ضد الميزانية، التي كانت في فرنسا تتجاوب كلّاً مع الكفاح ضد أرستقراطية المال، تكتسب شعبية في غاية الرخص وتقدم المواد المطلوبة لـ leading articles (المقالات الأفاسحية. الناشر). النظام الذي حبّته على كل حالات لاعتبارات اقتصادية وسياسية، وكانت البرجوازية بكل ممتنة لها أيضاً بسبب تشهيرها الشرير بالشيوعية والاشتراكية. وعلى كل حال، كان حزبي "National" حزباً جمهورياً صرفاً، أي أنه كان يطالب بالشكل الجمهوري للحكم البرجوازي بدلاً من الشكل الملكي ويطلب قبل كل شيء بحصة الأسد من هذا الحكم. أما فيما يتعلق بشروط هذا التغيير السياسي فهذا ما لم يكن واضحاً في ذهن هذا الحزب بصورة من الصور. ومن الناحية الأخرى كان واضحاً وضوح الشمس بالنسبة له، وكان معترضاً به علينا في الولائم من أجل دعم الإصلاح في أواخر أيام حكم لويس فيليب، أنه غير شعبي عند البرجوازية الديموقراطية الصغيرة، وبصورة أخص، عند البروليتاريا الثورية. هؤلاء الجمهوريون الصرف، كما يليق للجمهوريين الصرف، كانوا بالفعل مستعدين تماماً للاكتفاء في بادئ الأمر بوصاية دوقة أورليان عندما اندلعت ثورة شباط (فبراير) وأفردت لأبرز ممثليهم أماكن في الحكومة المؤقتة. وبديهي أنهم منذ البداية حازوا على ثقة البرجوازية وعلى الأكثريّة في الجمعية الوطنية التأسيسية. وأقيمت العناصر الاشتراكية في الحكومة المؤقتة على الفور من اللجنة التنفيذية التي شكّلتها الجمعية الوطنية بعد انعقادها، وأستغل حزب "National" فرصة تمرد حزيران (يونيو) لصرف اللجنة التنفيذية أيضاً وللتخلص بذلك من أقرب منافسيه، الجمهوريين البرجوازيين الصغار أو الجمهوريين الديموقراطيين (يدرو - رولان وغيره). وحل كافينيak، جنرال الحزب الجمهوري

(١٦) «Le National» ("الجريدة الوطنية") جريدة يومية فرنسية صدرت في باريس من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٥١. لسان حال الجمهوريين البرجوازيين المعتدلين - ص ٢٦.

(١٧) «Journal des Débats politiques et littéraires» ("جريدة المناقشات السياسية والأدبية"). تأسست في باريس عام ١٧٨٩. في عهد ملكية توز (يوليو)، جريدة حكومية، ولسان حال البرجوازية الأورلانيّة. إبان ثورة ١٨٤٨، أعربت الجريدة عن نظرات البرجوازية المعادية للثورة، والمسمّاة بحزب النظام - ص ٢٦.

البرجوازي الذي قاد مذبحة حزيران (يونيو)، محل اللجنة التنفيذية وخلو نوعاً من السلطة الديكتاتورية. وأصبح ماراست، رئيس التحرير السابق لـ "National" الرئيس الدائم للجمعية الوطنية التأسيسية، بينما كانت مناصب الوزراء، وكذلك جميع المناصب الهاامة الأخرى، من نصيب الجمهوريين الصرف.

وهكذا تجاوز الواقع أجرأ آمال كثة الجمهوريين البرجوازيين التي كانت تعتبر نفسها منذ زمن بعيد الوراثي الشرعي لمملكة تموز (يوليو). إلا أن هذه الكثة قد حصلت على السلطة، لا عن طريق فتنة لبيراليه تقوم بها البرجوازية ضد العرش، كما كانت تحلم زمن لويس فيليب، بل عن طريق انتفاضة للبروليتاريا ضد رأس المال، انتفاضة أخذمت بقابل المدفع. أن ما صورته لنفسها بأنه أكثر الأحداث ثورية أوضح إنه في الحقيقة أكثرها تعاكساً مع الثورة. لقد سقطت الثمرة في حضنها، لكنها سقطت من شجرة المعرفة لا من شجرة الحياة.

إن حكم الجمهوريين البرجوازيين الصرف لم يدم إلا من الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) حتى العاشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨. وكان حاصلة وضع دستور جمهوري وإعلان حالة الحصار في باريس.

والدستور الجديد لم يكن من حيث الجوهر سوى طبعة مصبوغة بالصبغة الجمهورية للميثاق الدستوري لسنة ١٨٣٠^(١٨). إن النصاب الانتخابي العالي لملكية تموز (يوليو)، الذي حرر من الحكم السياسي حتى جزءاً كبيراً من البرجوازية، لم يكن يتفق مع وجود الجمهورية البرجوازية. وقد أعلنت ثورة شباط (فبراير) فوراً حق الاقتراع الشامل المباشر بدلاً من هذا النصاب. ولم يكن في وضع الجمهوريين البرجوازيين أن يبطلوا هذا الأمر. واضطروا إلى الاقناع بإضافة شرط تحفظي يقضي بإقامة الناخب في دائرة الانتخابية لمدة ستة أشهر. أما التنظيم القديم للإدارة وللجهاز البلدي والجهاز القضائي والجيش، الخ، فقد بقي كما هو دون أن ينتهك، أو أن التغيير، حيثما كان الدستور يتناول هذه الأشياء بالتغيير، كان يتعلق بقائمة المحتويات لا المحتويات، بالاسم لا الموضوع.

إن الحريات الأساسية التي كانت أركاناً ملزمة لعام ١٨٤٨، أي الحرية الشخصية وحرية الصحافة والكلام وتتنظيم الجمعيات وعقد الاجتماعات والتعليم والدين، الخ، ارتدت رداء دستوريًا جعلها غير قابلة للطعن. ذلك أن كل واحدة من هذه الحريات أعلنت حقاً مطلقاً للمواطن الفرنسي ولكن ذلك كان يقترب دائماً بملاحظة على الهاشم تتصل على إنها تكون غير محدودة إلى المدى الذي لا تحددها فيه "حقوق الآخرين المتساوية والأمن العام" أو "التشريعات" التي كان يقصد منها بالضبط التدخل لإيجاد هذا الانسجام للحريات الفردية سواء فيها بينها أو بينها وبين الأمن العام. مثل ذلك: "المواطنين حق الانتظام في الجمعيات وعقد الاجتماعات السلمية وغير المسلحة والالتماس وإبداء الرأي سواء في الصحافة أو بأية صورة أخرى. إن التمتع بهذه الحقوق لا يحده غير حقوق الآخرين المتساوية والأمن العام". (الفصل الثاني من الدستور الفرنسي، المادة الثامنة). - التعليم حر. حرية التعليم يتم التمتع بها بمقتضى الشروط التي يحددها القانون وتحت الرقابة العليا من الدولة". (نفس الفصل، المادة التاسعة). - "لبيت كل مواطن حرمة. لا يمكن انتهك هذه الحرمة إلا بالتقيد بالشكليات التي يعينها القانون". (الفصل الثاني، المادة الثالثة). الخ، الخ.. ولهذا فإن الدستور يشير دائماً إلى القوانين العضوية المقبالة التي سوف تفسر تلك الملاحظات الهمashية تفسيراً مفصلاً وتنظم التمتع بهذه الحريات غير المحددة بحيث تحول دون تصادمها سواء بعضها مع بعض أو مع الأمن العام. وفيما بعد أخرجت هذه القوانين إلى الوجود من قبل أصدقاء النظام، ونظمت جميع تلك الحريات بصورة لم تجد

(١٨) الميثاق الدستوري أقر بعد الثورة البرجوازية في فرنسا عام ١٨٣٠، وكان القانون الأساسي لملكية تموز (يوليو). أعلن الميثاق شكلاً أن حقوق السيادة ملك الأمة، وقيد بعض الشيء سلطة الملك. ولكنه، مع ذلك، لم يمس الجهاز البوسيبي البيروقراطي، والقوانين الصارمة الصادرة ضد الحركة العمالية والديمقراطية – ص ٢٨.

البرجوازية معها في تمنعها بها أي عائق في الحقوق المتساوية للطبقات الأخرى. وحيثما حرمت هذه الحريات تماماً على الآخرين" أو سمح بالتمتع بها بشروط كان كل منها أحوجة بوليسية، كان هذا يحدث دائماً في مصلحة "الأمن العام" فحسب، أي أمن البرجوازية كما يرسم الدستور. ولهذا كان الطرفان كلاهما يشيران فيما بعد، ومعهما كل الحق، إلى الدستور سواء أكانوا أصدقاء النظام الذين ألغوا جميع هذه الحريات، أم الديموقراطيون الذين طالبوا بإعادة جميع هذه الحريات. وذلك لأن كل فقرة في الدستور كانت تحتوي على نقاصها، على مجلسها الأعلى ومجلسها الأدنى، أي على الحرية كلفظة عامة وعلى إلغاء الحرية في الملاحظة الهامشية. وهذا، ما دام اسم الحرية يحظى بالاحترام ولا يمكن سوى تحقيقها العملي - وطبعاً، على أساس قانوني – فإن الوجود الدستوري للحرية بقى قائماً لم يمس ولم ينتهك مهما تكن الضربات التي سدلت إلى وجودها في واقع الحياة قاتلة.

إن هذا الدستور الذي اكتسب حصانة بهذه الطريقة البارعة الماكنة كان مع ذلك، شأنه شأن آخر⁽¹⁹⁾ ، قابلاً للطعن في نقطة واحدة، ليس في الكعب بل في الرأس، أو بالأحرى في الرؤسains الذين كان يتتووجه بهما: الجمعية التشريعية من جهة، والرئيس من جهة أخرى. أن نظرية عاجلة إلى الدستور تريك أن المواد التي تحدد علاقة الرئيس بالجمعية التشريعية هي وحدها المواد المطلقة والإيجابية وغير المتناقضة وغير القابلة للتحريف. لأن القضية هنا كانت تتصل بتؤمن الجمهوريين البرجوازيين موضع متينة لأنفسهم. أن المواد ٤٥ - ٧٠ من الدستور قد صيغت بحيث أن الجمعية الوطنية تستطيع تحية الرئيس دستورياً في حين أن الرئيس لا يستطيع تحية الجمعية الوطنية إلا خلافاً للدستور أي إلا بإلغاء الدستور نفسه. وهنا، وبالتالي، يدعو الدستور بنفسه إلى تصفيته بالعنف، وهو لا يكتفي بتثبيت تقسيم السلطات، كمياثق ١٨٣٠، بل يضخم ذلك بحيث يغدو التقسيم تناقضاً لا يطاق. أن لعبة القوى الدستورية – كما سمى غيزو المشاحنة البرلمانية بين السلطتين التشريعية والتنفيذية – كانت تلعب دائماً في دستور ١٨٤٨ بحيث يغامر كل طرف فيها بكل ما لديه. هنالك من ناحية سبعمائة وخمسون ممثلاً عن الشعب انتخبوا بموجب حق الاقتراع الشامل، ويتمتعون بحق انتخابهم مجدداً. أنهم يؤلفون جمعية وطنية لا يمكن مرافقتها ولا حلها ولا تجزئتها، جمعية وطنية تتمتع بالسلطة الكلية في شؤون التشريع وتبت بصورة نهائية في شأن الحرب والسلام والمعاهدات التجارية وتحل وحدها حق العفو العام وتحتل، بفضل ديمومة المجتمعاتها، مقدمة المسرح على الدوام. ومن ناحية أخرى هنالك الرئيس، وله كل ما للسلطة الملكية من صفات، له صلاحية تعين وزرائه وعزلهم بصورة مستقلة عن الجمعية الوطنية وفي بيده كل وسائل السلطة التنفيذية، يدخل جميع المناصب، ويتصرف في فرنسا وبالتالي في أرザق مليون ونصف مليون شخص على الأقل، لأن هذا هو بالضبط عدد الذين يتعلدون مادياً بالخمسمائة موظف وبالضبط من مختلف الرتب. وتتخضع له القوات المسلحة بكاملها. وهو يتمتع بامتياز العفو عن المجرمين بمغفرتهم وحل وحدات الحرس الوطني وكذلك حل المجالس العامة ومجالس الكانتونات (الإقليمية) والبلديات – بموافقة مجلس الدولة – التي ينتخبها المواطنون أنفسهم. وهو يتمتع بحق المبادرة إلى عقد جميع المعاهدات مع الأقطار الأجنبية وبالدور القبادي في عقدها. وبينما تحتل الجمعية دائماً مقدمة المسرح وتتعرض لنقد الجمهور كل يوم، يحيا الرئيس حياة منعزلة في الأيليزية، وهذا مع وجود المادة الخامسة والأربعين من الدستور أماماً عينيه وفي قلبه تصرخ له كل يوم: "frère il faut mourir!"⁽²⁰⁾. إن هذه التمثيلية لا تُعرض مرتين، وإذا كان عليك ديوان فدبر أمر سدادها في الوقت المناسب بالستمائة ألف فرنك من الراتب الذي يمنحك إياه الدستور، هذا إذا كنت لا تفضل الذهاب

(19) آخر، واحد من أشجع أبطال الملحم الإغريقية "الألياد". تقول الأسطورة أن أم آخر، الاهنة البحر فيتيها، شاءت أن تخليد أبنها فلا يطاله الموت، فغضطته بعياه نهر ستوكس المقدس. لم يبقى من حسه موضع يصاب منه مقتلاً غير العقب الذي أمسكه به. وقد قتل آخريل بسهم أطلقه باريس وأصابه في عقبه. – ص ٣٠.

(20) "Frére il taut mourir!" ("أيها الأخ، أستعد للموت!") تجية يتبادلاً أعضاء الرهبنة الكاثوليكية المسماة برهبة الترابيين عندما يتقابلون. وقد ظهرت رهبة الترابيين عام ١٦٦٤، وتتميز بنظام داخلي صارم وبنمط معيشة متخففة. – ص ٣٢.

إلى كليشي⁽²¹⁾ يوم الاثنين الثاني من شهر أيار (مايو) الجميل! - وهكذا، بينما يعطي الدستور الرئيس سلطة فعلية، فهو يسعى لتأمين قوة أدبية للجمعية الوطنية. ولكن، فضلاً عن استحالة خلق قوة أدبية بفقرات القانون، يدحض الدستور نفسه هنا مرة أخرى بجعل الرئيس ينتخب بالاقتراع المباشر من قبل جميع أبناء الشعب الفرنسي. وإذا نجد الأصوات الانتخابية في فرنسا كلها موزعة بين السبعين و الخمسين عضواً في الجمعية الوطنية، فهي هنا، على النقيض، مركزه على شخص واحد. وإذا نجد أن كل نائب من النواب لا يمثل على انفراد إلا هذا الحزب أو ذاك، أو هذه المدينة أو تلك، أو هذه النقطة الأهلة أو تلك، أو أنه لا يمثل إلا مجرد ضرورة انتخاب نائب من أصل السبعين والخمسين دون التتفق في الشخص ولا في القضية التي يمثلها - نجد الرئيس منتخب للأمة ونجد عملية انتخابه الورقة الرابحة التي يلعبها الشعب ذو السيادة مرة كل أربع سنوات. أن الجمعية الوطنية المنتخبة تربطها بالأمة علاقة ميتافيزيكية في حين أن علاقة الرئيس المنتخب معها شخصية. صحيح أن الجمعية الوطنية تعكس، بمتاليها المنفردين، الجوانب المتعددة للروح القومية ولكن هذه الروح القومية تجد في الرئيس تجسيداً لها. وهو يملك، بالمقارنة مع الجمعية الوطنية، نوعاً من الحق الإلهي: أنه حاكم بنعمة الشعب.

إن فيتدا، إلهة البحر، تتبأّت لأخيل فإنه سيموت في ريعان الشباب. والدستور الذي كان له، مثل أخيل، نقطة ضعفه، كان يساوره، مثل أخيل أيضاً، هاجس بأن المنية لابد أن تعالجه. لم تكن هناك حاجة لفيتدا إلى ترك البحر قصد أفساء هذا السر لمؤسس الجمهورية أي للجمهوريين الصرف إذ كان حسبيهم إن يلقو نظرة من السماء العالية لجمهوريتهم المثالية على العالم الدنس ليروا كيف أن عجرفة المكلينين والبونابرتين والديموقراطيين والشيوعيين، وكذلك ضياع اعتبارهم هم الجمهوريين، كانوا يزدادان يومياً بقدر ما كانوا يقاربون أتمام عملهم التشريعي الفني العظيم. لقد أردوا أن يخدعوا القدر بخدعة في الدستور، عن طريق المادة ١١١ منه، التي يتحتم بمقتضاها أن يظفر كل اقتراع لإعادة النظر في الدستور بتأييد ثلاثة أرباع الأصوات على الأقل يدلّي بها في ثلاث مناقشات متوالية يفصل فيما بينها شهر كامل، هذا مع العلم إنه ينبغي اشتراك ما لا يقل عن خمسين عضو من أعضاء الجمعية الوطنية في عملية التصويت. ولكن ذلك لم يكن سوى محاولة عاجزة ترمي إلى تأمين قوة لأنفسهم حينما يصبحون أهلية برلمانية، وهذا ما كانوا يستشفونه بصورة تنبوية، تأمين تلك القوة التي أخذت تفلت يومياً وباضطراد من أيديهم الواهية، حتى في هذه اللحظة وهم يسيطرون على الأكثريّة البرلمانية وعلى جميع وسائل السلطة الحكومية.

وأخيراً أوكل الدستور أمره، في أحدي فقراته الخاصة، المضحك المبكي، إلى "يقطة وطنية الشعب الفرنسي بمجموعه وكل فرنسي بمفردده"، وذلك بعد أن كان سابقاً وفي مادة أخرى قد أوكل أمر الفرنسيين "البيقطين" و"الوطنيين" إلى العناية الناعمة الجزائية لمحكمة العدل العليا - "haute cour" - التي أبتدعها عمداً لهذا الغرض.

هكذا كان دستور سنة ١٨٤٨، الدستور الذي لم يطح به في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١ رئيس إنسان بل هو بلمسة من قبعته لا غير. إلا أن هذه القبعة كانت، من الصحيح، قبعة نابوليونية ذات ثلاث زوايا.

بينما كان الجمهوريون البرجوازيون في الجمعية منهمكين في اختيار هذا الدستور ومناقشه والاقتراع عليه في الجمعية الوطنية كان كافينياك يحتفظ خارج الجمعية بحالة الحصار في باريس. أن حالة الحصار في باريس كانت القابلة التي تساعد الجمعية التأسيسية في مخاض الجمهورية. وإذا كان الدستور قد محي فيما بعد من الوجود بالحراب فينبغي إلا ننسى أن الحراب أيضاً - الموجهة ضد الشعب - قد حمت هذا الدستور وهو في رحم أمه وأن الحراب ساعنته على رؤية النور. أن أجداد "الجمهوريين المؤرخين" قد مروا بأوروبا كلها حاملين رمز الدستور، أي العلم المثلث الألوان. ولكن "الجمهوريين

(21) كليشي، سجن المديين في باريس من عام ١٨٢٦ إلى عام ١٨٦٧. - ص ٣٢.

"الموقرين" بدورهم قد اخترعوا اختراعاً وجد بنفسه طريقه في جميع أنحاء القارة ولكنه يعودون إلى فرنسا يحده حب لا يحمد أبداً بحيث أكتسب هذا الاختراع الجنسية الآن في نصف محافظاتها. إن هذا الاختراع هو حالة الحصار. وإنه لاختراع مدهش يستخدم بصورة دورية في كل من الأزمات التي تتعاقب الواحدة تلو الأخرى في مجرى الثورة الفرنسية. ولكن الثكنة والمعسكر اللذين كانا ينبعان على هذا النحو بصورة دورية على المجتمع الفرنسي لكي يقمعا وعيه ويسكتاه، والسيف والبندقية اللذين كان يسمح لهما بصورة دورية بإن يؤديا دور القضاة والمديرين والأوصياء والمرافقين وأن يقوما بعمل الشرطي وبوظيفة الحراس الليلي، والشارب والبزرة العسكرية اللذين كان ينادي بهما بصورة دورية كأسى حكمة في المجتمع وكمرشد له - ألم يكن محتماً لهذه الثكنة والمعسكر والسيف والبندقية والشارب والبزرة العسكرية أن تخطر لها بالأحرى فكرة إنقاذ المجتمع مرة واحدة وإلى الأبد بإعلان حكمها هي أعلى الأحكام وتحرير المجتمع البرجوازي بصورة تامة من مشقة الإدارة الذاتية؟ بل إلى أن الثكنة والمعسكر والسيف والبندقية والشارب والبزرة العسكرية كان محتملاً أن تخطر لها هذه الفكرة خصوصاً وإنه كان بمستطاعها في هذه الحال أن تنتظر أجوراً نقدية أُسخى على خدماتها الأُسخى في حين إنها لم تكن تتبلغ من مجرد حالة الحصار الدورية ومن عمليات إنقاذ المجتمع العابرة تقوم بها بناء على أمر هذه الكتلة البرجوازية أو تلك، إلا ببلغ ضئيلة، فيما عدا بعض الفتنى والجرحى وبعض التجهيز الودي يلوح على وجوه البرجوازيين. ولماذا لا يحاول العسكريون أخيراً أن يلعبوا لعبة حالة الحصار لمصلحتهم الخاصة ولمنفعتهم الخاصة وإن يحاصروا في الوقت ذاته جيوب البرجوازيين؟ فضلاً عن هذا لا يجوز أن ننسى، على سبيل الملاحظة العابرة، أن العقيادة برinar، رئيس المجالس العسكرية نفسه الذي أبعد في عهد كافينياك خمسة عشر ألفاً من المتمردين دون محاكمة، هو في هذه اللحظة وللمرة الثانية على رأس المجالس العسكرية العاملة في باريس.

وإذا كان الجمهوريون الصرف، "المرقررون"، بإعلانهم حالة الحصار في باريس، قد غرسوا المستتبّ الذي نما فيه فيما بعد بريتوريو⁽²²⁾ الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١، فلا بدّ من الاعتراف أيضاً بأنهم يقومون بمبادرة من نوع آخر: فبدلاً من تسعير المشاعر القومية، كما فعلوا ذلك في عهد لويس فيليب، عدوا الآن، وهم يقبضون على كامل قوة الأمة، إلى الحبو أمام الأقطار الأجنبية، وبدلاً من أن يحرروا إيطاليا ترکوها للنمساويين والنابوليين يستعبدونها من جديد⁽²³⁾. إن انتخاب لويس بونابرت رئيساً للجمهورية في اليوم العاشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ قد وضع حدّاً لدiktatorية كافينياك وللجمعية التأسيسية.

تقول المادة الرابعة والأربعون من الدستور: "لا يجوز أن يكون رئيس الجمهورية الفرنسية شخصاً فقد يوماً ما صفتـه كمواطن فرنسي". إن الرئيس الأول للجمهورية الفرنسية لويس نابوليـون بونابرت لم يكن قد صفتـه كمواطن فرنسي فحسب، ولم يكن شرطياً خاصاً من الشرطة الانجليزية فسحبـ بل كان متجانساً بالجنسية السويسرية أيضـاً⁽²⁴⁾.

(22) البريتوريون، في روما القديمة الحرس الخاص للقائد العسكري أو للإمبراطور، وكان القائد أو الإمبراطور يعوله، كما كان يتمتع بمختلف الامتيازات - ص ٣٦.

(23) يقصد ماركس هنا اشتراك مملكة نابولي في التدخل ضد جمهورية روما في أيار - مايو - يوليو ١٨٤٩.

في ٩ شباط (فبراير) ١٨٤٩، عمـدت الجمعية التأسيـسـية في رومـا، المـنتـخبـةـ بالاقـتـراعـ العـامـ، وألغـتـ سـلـطـةـ الـلـيـباـ الـدـنـيـوـيـةـ، وأـعـلـنـتـ الـجـمـهـوـرـيـةـ، وـقـدـ تـرـكـتـ السـلـطـةـ التـنـفـيـذـيـةـ فيـ جـهـوـرـيـةـ روـمـاـ بـيـنـ أـيـدـيـ هـيـثـةـ منـ ثـلـاثـةـ أـعـضـاءـ بـرـاسـةـ مـادـزـيـيـ، أـنـتـاءـ وـجـودـ الجـمـهـوـرـيـةـ، أـحـرـيـتـ جـمـلـةـ منـ الـاصـلـاحـاتـ البرـجـواـزـيـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ، وـلـكـنـ ماـ اـتـسـمـتـ بـهـ الجـمـهـوـرـيـةـ، مـنـ طـبـعـةـ طـقـيـةـ مـحـدـودـةـ أـثـرـ فيـ سـيـاسـتـهاـ الزـرـاعـيـةـ؛ فـإـنـ الـامـتـنـاعـ عـنـ تـحـوـيلـ أـرـاضـيـ الـمـلـاكـينـ العـقـارـيـنـ مـلـكـاـ لـلـفـلاحـينـ حـلـيـفاـ فيـ النـضـالـ ضدـ الثـورـةـ الـمـاـكـسـةـ، وـمـنـ جـرـاءـ تـدـخـلـ فـرـنـسـاـ وـالـنـمـساـ وـنـابـوليـ، سـقـطـتـ جـمـهـوـرـيـةـ روـمـاـ فيـ ٣ـ يـوـزـ (ـيـولـيوـ)ـ ١٨٤٩ـ.ـ صـ ٣٦ـ.

(24) يقصد ماركس هنا الواقعـ التـالـيـ منـ حـيـاةـ لوـيـسـ بـوـنـابـرتـ: فيـ عـامـ ١٨٣٢ـ، تـجـنـسـ لوـيـسـ بـوـنـابـرتـ بـالـجـنـسـيـةـ السـوـيـسـيـةـ فيـ كـانـتوـنـ (ـقـضـاءـ)ـ توـرـغـامـ؛ فيـ عـامـ ١٨٤٨ـ، تـطـوـعـ لوـيـسـ بـوـنـابـرتـ، أـنـتـاءـ أـقـامـتـهـ فيـ بـرـيـطاـنـيـاـ، فـسـ صـفـوفـ "ـالـكـوـنـسـتـابـ"ـ الـحـصـوصـيـنـ (ـوـهـؤـلـاءـ فيـ بـرـيـطاـنـيـاـ هـمـ رـجـالـ الـبـولـيـسـ الـاحـتـيـاطـيـ منـ الـمـدـنـيـنـ)ـ الـذـيـنـ عـاـنـوـاـ الـبـولـيـسـ ضـدـ الـمـظـاـهـرـةـ الـعـالـمـيـةـ الـتـيـ نـظـمـهـاـ الشـارـتـيـوـنـ (ـالـمـيـثـاقـيـوـنـ)ـ فيـ ١٠ـ نـيـسانـ (ـآـبـرـيلـ)ـ ١٨٤٨ـ.ـ صـ ٣٦ـ.

لقد أوضحت مفصلاً في غير هذا المكان مغزى انتخاب العاشر من كانون الأول (ديسمبر) ⁽²⁵⁾. ولن أعود إليه هنا. ويكفي أن أشير هنا إلى إنه كان رد فعل من الفلاحين، الذين ثرتب عليهم أن يدفعوا نفقات ثورة شباط (فبراير)، ضد الطبقات الباقية من الأمة – رد فعل من الريف ضد المدينة. وقد صادف عطفاً كبيراً في الجيش الذي لم يقدم له جمهوريو "National" لا مجدًا ولا زيادة في الرواتب، ولدى البرجوازية الكبيرة التي حيث بونابرت باعتباره جسراً إلى الملكية ولدى البروليتاريا والبرجوازيين الصغار الذين حيوه باعتباره سوط عقاب لكافينياك. ولسوف تناح لي فيما بعد فرصة الخوض بصورة أكثر تدقيقاً في موقف الفلاحين من الثورة الفرنسية.

أن الفترة من العشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ لغاية حل الجمعية التأسيسية في شهر أيار (مايو) ١٨٤٩ تشمل على تاريخ سقوط الجمهوريين البرجوازيين. وبعد أن أسس هؤلاء جمهورية للبرجوازية وطردوا البروليتاريا الثورية من الميدان وأسكنوا البرجوازية الصغيرة الديموقراطية لفترة من الزمن، طرحوها هم أنفسهم جانباً من قبل جمهرة البرجوازية التي استولت على هذه الجمهورية عن حق باعتبارها ملكاً لها. بيد أن هذه الجمهرة البرجوازية كانت ملكية. كان قسم منها، وهو كبار مالكي الأرض، يحكم زمن العودة فكان بناء على ذلك شرعياً ⁽²⁶⁾. والقسم الآخر، وهو أقطاب المال ورجال الصناعة الكبار، كان يحكم أثناء ملكية تموز (يوليو) وكان وبالتالي أورليانيا ⁽²⁷⁾. أما أصحاب المقامات العليا في الجيش وفي الجامعة والكنيسة ونقابة المحامين والأكاديمية والصحافة فكنا نجدهم موزعين بين كلا الجانبين، وإن يناسب مختلفة. وهنا، في الجمهورية البرجوازية، التي لم تكن تحمل لا اسم بوربون ولا اسم أورليان بل أسم رأس المال، وجد هذان القسمان من البرجوازية شكل الدولة الذي استطاعا أن يسيطرا فيه سوياً. أن تمرد حزيران (يونيو) كان قد وحدهما في "حزب النظام". وليوم آن الأول لإنقاصاء زمرة الجمهوريين البرجوازيين الذين كانوا ما يزالون يحتلون مواقعهم في الجمعية الوطنية. وبقدر ما كان هؤلاء الجمهوريون الصرف متوجهين في سوء استخدامهم للقوة البدنية ضد الشعب، بقدر ما كانوا جبناء ومتهاقين وخائرين ومتخاذلين وعاجزين عن القتال في تقهقرهم، عندما كان الأمر يتطلب الذود عن نزعتهم الجمهورية وحقوقهم التشريعية ضد السلطة التنفيذية ضد الملكيين. ولست في حاجة لأن أروى هنا تاريخ انحلالهم المعيب. أنهم لم يهلكوا بل أنهم زوالاً من الوجود. لقد أدوا دورهم إلى الأبد. وسواء في داخل الجمعية أو في خارجها كانوا يظهرون في الفترة التالية كأشباح الماضي فحسب، أشباح كان يبدو أنها تتبعث ثانية كلما كان الأمر يتناول مجرد أسم الجمهورية مرة أخرى، وكلما كان النزاع الثوري يهدد بالهبوط إلى المستوى الأدنى. وأشار هنا بصورة عابرة إلى أن صحيفة "National" التي أعطيت أسمها لهذا الحزب، انحازت إلى الاشتراكية في الفترة التالية.

و قبل أن نفرغ من هذه الفترة لا بد لنا أن نلقي نظرة إلى الوراء على القوتين اللتين أبادتا أحدهما الأخرى في ٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١، بينما كانتا تعيشان متزوجتين من ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨ حتى توالي الجمعية التأسيسية. ونحن نعني بهما لويس بونابرت من جهة وحزب الملكيين المؤتلفين، حزب النظام، حزب البرجوازية الكبيرة ، من جهة أخرى. أن بونابرت قام، فور توليه رئاسة الجمهورية، بتشكيل وزارة من حزب النظام وضع على رأسها أوليلون بارو الرعيم القديم، - ولنلاحظ هذا، - لكتلة الأكثر ليبرالية من البرجوازية البرلمانية. لقد أمسك المسيو بارو أخيراً بحقيقة وزارية

(25) المقصود هنا تحليل انتخابات ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨ . الذي أورده ماركس في مؤلفه "نضال الطبقات في فرنسا من عام ١٨٤٨ على ١٨٥٠ ." . ص .٣٦ .

(26) الشرعيون – legitimists – أنصار سلالة بوربون التي أسقطت في فرنسا عام ١٧٩٢ والتي كانت تمثل مصالح كبار مالكي الأراضي بالوراثة. بعد الإطاحة للمرة الثانية بهذه السلالة في عام ١٨٣٠ ، أتحد الشرعيون في حزب سياسي. – ص .٣٧ .

(27) الأورليانيون، حزب ملكي لاريسقراطية المال والبرجوازية الكبيرة، وأنصار دوّاقات أورليان الذين هم الفرع الأصغر من سلالة بوربون المسلمين لزمام الحكم منذ ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ حتى ثورة ١٨٤٨ . في عهد الجمهورية الثانية (١٨٤٨ – ١٨٥١) تكتلوا مع الشرعيين وشكلوا معًا ما يسمى حزب النظام. – ص .٣٧ .

كان شبحها يملأ عليه حياله منذ عام ١٨٣٠، فضلاً عن إنها حقيقة رئيس الوزراء. بيد أنه توصل إلى هذا على غير ما كان يحلم به في عهد لويس فيليب، لا بصفته الزعيم الأكثر نقداً للمعارضة البرلمانية بل كحليف لجميع خصومه الأداء، اليسوعيين والشريعين فضلاً عن أن مهمته هي إعدام البرلمان. لقد جلب أخيراً العروس إلى الكنيسة ولكن بعد أن تم انتهاء بكارتها. وبدأ كأنّ بونابرت قد طمس نفسه تماماً. فإن حزب النظام كان يقوم بالعمل نيابة عنه.

وفي الاجتماع الأول بالذات لمجلس الوزراء تقرر توجيه الحملة العسكرية على روما وتم الاتفاق على أن يجري القيام بهذه الحملة من وراء ظهر الجمعية الوطنية وعلى أن تنتزع الأموال الضرورية لها من الجمعية الوطنية بذرية كاذبة. وهكذا بدأت الوزارة نشاطها بغض الجمعية الوطنية وبالتالي مع الدول المستبدة في الخارج ضد الجمهورية الرومانية الثورية. وبالطريقة ذاتها وبالمناورات ذاتها أعد بونابرت انقلابه في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ضد الجمعية التشريعية الملكية وجمهوريتها الدستورية. وينبغي إلا ننسى أن الحزب نفسه الذي شكل وزارة بونابرت في العشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٨ كان يشكل الأكثريية في الجمعية الوطنية التشريعية في ٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١.

وفي شهر آب (أغسطس) قررت الجمعية التأسيسية إلا تحل نفسها إلا بعد الفراغ من وضع وإصدار سلسلة كاملة من القوانين العضوية لاستكمال الدستور. وفي السادس من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩، جعل حزب النظام نائباً يدعى راتو يقترح أن تدع الجمعية هذه القوانين العضوية وشأنها وأن تتخذ بالأحرى قراراً بشأن حلها من تلقاء ذاتها. وليس الوزارة وحدها، وعلى رأسها المسيو أوديلون بارو، بل جميع النواب الملكيين في الجمعية الوطنية كانوا يرددون لها بلهجة الوعيد حينئذ بأن لها كان ضرورياً لإعادة الثقة وتوطيد دعائم النظام ولوضع حد للوضع المؤقت غير المحدد وإيجاد حالة من الاستقرار النهائي، كما كانوا يرددون أن الجمعية تعرقل قيام الحكومة الجديدة بالنشاط المثير وإنها لا تزيد إطالة بقائها إلا بدفع العناد الشريرحسب وإن البلاد قد تعبت منها. وأخذ بونابرت علمًا بكل هذه الحملات على السلطة التشريعية وحفظها عن ظهر قلب وأثبتت للملكين البرلمانيين في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١، إنه قد تعلم منهم بعض الشيء. فقد وجه شعاراتهم نفسها ضد هم.

ولم تقف وزارة بارو وحزب النظام عند هذا الحد. فقد استكتبوا عرائض إلى الجمعية الوطنية في جميع أنحاء فرنسا تطالبها بأدب بأن تشد الرحال. وهكذا قادوا الجماهير الشعبية غير المنظمة إلى نيران المعركة ضد الجمعية الوطنية، وهي التعبير الدستوري المنظم عن إدارة الشعب. لقد علموا بونابرت أن يلجأ إلى الشعب ضد الجمعيات البرلمانية، وأخيراً، وفي ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩، حان اليوم الذي كان يترتب فيه على الجمعية التأسيسية أن تبت في أمر حل نفسها. في هذا اليوم وجدت الجمعية البنية التي تعقد فيها جلساتها محتلة من قبل وحدات الجيش، وعمد شانغارنييه، جنرال حزب النظام، الذي اجتمع في بيته القيادة العليا للحرس الوطني والجيش النظمي، إلى إقامة عرض عسكري كبير في باريس كما لو أن معركة حربية كانت على الأبواب، وأعلن الملكيون المؤلفون للجمعية التأسيسية بلهجة التهديد والوعيد أن القوة ستستخدم لو ثبتت أنها غير موافقة. ولكنها أبدت موافقتها، إلا أنها حصلت على المهلة القصيرة للغاية التي ساومت عليها. وماذا كان التاسع والعشرون من كانون الثاني (يناير) غير Coup détat الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١ قام بتنفيذ الملكيون بالتحالف مع بونابرت ضد الجمعية الوطنية الجمهورية؟ أن السادة الملكيين لم يلاحظوا، أو لم يشعروا أن يلاحظوا، أن بونابرت أستغل أحاديث اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ لكي يجعل قسمًا من الجيش يمر أمامه قبالة قصر التويلري، وإنه أغتنم بشراءه هذا الاستدعاء العلني الأول بالذات للقوة العسكرية ضد القوة البرلمانية لكي يلمح لهم إلى كاليفولا⁽²⁸⁾. وبديهي أنهم لم يروا سوى رجلهم شانغارنييه. أن أحد الدوافع التي كانت تحفز حزب النظام بشكل خاص على تقصير أجل الجمعية التأسيسية

(28) الإمبراطور الروماني كاليفولا (٣٧ - ٤) رفعه الحرس البريتوري إلى العرش - ص ٤١.

بالقوة كان يكمن في القوانين العضوية المستكملة للدستور، كقانون التعليم وقانون ممارسة الشعائر الدينية الخ.. لقد كان من المهم للغاية بالنسبة للملكيين المؤثرين أن يقوموا هم أنفسهم بسن هذه القوانين وإلا يدعوا الجمهوريين الذين غدوا متشككين يسونها. بيد أنه كان هنالك أيضاً بين هذه القوانين العضوية قانون حول مسؤولية رئيس الجمهورية. وفي سنة ١٨٥١ كانت الجمعية التشريعية منهنكة في صياغة قانون بهذا القانون بالضبط، عندما عاجل بونابرت هذا Coup (صربة، عامل حاسم. الناشر). الثاني من كانون الأول (ديسمبر). والملكيون المؤثرون كانوا مستعدين لإعطاء شيء في حملتهم البرلمانية الشتوية سنة ١٨٥١ ليجدوا قانون مسؤولية رئيس الجمهورية جاهزاً بين أيديهم، حتى ولو صاغته جمعية الجمهوريين المعادية والمتشككة!

بعد أن حطمت الجمعية التأسيسية بنفسها آخر سلاح لها في الناسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٩ قامت وزارة بارو وأصدقاء النظام بمطارتها بلا هواة. إنهم لم يضيعوا فرصة واحدة لإذلالها وانتزاعوا من الجمعية العاجزة واليائسة من نفسها قوانين كلفتها آخر بقية من احترام كانت لها في عيون المجتمع. وكان لدى بونابرت، الذي كانت تشغله فكرته النابوليونية الثابتة، ما يكفي من الصفافة لاستغلال هذا الحط من شأن السلطة البرلمانية على ملأ من الناس. فعندما اتخذت الجمعية الوطنية، في الثامن من أيار (مايو) ١٨٤٩، قراراً بلوم الوزارة بسبب احتلال تشييفافيكيما من قبل الجنرال أودينو وأمرتها بارجاع الحملة الرومانية إلى غرضها المرسوم⁽²⁹⁾ نشر بونابرت في ذلك المساء نفسه في "Moniteur" رسالة إلى أودينو هنأ فيها على آثاره البطولية وأظهر نفسه، على نقىض البرلمانيين أهل القلم، بمظهر الحامي الشهم للجيش. وقابل الملكيون ذلك بالابتسام إذ كانوا على يقين بأنه مجرد مغفل في أيديهم. وأخيراً وعندما ظن مارست، رئيس الجمعية التأسيسية، للحظة أن سلامة الجمعية الوطنية في خطر وقام، استناداً إلى الدستور، باستدعاء أحد العداء وفوجه، رفض العقيد ذلك مستنداً على الانضباط وحال مارست على شانغارنييه الذي رفض الطلب مثيراً بسخرية على أنه لا يحب "boionnettes intelligentes" (الحراب المفكرة. الناشر). وعندما أستعد الملكيون المؤثرون في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ لأن يبدأ صراعهم الحاسم ضد بونابرت، حاولوا، عن طريق مشروع قانونهم السيء الذكر المعروف بإسم مشروع قانون الكويستور⁽³⁰⁾ ، إقرار مبدأ استدعاء وحدات الجيش من قبل رئيس الجمعية الوطنية مباشرة. وقد وقع أحد جنرالاتهم المدعو ليفلو على مشروع القانون. ولكن عبثاً افترع شانغارنييه إلى جانبه وأطربى تبیر الحكم البعيدة النظر التي كانت تتمتع بها المرحومة الجمعية التأسيسية. لقد أجابه وزير الحربة سان أرنو بمثل ما أجاب شانغارنييه مارست - وسط تصفيق "الجبيل"!

وهكذا فإن حزب النظام، عندما لم يكن بعد سوى الوزارة، لا الجمعية الوطنية، قام بنفسه بتأطيخ سمعة الحكم البرلماني. وهو يرفع عقيرته صائحاً عندما طرد انقلاب اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ هذا الحكم من فرنسا!

أتنا نتمنى له سفراً ميموناً!

(29) انتزعت الحكومة الفرنسية من الجمعية التأسيسية أعتمادات لأجل تجهيز جيش الغزو إلى إيطاليا في نيسان (أبريل) ١٨٤٩، بمحة مساندة البيمون في كفاحها ضد النمسا والدفاع عن جمهورية روما. أما المدف الحقيلي من الحملة، فكان التدخل ضد جمهورية روما وإعادة سلطة البابا الدنبوية. – ص ٤٢.

(30) المقصود هنا مشروع القانون الذي قدمه في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ الملكيون ليفلو وبازو وبانا "كويستور" الجمعية التشريعية (وكلاه الجمعية لإدارة شؤونها الاقتصادية والمالية ولتأمين سلامتها) والذي رفض في ١٧ تشرين الثاني بعد مناقشات حادة. عند التصويت، دعم "الجبيل" بونابرتين، لاعتباره أن الملكيين يشكلون الخطر الرئيسي – ص ٤٣.

(٣)

في ٢٨ أيار (مايو) سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية الوطنية التشريعية وفي ٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٥١ حلّت. وهذه الفترة تشمل عمر الجمهورية الدستورية أو البرلمانية.

في الثورة الفرنسية الأولى تعاقب الدستوريون فالجيرونديون فاليعاقبة على الحكم. وكان كل حزب من هذه الأحزاب تعتمد على الحزب الأكثر منه تقدمية. وحالما كان كل حزب يوصل الثورة إلى مدى لا يستطيع بعده أن يسايرها، بله أن يتزعمها، كان يُطرح جانباً من قبل الحليف الأجرأ الذي يقف وراءه ويرسل إلى المقصولة. وهكذا كانت الثورة تسير في خط صاعد.

عكس ذلك حدث في ثورة سنة ١٨٤٨. فإن الحزب البرولياري يبدو فيها كتابع للحزب الديمقراطي البرجوازي الصغير. وقد خانه هذا الحزب الأخير وساعد على إسقاطه في السادس عشر من نيسان (أبريل) وفي الخامس عشر من أيار (مايو) وفي أيام حزيران (يونيو). والحزب الديمقراطي كان يستند بدوره إلى أكتاف الحزب الجمهوري البرجوازي. ولكن ما أن ظن الجمهوريون البرجوازيون أن الأمور قد استقرت لهم حتى نفروا عنهم رفيقهم المزعج واستندوا على أكتاف حزب النظام. غير أن حزب النظام هز بكتفيه وترك الجمهوريين البرجوازيين يسقطون وسارع إلى إلقاء نفسه على أكتاف القوة المسلحة. وتوهم هذا الحزب إنه كان ما يزال يجلي على أكتافها عندما رأى هذه الأكتاف ذات صباح جميل وقد استحالت إلى حراب. كان كل حزب يركل الحزب الذي يدفعه من الوراء، وكان في الوقت نفسه يدفع ظهر الحزب الذي أمامه والذي يدفع به إلى الوراء. فلا عجب أن يفقد توازنه وهو في هذا الوضع المضحك وأن يهوى بقطبيات الوجه التي لا بد منها وهو ينط نطاط غريبة. وهكذا كانت الثورة تسير في خط نازل. وقد وجدت نفسها في هذه الحال من الحركة التمهذية قبل أن يزول آخر متراص من متأريخ شباط (فبراير) وتشكل أول سلطة ثورية.

أن الفترة التي نحن بصددها تضم خليطاً من المتناقضات الصارخة مبرقشاً إلى أقصى حد: دستوريون يتآمرون على ضد الدستور؛ ثوريون يعتزرون بصرامة بأنهم أنصار الدستور؛ جمعية وطنية تريد أن تكون كلية القدرة، وتنظر دائماً برلمانية؛ حزب "الجل" الذي يجد دعوته في الصبر والذي يعيش عن هزائمه الحالية بالتبؤ بانتصارات مقبلة؛ ملكيون في دور patres conscripti (الشيخ، الناشر). الجمهورية ومرغمون بحكم الظروف على أن يدعموا خارج البلاد البيوت المالكة المتعادية التي يشاعونها وعلى أن يدعموها في فرنسا الجمهورية التي يكرهونها؛ سلطة تنفيذية تجد قوتها في ضعفها ذاته ومكانتها في الاحتقار الذي تثيره في النفوس؛ الجمهورية ليست سوى الجمع بين أذرع جوانب ملكيتين: عهد العودة وملكية تموز (يوليو) وعليه لافتة إمبراطورية؛ أحلاف تقوم على الانفصال؛ كفاحات قانونها الأساسي عدم السير بها إلى النهاية؛ تهيج طاش أجوف باسم السكينة؛ أوكد أنواع التبشير بالسكنية باسم الثورة؛ عاطفة بلا صدق وصدق بلا عاطفة؛ أبطال بلا بطولات وتاريخ بلا أحداث؛ تطور يبدو أن القوة الدافعة الوحيدة له هي التقويم الزمني، تطور مرهق بسبب من دوام تكرار ذات النهضات والسقطات، معاكسات يبدو كأنها لا تتأزم دورياً حتى تبلغ الأوج إلا لتفقد حيتها بعد ذلك ولتسقط دون أن تستطيع الوصول إلى حل؛ جهود تعرض بمباهاة وإدعاء ورعب تافه من خطر نهاية العالم الزاحفة في وقت ينصرف فيه مخلصو العالم إلى أحرق المكائد وإلى مهازل البلاط فلا يذكروننا، بسبب من لا مبالاتهم، بيوم الحساب بقدر ما يذكروننا بأيام الفروند⁽³¹⁾؛ كل العبرية الرسمية

(31) الفروند، حركة البلاء والبرجوازيين ضد الحكم المطلق في فرنسا في أعوام ١٦٤٨ - ١٦٥٣. أعتمد زعماء الحركة البلاء على حاشياتهم وعلى الجنود الأجانب، واستغلوا في مصلحتهم انتفاضات الفلاحين والحركة الديموقراطية في المدن التي حررت في ذلك الوقت. - ص ٤٥.

لفرنسا كلها تغدو صفرًا أمام الحماقة الماكنة لفرد واحد؛ الإدارة الجماعية للأمة، كلما تقصص عن ذاتها عن طريق الاقتراع الشامل، تبحث عن التبيير الملائم عن نفسها في الأداء الأداء لمصالح الجماهير حتى تجده آخر الأمر في إدارة قرصان واحد. ولو أن حقبة من التاريخ طلبت بلون رمادي على رمادي ل كانت هي هذه الحقبة بالضبط. أن الناس والأحداث يظهرون كشليمات ممحوسة، كظلال فقدت أجسامها⁽³²⁾. فالثورة نفسها تشن أولئك الذين يحملون أعباءها وتمتنع خصومها وحدهم قوة العنف الفائرة. وعندما يظهر أخيراً "الشبح الأحمر"، الذي يستحضره دعاة الثورة المعاكسة ويطردونه باستمرار، فهو لا يظهر والقبعة الفريجية الفوضوية⁽³³⁾ فوق رأسه بل يظهر في بزة النظام، في سراويل حمراء.

لقد رأينا أن الوزارة التي نصبها بونابرت في العشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨، يوم اعتلائه سدة الرئاسة، كانت وزارة من بارو – فالو هذه بعد زوال الجمعية التأسيسية الجمهورية التي قصرت الوزارة أجلاها بالعنف قل أو كثر، ووجدت نفسها ما تزال تقپض على زمام السلطة. وقد ظل شانغازانيه، جنرال الملكيين المؤمنين، يجمع في شخصه القيادة العليا لفرقة الجيش الأول وللحراس الوطني في باريس. وأخيراً أمنت الانتخابات العامة لحزب النظام أغلبية ضخمة في الجمعية التشريعية. وقد واجه نواب لويس فيليب وبنلاوه هنا جيشاً مقدسًا من الشرعيين تحولت ببطاقات الاقتراع العام الكثيرة بالنسبة لهم إلى بطاقات لدخول المسرح السياسي. أما النواب البونابرتيون فقد كانوا من ضاللة العدد بحيث تعذر عليهم أن يشكلوا حزبًا برلمانيًا مستقلًا ظهروا بمظهر *queue mouvaise* (الذى الخمير، الناشر). لحزب النظام. وهكذا استولى حزب النظام على السلطة الحكومية وعلى الجيش والهيئة التشريعية، وبكلمة، على سلطة الدولة بكمالها التي تعززت معنوياً بالانتخابات العامة التي جعلت سيطرة حزب النظام تظهر كأنها تعبير عن إرادة الشعب وبالانتصار الذي أحرزته الثورة المعاكسة في الوقت ذاته في القارة الأوروبية بأكملها.

لم يسبق أن أفتتح حزب من الأحزاب حملته وهو يتمتع بموارد أضخم أو يحظى بطالع أيمن.

أما الجمهوريون الصرف الذي تحطمت بهم السفينة فلم يبقوا في الجمعية الوطنية التشريعية إلا زمرة مؤلفة من حوالي خمسين رجلاً وعلى رأسها الجنرالات الأفريقيون كافينيak ولاموريسير وبيدو. بيد أن حزب المعارضة الكبير كان يتتألف من "الجبل"، وهذا أسم برلماني أطلقه الحزب الاشتراكي – الديمقراطي على نفسه. وقد كان له في الجمعية الوطنية ما ينافي على مائتي صوت من ٧٥٠ صوتاً ولهذا فقد كان له من القوة ما يعدل على الأقل قوة أية كتلة من الكتل الثلاث التي تؤلف الحزب النظام لو أخذت على انفراد. أما أقليته العددية النسبية بالمقارنة مع الائتلاف الملكي بأكمله فقد كان يبدو أن ظروفًا خاصة عوضت عنها. فالانتخابات التي جرت في المقاطعات لم تبين أنه كسب إثناعاً كثريين بين سكان الأرياف فحسب بل كان يعد في صفوفه جميع نواب باريس تقريباً. وقد كشف الجيش عقائد الديمقراطيه بانتخابه ثلاثة من ضباط الصف، كما أن زعيم "الجبل"، ليورو سولان، على تقديره ممثلي حزب النظام جميعاً، رفعته إلى شرف عضوية البرلمان خمس مقاطعات أجمعت على تقديم أصواتها له. ونظرًا للاصطدامات التي كان لا مناص من وقوعها فيما بين الملكيين أنفسهم، وبين حزب النظام بكماله وبين بونابرت، فقد كان يبدو أن كل عناصر النجاح كانت بذلك متوفرة.

(32) بيتر شيليم، بطل قصة شاميسو "قصة بيتر شيليم المدهشة" الذي باع ظله مقابل صرة من النقود. – ص ٤٦.

(33) القبعة الفريجية (القبعة الحمراء) عمرة الرئيس عند الفرجينييين القدماء، فيما بعد، صارت ثوذجاً لقبعات العياقبة أبان الثورة البرجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، وأصبحت منذ ذلك رمز الحرية. – ص ٤٦.

لحزب "الجبل" في الثامن والعشرين من أيار (مايو) سنة ١٨٤٩. ولكنه بعد أسبوعين كان قد فقد كل شيء، بما في ذلك الشرف.

و قبل أن نواصل تتبعنا للتاريخ البرلماني لا بد أن نبدي بعض الملاحظات لتقادي الأخطاء الشائعة لدى تقدير الطابع العام لهذه الحقبة التي أمامنا. إذ نظرنا إلى فترة الجمعية الوطنية التشريعية بعيون الديمقراطيين فسنجد أن ما عنيت به هذه الفترة هو نفس ما عنيت به فترة الجمعية التأسيسية: الصراع البسيط بين الجمهوريين والملكين. أما الحركة نفسها فهم يلخصونها في كلمة واحدة هي "الرجعية"، أي الليل إذ تبدو فقط كلها فيه رمادية، ويسمح للديمقراطيين بأن يكرروا على الأسماع بلا عائق العبارات السطحية المعهودة التي يرددوها الحارس الليلي. والحق أن حزب النظام يبدو لنا، لأول وهلة، عبارة عن متأهة محيرة من التكتلات الملكية المختلفة التي لا تتأمر أحدها ضد الأخرى فحسب -لكي تجلس على العرش من تؤيده من المدعين به وتنصي عنه المدعى الذي تؤيده الكتلة المعارضة - بل هي كلها قد جمعتها أيضاً الكراهية المشتركة "لجمهورية" والنضال المشترك ضدها. وعلى النقيض من هؤلاء المتآمرين الملكيين يظهر "الجبل" من جهته كمدافع عن "الجمهورية". أن حزب النظام يبدو منهمكاً على الدوام في حملة "رجعية" موجهة ضد الصحافة والجمعيات وما شاكل ذلك بصورة لا تزيد ولا تقل عما هو حاصل في بروسيا، ويتم تنفيذها، كما هو في بروسيا أيضاً، في شكل تدخل بوليسي وحشي من جانب البيروقراطية والدرك والمحاكم. و "الجبل" من جهته منهك أيضاً، كانهماك حزب النظام تماماً، بصورة متواصلة في صد هذه الهجمات والدفاع عن "حقوق الإنسان السرمدية" كما فعل، إلى هذا الحد أو ذاك، خلال فترة القرن ونصف القرن الأخيرة، كل حزب من هذه الأحزاب التي تسمى أحزاب الشعب. ولكن إذا حل المرء الوضع والأحزاب بمزيد من الإيمان، لأختقي هذا المظهر السطحي الذي يحجب الصراع الطيفي والسيماء المميزة لهذه الفترة.

أن الشرعيين والأورليانيين كانوا يشكلون، كما قلنا، الكتلتين الكبيرتين اللتين تألف منهما حزب النظام. ترى، ألم يكن ما شد كلا من هاتين الكتلتين إلى المدعى بالعرش الذي تريده وما فصل هاتين الكتلتين الواحدة عن الأخرى سوى الزنقة، والعلم المثلث الألوان، سوى آل بوربون وآل أورليان أو الأنواع المختلفة من النزعـة الملكية؟ هل كانت المسألة كالها مسألة اعتقاد بالملكية؟ أن الملكية العقارية الكبيرة هي التي كانت تحكم في عهد أسرة بوربون، مع كهانها وخدمها، بينما كان سلطان رأس المال - أي الصناعة الكبيرة، والتجارة الكبيرة وأستقراطية المال - وحاشيته المؤلفة من المحامين والأساتذة والخطباء المداهنين هو الذي يحكم في عهد آل أورليان. أن الملكة الشرعية (*jégitime* - المترجم) لم تكن إلا التعبير السياسي عن الحكم الوراثي لملك الأرض، كما أن ملكية تموز - (بوليتو) لم تكن إلا التعبير السياسي عن الحكم الذي أغتصبه حديثو النعمة البرجوازيون. أن ما فصل هاتين الكتلتين الواحدة عن الأخرى لم يكن لهذا السبب ما يسمى بالمبادئ بل كان شروط البقاء المادية لكل منها، كان نوعين مختلفين من الملكية، كان التقاض القديم بين المدينة والريف، المنافسة بين رأس المال والملكية العقارية. أما أن الذكريات القديمة والخصوصيات الشخصية، والمخاوف والأمال، والخلافات والأوهام، ومشاعر العطف والكراهية، والمعتقدات ورموز الإيمان، والمبادئ قد ربطتهم في الوقت نفسه أيضاً إلى هذا البيت المالك أو ذاك فمن ذات الذي ينكر هذا؟ فوق الأشكال المختلفة للملكية، فوق شروط البقاء الاجتماعية، ينهض بناء فوق كامل من المشاعر والأوهام وأنماط التفكير ووجهات النظر إلى العالم، المتميزة ببعضها عن بعض والمشكلة تشيكلاً خاصاً. أن الطبقة بأسرها تختلف وتكونها على أساس شروطها المادية وعلى أساس العلاقات الاجتماعية التي تقابلها. وقد يتصور الشخص الفرد الذي يستمدّها تقليدياً من العرف والتربية أنها هي التي تشكل البواعث الحقيقة ونقطة البدء في تصرفه. في بينما كان الأورليانيون والشرعيون، بينما كانت كل كتلة تسعى لتجعل نفسها وتجعل الكتلة الأخرى تعتقد أن ما كان يفصلهما إنما هو الولاء لبيتهما المالكين، أثبتت الحقائق فيما بعد أن تضاد مصالحهما هو الذي كان يحول بالأحرى دون توحيد البيتين المالكين. وكما أن المرء يفرق في الحياة العاديـة بين ما يحمله الإنسان من رأى وما يقوله عن نفسه وبين ما هو عليه في الواقع وما يفعله، هكذا أيضاً في الصراعـات التاريخـية

لا بد للمرء بالأحرى أن يميز بين أقوال الأحزاب وتخيلاتها وبين طبيعتها الحقيقة ومصالحها الحقيقة، بين فكرتها عن نفسها وبين حقيقتها. لقد وجد الأورليانيون والشرعيون أنفسهم جنباً على جنب في الجمهورية ولهم إدعاءات متساوية. وإذا كان كل جانب يسعى إلى عادة بيته المالك ضد الجانب الآخر فهذا لا يعني سوى أن كلا من الكتلتين الكبيرتين التي انقسمت إليهما البرجوازية - الملكية العقارية والرأسمال المالي - كانت تسعى على إعادة سيادتها وإخضاع الأخرى لها. ونحن نتحدث عن كتلتين اثنتين للبرجوازية لأن الملكية العقارية الكبيرة، على الرغم من دلّها الإقطاعي ومن فخرها بحسبها ونسبها، قد غدت برجوازية تماماً بفعل تطور المجتمع الحديث. وهذا تصور التوريون (التوريون - حزب Tory - حزب المحافظين في إنجلترا - المترجم). في إنجلترا مدة طويلة أنهم كانوا متحمسين للسلطة الملكية والكنيسة ومواطن الجمال في الدستور الانجليزي القديم حتى جاء يوم الخطر فانتزع منهم الاعتراف بأنهم متحمسون للريع العقاري وحده.

أن الملكيين المؤتلفين كانوا يكيدون بعضهم البعض في الصحف، وفي أيمز وفي كليرمونت⁽³⁴⁾، خارج البرلمان. ووراء الكواليس كانوا يرتدون من جديد حلّهم الأورليانية والشرعية القديمة وينهمكون من جديد في مبارزتهم القديمة. أما على المسرح العام فقد كانوا، في تمثيلياتهم وبصفتهم حزباً برلمانياً كبيراً، يكتفون بانحناءات الاحترام أمام البيتين المالكين ويؤجلون إعادة الملكية *In infinitum* (إلى ما لا نهاية له. الناشر). وكانوا يؤدون شغفهم الحقيقي بوصفهم حزب النظام، أي في صفة اجتماعية لا صفة سياسية، بوصفهم الطبقة البرجوازية ضد سائر الطبقات، لا ملكيين ضد جمهوريين. وبوصفهم حزب النظام كانوا يمارسون سلطاناً أقل تقيداً وأشد وطأة على الطبقات الأخرى في المجتمع من أي سلطان مارسوه في وقت من الأوقات في عهد العودة أو عهد ملكية تموز (بولييو)، سلطاناً لم يكن ممكناً بصورة عامة إلا في ظل شكل الجمهورية البرلمانية لأنّه لا يمكن، إلا ظل هذا الشكل للكتلتين الكبيرتين من البرجوازية الفرنسية أن تتحدا وأن تدرجًا بذلك في جدول الأعمال حكم طبقتهما لا حكم كتلة ذات امتياز منها. وإذا كانوا، برغم ذلك، بوصفهم حزب النظام، قد أهانوا الجمهورية أيضاً وأعربوا عن نفورهم فإن هذا لم يكن يحثّ بسبب الذكريات الملكية فحسب. فإن الغريزة علمتهم أن الجمهورية هي ذروة حكمهم السياسي، بيد أنها تتّقدّس في الوقت نفسه أساسه الاجتماعي لأنّه كان عليهم أن يواجهوا الآن الطبقات المقهورة ويتنازعوا معها مباشرة، بدون التغطية التي هي الناج، بدون صرف اهتمام الأمة بالصراعات الثانوية التي تدور بينهم ومع الحكم الملكي. أن الشعور بالضعف هو الذي دعاهم إلى النكوص عن الشروط الخالصة لحكم طبقتهم ذاتها وإلى الحنين إلى الأشكال السابقة لهذا الحكم، الأشكال الأقل كمالاً، والأقل تطوراً، ولهذا السبب بالذات الأقل خطراً. بالعكس، كلما كان الملكيون المؤلفون يصطدمون المدعى بالعرش المعادي لهم، أي ببونابرت، وكلما كانوا يعتقدون بأن سلطانهم البرلماني الكلي في خطر من السلطة التنفيذية، وكلما كان يترتّب عليهم وبالتالي وبالدرجة الأولى أن يثبتوا صفتهم السياسية التي تعطيهم الحق في حكمهم، كانوا يطّلعون على الناس كجمهوريين لا ملكيين، ابتداء من تبیر الأورلياني الذي أكد للجمعية الوطنية أن مسألة الجمهورية ترقّهم إلى أعلى مدى ممكن، وانتهاء ببربيه الشرعي الذي وقف، في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١، وبصفته محامياً عن الأمة مقمطاً بوشاح مثلث الألوان يجلجل باسم الجمهورية في الناس المحتشدين أمام دار بلدية الدائرة العاشرة. صحيح أن صدى ساخرًا كان يجاويه قائلاً: Henri V! Henri V!

وفي مواجهة الائتلاف البرجوازي، قام ائتلاف بين البرجوازيين الصغار والعمال، وهو ما يدعى بالحزب الاشتراكي - الديمقراطي. فالبرجوازيون الصغار رأوا أنهم كوفّوا مكافأة سيئة بعد أيام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ وأن مصالحهم المادية قد منيت بالخسائر وأن الضمانات الديمقراطية التي كان عليها أن تؤمن لهم أمكانية الدفاع عن هذه المصالح قد وضعتها الثورة المعاكسة موضع تساؤل. وبناء على ذلك، تقربوا من العمال. ومن جهة أخرى، عاد ممثّلهم البرلماني، "الجبّ" الذي طرح جنباً

(34) أيمز، متّجّع في ألمانيا. في آب (أغسطس) ١٨٤٩، عقد الشرعيون في آخر مؤتمر اشتراك فيه الكونت شامبور، الطامح إلى العرش الفرنسي تحت اسم هنري الخامس. كليرمونت، قصر في حوار لندن كان مقرّ الملك لويس فيليب بعد هربه من فرنسا. ص ٥١.

أثناء ديكاتورية الجمهوريين البرجوازيين، وظفر من جديد، في النصف الأخير من حياة الجمعية التأسيسية، بشعبنته السابقة وذلك بفضل الصراع ضد بونابرت والوزراء الملكيين. وقد عقد "الجب" حلفاً مع الزعماء الاشتراكيين. وفي شهر شباط (فبراير) ١٨٤٩ أقيمت الولائم احتفالاً بالمصالحة. ووضع المتحالفون برنامجاً مشتركاً وشكلوا لجاناً انتخابية مشتركة وقدموا مرشحين مشتركين. وقد جرّدت المطالب الاجتماعية للبروليتاريا من الحدة التورية وصُبِغَت بصبغة ديموقراطية، بينما جرّدت المطالب الديموقراطية للبرجوازية الصغيرة من الشكل السياسي البغيق السابق وصُبِغَت بصبغة اشتراكية. وهكذا نشأ الحزب الاشتراكي - الديموقراطي. أما "الجب" الجديد، وهو نتيجة هذه المساومة، فقد كان يضم، بصرف النظر عن بعض الأفراد التافهين من الطبقة العاملة وبعض من المنعزلين الاشتراكيين، نفس العناصر التي كان يضمها حزب "الجب" القديم، والفرق الوحيد أن عدد هذه العناصر كان أكثر. بيد أنه قد تغير في مجرى التطور، مع تغير الطبقة التي كان يمثلها. أن الطابع المميز للحزب الاشتراكي - الديموقراطي يتجلّى في كونه يطالب بالمؤسسات الجمهورية الديموقراطية كوسيلة لا لإزالة نقائضين هما: رأس المال والعمل المأجور بل لأضعاف تناحرهما وتحويله إلى انسجام. ومهما اختلفت الوسائل المقترحة لبلوغ هذه الغاية ومهما كانت التصورات التي تزدان بها ثورية إلى هذا الحد أو ذاك، فإن المغزى يبقى واحداً، غالباً وهو تحويل المجتمع بطريقة ديموقراطية ولكنه تحويل ضمن حدود البرجوازية الصغيرة. غير إنه لا يجوز للمرء أن يكون فكرة ضيقية الأفق تزعزع أن البرجوازية الصغيرة ترغب، من حيث المبدأ، في تحقيق مصلحتها الطبقة الأنانية. إنها تعتقد بالعكس أن الشروط الخاصة لانتعاشها هي في الوقت ذاته الشروط العامة التي لا يمكن إنقاذ المجتمع العصري وتقادى النضال الظبي فيه إلا ضمن نطاقها. كذلك لا يجوز للمرء إن يتصور إن ممثلي الديموقراطية هم جميعاً بالفعل من أصحاب الحوانيت أو مدافعون متهمون عن أصحاب الحوانيت. فإنهم بحب تعليمهم ووضعهم الفردي قد يكونون بعيدين عن ذلك بعد السماء عن الأرض. إن ما يجعلهم ممثلي للبرجوازية الصغيرة هو إنهم عاجزين عن أن يتعدوا في تقديرهم النطاق الذي لا تتعاده حياة البرجوازيين الصغار، وإنهم يتوصلون بالتاليين نظرياً، إلى القضايا والحلول ذاتها التي تساق البرجوازية الصغيرة إليها عملياً بداعي مصلحتها المادية ووضعها الاجتماعي. هذه، بصورة عامة، هي العلاقة بين الممثليين السياسيين والفكريين لطبقة من الطبقات وبين الطبقة التي يمثلونها.

بعد التحليل الذي قدمناه يكون من الواضح أن "الجب"، إذ ينالب بصورة متواصلة ضد حزب النظام من أجل الجمهورية وما يسمى بحقوق الإنسان فلا تكون الجمهورية ولا حقوق الإنسان هدفه النهائي شأنه في ذلك شأن جيش يريدون أن يجردوه من سلاحه فيقاوم ويخوض المعركة لا من أجل الاحتفاظ بسلاحه وحسب.

على أثر انعقاد الجمعية الوطنية مباشرة عمد حزب النظام إلى استفزاز "الجب". لقد شعرت البرجوازية الآن بضرورة القضاء على البرجوازية الصغيرة الديموقراطية تماماً مثلاً أدركت قبل عام ضرورة القضاء على البروليتاريا الثورية. ولكن وضعية الخصم كانت تختلف هذه المرة. فقوة الحزب البروليتاري كانت في الشوارع بينما كانت قوة البرجوازيين الصغار في الجمعية الوطنية نفسها. فالقضية إذاً كانت قضية استدراجهم من الجمعية الوطنية إلى الشوارع وجعلهم يحطمون بأنفسهم قوتهم البرلمانية، قبل أن يتسلّى توطيدتها بفعل الزمن والظروف. وأندفع "الجب" إلى الشرك على غير Heidi.

إن قصف روما بالمدفعية من قبل القوات الفرنسية كان الطعم الذي ألقى به إليه. لقد كان هذا يشكّل خرقاً للمادة ٧ (الخامسة) من الدستور⁽³⁵⁾ التي تحظر على الجمهورية الفرنسية استخدام قواتها العسكرية ضد حرية شعب آخر. وفضلاً عن ذلك تحظر المادة الرابعة والخمسون على السلطة التنفيذية إعلان الحرب دون موافقة الجمعية الوطنية، كما أن الجمعية التأسيسية كانت قد شجبت الحملة الرومانية، في قرارها الذي اتخذه في الثامن من أيار (مايو). وبناء على هذا، قدم ليdro -

(35) المادة ٧ (الخامسة) هي بند من مقدمة الدستور الفرنسي لعام ١٨٤٨. أما مواد النص الأساسي من الدستور، فمرقمة بالأرقام الهندية - ص ٥٥.

رولان للجمعية لائحة اتهام ضد بونابرت ووزرائه في اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو) ١٨٤٩. وإذا أحفظت ليdro - رولان قوارص الكلام التي كان يطلقها تيير، فقد سمح لنفسه أن ينجرف إلى درجة التهديد بأنه سوف يدافع عن الدستور بكل الوسائل وحتى بقوة السلاح. وقام أعضاء "الجبال" قومة رجل واحد وكرروا هذه الدعوة إلى السلاح. وفي اليوم الثاني عشر من حزيران (يونيو) رفضت الجمعية الوطنية لائحة الاتهام وتترك "الجبال" البرلمان. أما حوادث الثالث عشر من حزيران (يونيو) فمعروفة: البيان الذي أصدره فريق من "الجبال" والذي أعلن فيه بونابرت وزراء "خارجين على الدستور"؛ الموكب الذي نظمه في الشوارع أفراد الحرس الوطني الديموقراطي الذي شنتوا، وهم غير المسلمين، عند القائهم بقوان شانغارنييه، أليخ.. الخ.. وقد فر قسم من "الجبال" إلى الخارج، وقسم آخر على المحكمة أمام المحكمة العليا في بورجيه، بينما أخضع الباقون، كالتلامة، وفقاً للنظام البرلماني، لرقابة حقرة يمارسها رئيس الجمعية الوطنية. وأعلنت حالة الحصار في باريس مرة أخرى وحل الجزء الديموقراطي من الحرس الوطني الباريسي. وهكذا صفت نفوذ "الجبال" في البرلمان وقوة البرجوازيين الصغار في باريس.

أن مدينة ليون، حيث أصبحت حوادث اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) إشارة لانتفاضة دموية قام بها العمال، قد أعلنت فيها كذلك هي وخمس مقاطعات مجاورة لها حالة الحصار التي ما تزال سارية المفعول هناك حتى اللحظة الراهنة.

أن الشطر الأعظم من أعضاء "الجبال" قد خانوا طليعتهم إذ رفضوا توقيع البيان الذي أصدرته. كذلك فرت الصحافة من الميدان، ولم يجرؤ غير صحيفتين على نشر هذا البيان. وخان البرجوازيون الصغار ممثليهم وذلك أما بعدم حضور أفراد الحرس الوطني أو بعرقلتهم بناء المتاريس حيثما ظهروا. وخدع الممثلون البرجوازيين الصغار إذ لم يظهر أي أثر لخلفائهم المزعومين في الجيش. ثم أن الحزب الديموقراطي أخيراً، بدلاً من أن يكتب المزيد من القوة من البروليتاريا، أصابها هو بدعوى ضعفه وكما هو شأن جلائل الأعمال التي يقوم بها الديموقراطيون عادة، شعر الزعماء بالرضي إذ استطاعوا أن يتهموا "شعبهم" بالخيانة وشعر الشعب بالرضى إذ أستطاع أن يتم لهم الزعماء بالتجليل عليه.

قلما أُعلن عن إجراء من الإجراءات بضجيج يفوق ذاك الذي أعلن به عن الحملة التي كان "الجبال" يوشك على القيام بها، وقلما دوت الأبواق بحدث من الأحداث في نفقة أعظم وقبل وقوعه بمدة أطول، كما جرى ذلك هذه المرة حول الإعلان عن حتمية انتصار الديموقراطية. أن الديموقراطيين يؤمنون بلا شك بقوة الأبواق التي انهارت أمام نفخاتها أسوار أريحا⁽³⁶⁾ وهم يسعون، كلما وقفوا أمام أسوار الاستبداد، إلى تقليد هذه المعجزة. فلو أن "الجبال" أراد أن ينتصر في البرلمان، لما كان له أن يدعو على اللجوء إلى السلاح، ولو دعا إلى اللجوء إلى السلاح في البرلمان لما كان يجوز أن يتصرف تصرفاً برلمانياً في الشوارع. ولو كان بنوي جدياً القيام بمظاهره سلمية، لكن من الحماقة الظن أنها لن تستقبل استقبلاً حربياً. ولو كان يقصد الكفاح الحقيقي، لكن من غريب التفكير أن يلقى السلاح الذي به بخاض الكفاح. ولكن التهديدات الثورية التي يطلقها البرجوازيون الصغار وممثلوهم الديموقراطيون هي مجرد محاولات لإرهاب الخصم. فعندما يقع هؤلاء في مأزق، عندما يكونون قد أوقعوا أنفسهم في الشبهات لدرجة يتحتم عليهم معها أن يضعوا تهدياتهم موضع التنفيذ، حينذاك يفعلون هذا بطريقة غامضة ولا يتقادون شيئاً أكثر من الوسائل الازمة لبلوغ الغاية ويسعون وراء الذرائع للانهزام. فالافتتاحية المدوية التي تعلن بدء الكفاح تغدو هممة وجلة ما أن يبلغ الأمر حد الكفاح بالذات؛ إذ ذاك يتوقف الممثلون عنأخذ الأمور مأخذ الجد وتتوقف التمثيلية، وتتلاشى كالففاعة التي وخرتها إبرة.

(36) أريحا، تروي التوراة أن مدينة أريحا كانت أول مدينة استولى عليها اليهود بعد دخولهم إلى فلسطين. وقد سقطت أسوار أريحا على نفخات أبواب المهاجمين. - ص

ما من حزب يبالغ في تقدير الوسائل المتوفرة لديه أكثر من الحزب الديموقراطي وما من حزب يخدع نفسه عنحقيقة الوضع باستخفاف أكثر منه. فيما أن قسماً من الجيش أفتزع لحزب "الجلب" فقد أصبح هذا الحزب الآن على يقين من أن الجيش سوف يثور من أجله. وفي إيه مناسبة؟ في مناسبة لم يكن لها في نظر الجنود من معنى سوى أن الثوريين انحازوا إلى جانب الجنود الرومانيين ضد الجنود الفرنسيين . ومن ناحية أخرى كانت ذكريات أيام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ أنسنر من أن تسمح بأي شيء سوى المقت الشديد من جانب البروليتاريا تجاه الحرس الوطني والارتياح التام بالقيادة الديموقراطيين من جانب قادة الجمعيات السرية. ولكي تتسمى تسوية هذه الخلافات، كان لا بد من أن تكون هنالك مصالح جدية مشتركة معرضة للخطر. وخرق فقرة مجردة من فقرات الدستور لا يمكن أن يبعث مثل هذا الاهتمام. ألم يخرق الدستور مراراً عديدة، بحسب تأكيدات الديموقراطيين أنفسهم؟ ألم تصمه أكثر الجرائد شعبية بأنه شيء من صنع أعداء الثورة؟ بيد أن الديموقراطي، لأنه يمثل البرجوازية الصغيرة، أي طبقة انتقالية تتلائم فيها مصالح طبقتين بصورة متبادلة، يتصور لهذا السبب إنه فوق التناحر الطبقي بصورة عامة. والديموقراطيون يسلمون بأنهم يواجهون طبقة ذات امتيازات ولكنهم هم، مع سائر فئات الأمة، يشكلون الشعب. أن ما يدافعون عنه، هو، كما يقولون، حقوق الشعب وما يعبرون عنه، هو، كما يقولون، مصالح الشعب. ولذلك ليس بهم من حاجة، عندما يوشك صراع على النشوب، لأن ينحصروا مصالح الطبقات المختلفة وموافقها. وليس بهم من حاجة لأن يزنوا وسائلهم نفسها بميزان النقد الدقيق. كل ما عليهم هو أن يعطوا الاشارة وعندها ينقض الشعب على الظالمين، بكل ما لديه من وسائل لا تنفذ. أما إذا تبين أن مصالحهم لا تهم الآخرين وأن قوتهم هي عجز فاما، يكون الذنب حينئذ هو ذنب أولئك السفاسطائيين المؤذين الذين يشقون صفوف الشعب غير المنضم إلى معاشرات متعادية مختلفة وإما أن الجيش قد توشح أو أنعمى لدرجة تعذر عليه معها أن يدرك أن الأهداف الخالصة للديموقراطية هي أحسن الأشياء بالنسبة له هو نفسه، وأما أن تكون القضية كلها قد فشلت من جراء خطأ في التفاصيل أرتكب أثناء التنفيذ، وأما، أخيراً، أن تكون صدفة غير متوقعة قد ألت بالقضية إلى الفشل في هذه المرة. وعلى إيه حال يخرج الديموقراطي من أشد الهزائم خزيًا وهو طاهر الذيل بقدر ما كان بريئاً عندما دخل فيها، بعد أن يكون قد تعرّز افتuate بأنه لا بد أن ينتصر، وإنه لا ينبغي عليه هو وحزبه أن يتخلوا عن موقفهما القديم بل بالعكس، فإن الظروف هي التي يجب عليها أن تتضاج حتى تغدو ملائمة له.

وعلى هذا، لا ينبغي أن نتصور أن حزب "الجلب" قد غدا بائساً غاية البوس، على الرغم مما أصابه من تكيل وتحطيم ورغم أن عدد أعضائه قد قل كثيراً، ورغم الإذلال الذي لحق به من جراء النظام البرلماني الجديد. فإذا كان اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) قد أقصى رؤساءه فهو قد أفسح المجال، من جهة أخرى، لـ"عباقرة" من الدرجة الثانية كان يتملقهم هذا الوضع الجديد. وإذا كان عجزهم في البرلمان لم يعد موضع شك فقد صار من حقهم الآن أن يقتربوا عملهم على سورات الغضب انتصاراً للفضيلة وعلى الخطابة الطنانة الصاحبة. وإذا كان حزب النظام قد شاء أن يرى كل فظائع الفوضى مجسماً فيهم، بوصفهم آخر ممثلي وسميين للثورة، لأن في وسعهم أن يكونوا بالأولى أكثر تقاهة واعتدالاً في واقع الأمر. إنهم عزوا أنفسهم على هزيمة الثالث عشر من حزيران (يونيو) بالقول البليغ: "ليتجاوزوا على مس حق الأفتراك الشامل ليتجاوزوا وأن مرة! حينئذ سوف نريهم أي رجال نحن!" "Nous Verrons" (سوف نرى الناشر).

إما فيما يتعلق "بالجلبين" الذي فروا إلى الخارج فيكيفينا أن نشير هنا إلى أن ليورو سرولان قد وجد نفسه مدعوا الآن إلى تشكيل حكومة فرنسية *in partibus* (على الورق. الناشر). وذلك بعد أن نجح في فترة لا تتجاوز الأسبوعين في تدمير الحزب القوي الذي كان يرأسه حتى انعدمت كل إمكانية لإنقاذه؛ وإن شخصه بدأ الآن عن بعد، وهو مقصى عن مسرح العمل، وكان قامته قد إزدادت ارتقاها بقدر ما هبط مستوى الثورة وتضاءلت أشخاص أصحاب الأمر والنهاي الرسميين في فرنسا الرسمية؛ وإنه أسططاع أن يظهر بوصفه المدعي الجمهوري لانتخابات سنة ١٨٥٢؛ وإنه أصدر تعليمات دورية إلى الولاشين وغيرهم

من الشعوب توعد فيها طغاة القارة بـإفاعليه هو وحلفائه. وهل كان برودون مخطئاً كل الخطأ عندما صاح في وجوه هؤلاء السادة: "Vous n'etes que des blagueurs"؟ ("ستم سوى فواشيش").

إن حزب النظام لم يحطم قوة "الجبيل" فحسب في اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو)، بل إنه توصل أيضاً إلى إخضاع الدستور لقرارات الأكثرية في الجمعية الوطنية. وقد فهم الجمهورية كما يلي: في الجمهورية، تسود البرجوازية بأشكال برلمانية دون أن تواجه أي حدود من مثل حق السلطة التنفيذية في النقض أو حق هذه السلطة في حل البرلمان كما هي الحال في الحكم الملكي. وتلك هي الجمهورية البرلمانية، بحسب تحديد تيرير. ولكن البرجوازية إذ أمنت لنفسها، في اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو)، السلطان التام في داخل البرلمان، لم تنزل بالبرلمان نفسه ضربة قاضية بطرد أكثر نوابه شعبية، في مواجهة السلطة التنفيذية والشعب وبذلك أضعفته؟ إن البرجوازية بتسلیمها نواباً عديداً دون تکلف إلى المحاكم قد ألغت حسانتها البرلمانية ذاتها. كما أن النظام المهيمن الذي فرضته على نواب "الجبيل" قد رفع من شأن رئيس الجمهورية بذات القدر الذي غض فيه من شأن كل ممثل من ممثلي الشعب على إنفراد. وإذا هي وصفت انتفاضة استهدفت حماية الدستور بأنها عمل فوضوي يهدف إلى هدم المجتمع، حرمت نفسها من إمكانية الدعوى إلى الانتفاضة إذا ما عمدت السلطة التنفيذية إلى خرق الدستور من أجل محاربتها. ومن سخرية التاريخ أن أدينوا، ذلك القائد الذي قصف روما بالمدفعية بناء على تعليمات بونابرت، فهيأ بذلك المناسبة المباشرة للعصيان الدستوري في الثالث عشر من حزيران (يونيو)، قيضاً له أن يكون الرجل الذي قدمه حزب النظام إلى الشعب في ضراعة وعلى غير طائل بوصفه القائد المنافع عن الدستور ضد بونابرت في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١. وبطل آخر من أبطال الثالث عشر من حزيران (يونيو): فيرا الذي أطري من على منبر الجمعية الوطنية بسبب الأعمال الوحشية التي أرتكبها في مكاتب الصحف الديموقراطية على رأس عصابة من أفراد الحرس الوطني تتتمى إلى دوائر أرستقراطية المال - فيرا هذا نفسه كان مطلعًا على مؤامرة بونابرت وساهم مساهمة كبيرة في حرمان الجمعية الوطنية ساعة موتها من أية حماية من جانب الحرس الوطني.

وقد كان للثالث عشر من حزيران (يونيو) معنى آخر أيضاً. أن "الجبيل" كان يبذل جهده لمحاكمة بونابرت ولذلك كانت هزيمته نصرًا مباشرًا لبونابرت وظفرًا شخصياً له على أعدائه الديموقراطيين. إن حزب النظام هو الذي أحرز هذا النصر، وكل ما كان على بونابرت هو أن يسجل هذا النصر في سجله. وقد فعل ذلك. ففي اليوم الرابع عشر من حزيران (يونيو) كان المرء يقرأ على جدران باريس منشوراً يطل فيه الرئيس من صومعته، وهو متعدد، كأنما لا شأن له بكل هذا، كأنه أرغمه أرغاماً وأكرهه على ذلك مجرد ضغط الأحداث، ويشكو، كأنما هو الفضيلة التي أسيء فهمها، من الافتراضات التي يوجهها إليه خصومه، في الوقت الذي يبدو فيه وكأنه يجعل قضية شخصه هي قضية النظام كان يجعل في الواقع من قضية النظام قضية شخصه. أضاف إلى هذا أن الجمعية الوطنية، وإن وافقت فيما بعد على الحملة على روما، بيد أن بونابرت هو الذي تولى المبادرة في الموضوع. وهو بعد أن أعاد تنصيب رئيس الكهنة صموئيل في الفاتيكان أصبح لديه أمل في دخول التويليري باعتباره الملك داود⁽³⁷⁾. لقد كسب الكهنة إلى صفه.

أن تمرد الثالث عشر من حزيران (يونيو) قد أقصى، كما رأينا، على موكب سلمي في الشوارع. وبالتالي لم يكن ممكناً لهذا السبب أن تكون الغلبة فيه سبيلاً إلى الظفر بغار الحروب. وعلى الرغم من هذا فإن حزب النظام، في وقت كهذا الوقت فقير بالأبطال والأحداث، حول هذه المعركة التي لم تسأل فيها دماء إلى أوسترلتر ثانية. المنابر والصحف أثبتت على الجيش بوصفه قوة النظام، على نقية الجماهير الشعبية التي تمثل عجز الفوضى، ومجدت شانغلنرنيه باعتباره "حصن المجتمع" -

(37) تلميح إلى خطط لويس بونابرت الذي كان يأمل باسلام الناج الفرنسي من يدي بابا روما بيوس التاسع. وتوري التوراة أن النبي صموئيل مسح الملك داود بالميرون عند تنصيبه ملكاً. - ص ٦٢.

خداع أنطلي عليه هو نفسه آخر الأمر. وفي هذه الأثناء كانت القطعات العسكرية التي كان مشكوكاً في ولاتها قد نقلت من باريس خلسة وكذلك نفيت الفصائل التي أظهرت في الانتخابات مشاعر ديموقراطية أكثر من سواها من فرنسا إلى الجزائر، وأحيل المشاغبون من الجنود إلى مفارز العقاب وأخيراً نفذت عملية عزل الصحافة عن الثكنات والثكنات عن المجتمع المدني بصورة منتظمة.

وهنا نكون قد وصلنا إلى نقطة الانعطاف الحاسمة في تاريخ الحرس الوطني الفرنسي. كان الحرس الوطني في سنة ١٨٣٠ العامل الحاسم في تقرير مصير عهد العودة. وفي عهد لويس فيليب كان كل تمرد يقف فيه الحرس الوطني إلى جانب الجنود يمنى بالفشل. وعندما أظهر الحرس الوطني في أيام شباط (فبراير) ١٨٤٨ موقفاً سلبياً تجاه الانتفاضة و موقفاً مبهماً تجاه لويس فيليب، سلم هذا بهزيمته وهزم فعلاً. وهذا رسم الاعتقاد بأنه لا يمكن للثورة أن تنتصر بدون الحرس الوطني ولا للجيش أن ينتصر والحرس الوطني ضده. كانت هذه الخرافية في أيام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ عندما قام الحرس الوطني بأسره، بالاشتراك مع قوات الميدان، بإخماد الانتفاضة. وبعد أن تستلم بونابرت منصب رئيس الجمهورية طرأ على مركز الحرس الوطني بعض الضعف بعد أن جمعت قيادة قوات الحرس الوطني مع قيادة فرقاً من الجيش الأولى في شخص شانغارييه، بصورة غير دستورية.

وكما أن قيادة الحرس الوطني ظهرت هنا كصفة من صفات القيادة العسكرية العليا، كذلك ظهر الحرس الوطني نفسه ك مجرد ذيل القيادة العسكرية العليا، وكذلك ظهر الحرس الوطني نفسه ك مجرد ذيل لقوات الميدان. وأخيراً، في الثالث عشر من حزيران (يونيو) كسرت شوكته نهائياً، ولم يكن ذلك بتسرি�حة تدريجياً جزءاً بعد آخر فحسب أبتداء من هذا اليوم في جميع أنحاء فرنسا، حتى لم يتبق منه سوى شرذمة ضئيلة. فإن مظاهره الثالث عشر من حزيران (يونيو) كانت قبل كل شيء مظاهرة قام بها القسم الديموقراطي من الحرس الوطني. صحيح أن الحرس الوطني لم يقاوم الجيش بكل سلاحه بل ببرشه العسكري فقط ولكن في هذه البزة بالذات كان يمكن التلسم. لقد افتتح الجيش بأن هذه البزة كانت قطعة من الصوف شأنها شأن غيرها وزال السحر. أن البرجوازية والبرجوازية الصغيرة في شخص الحرس الوطني قد اتحدتا في أيام حزيران (يونيو) ١٨٤٨ مع الجيش ضد البروليتاريا. وفي الثالث عشر من حزيران (يونيو) ١٨٤٩ شنت البرجوازية الحرس الوطني البرجوازي الصغير بمساعدة الجيش. وفي اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١ لم يكن الحرس الوطني البرجوازي موجوداً، وكل ما فعله بونابرت، عندما وقع فيما بعد على مرسوم تسرি�حة، هو أنه دون هذه الحقيقة الواقعية. وهذا حطم البرجوازية بنفسها آخر سلاح لها ضد الجيش، ولكن كان عليها أن تفعل ذلك في اللحظة التي لم تعد فيها البرجوازية الصغيرة تتفوّق وراءها تابعة لها بل كانت تتفوّق أمامها ثائرة عليها. ثم أن البرجوازية كانت ملزمة، بصورة عامة، بأن تدمر بأيديها كل وسائل دفاعها ضد الاستبداد حالماً أصبحت هي نفسها مستبدة.

وفي هذه الأثناء أحفل حزب النظام بظفره مجدداً بسلطة كأنها ما ضاعت في سنة ١٨٤٨ إلا ليجدوها ثانية في سنة ١٨٤٩ وقد تحررت من قيودها كلها، أحفل بهجمات عنيفة شنها ضد الجمهورية ضد الدستور، وبلعنة صبها على جميع الثورات المقبلة والحاضرة والماضية، بما فيها تلك التي قام بها قادمة أنفسهم وأخيراً بإصدار قوانين كتمت الصحافة وقضت على حرية تأليف الجمعيات، وصدق على حالة الحصار بوصفها نظاماً طبيعياً. ثم أرجأت الجمعية الوطنية جلساتها من منتصف آب (أغسطس) حتى منتصف تشرين الأول (أكتوبر)، بعد أن عينت لجنة دائمة خلال فترة غيابها. وفي خلال هذه الفترة حاك الشريعون الدسائس مع أيمز، والأورليانيون مع كليومونت، وحال بونابرت دسائسه بواسطة الجولات المدببة تدبيراً فخماً كما حاكت مجالس المقاطعات - بالمداولات حول إعادة النظر في الدستور؛ وهي الواقـعـةـ التيـ كانتـ تـتـكرـرـ بـصـفـةـ منـظـمةـ أثناء العطل الدورية للجمعية الوطنية، والتي ليس في نيتها أن أبحـثـهاـ بالـتفـصـيلـ إـلاـ عـنـدـماـ تـصـبـحـ أحـدـاـثـاـ. وحسـبـناـ هـنـاـ أـنـ نـشـيرـ،

فضلاً عن هذا، إلى إنه كان من قصر النظر بالنسبة للجمعية الوطنية أن تختفي عن المسرح فترات طويلة نسبياً وترك شخصاً واحداً فقط، ولو إنه مخلوق بائس، على رأس الجمهورية، هو ليس بونابرت، بينما كان حزب النظام ينقتت إلى الأجزاء الملكية التي كان يتألف منها والتي رغباتها المتعارضة بشأن عهد العودة، مما عرضه للفضائح أمام الناس. وكلما كانت ضجة البرلمان المصمة تخفت خلال هذه العطل وتذوب هيئته فلي الأمة، كان يتضح على نحو لا ليس فيه إن شيئاً واحداً فقط كان ما يزال ناقصاً حتى يتم الشكل الصحيح لهذه الجمهورية: إن تصبح العطلة البرلمانية دائمـة، وأن يستعاض عن شعارها القائل: مزدوجاً وهي: Infanterie Cavalerie, Artillerie (الشاة والخيالة والمدفعية. الناشر). *Liberté, égalité fraternité* (الحرية والمساواة والأخاء. الناشر).

(٤)

في منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٤٩ استأنفت الجمعية الوطنية جلساتها. وفي اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) فاجأها بونابرت برسالة أعلن فيها إقالة وزارة بارو - فالو وتشكيل وزارة جديدة. ولم يسبق أن طرد خادم بعد تكاليف أكبر مما فعل بونابرت مع وزرائه. أن الركلات التي قصد بونابرت بها الجمعية الوطنية قد أصابت هذه المرة بارو وشركاه.

إن وزارة بارو كانت، كما رأينا، مؤلفة من شرعيين وأورليانيين، وزارة حزب النظام. وقد كان بونابرت في حاجة إليها لحل الجمعية التأسيسية الجمهورية ولديه الحملة على روما وليكسر شوكة الحزب الديمقراطي. وقد طمس نفسه وقتذاك، كما كان يبدو، وراء هذه الوزارة وتنازل عن السلطة الحكومية ووضعها في أيدي حزب النظام، وارتدى قناع التواضع الذي كان يرتديه في باريس رئاسة تحرير الجرائد في عهد لويس فيليب - قناع homme de paille (المستول الأسني. الناشر). ولكنه عمد الآن إلى طرح قناع لم يعد بعد حجاباً يستطيع أن يخفي سياماه وراء بل غداً قناعاً حديدياً كان يمنعه من إظهار سياماه خاصة به. لقد دعا وزارة بارو إلى الحكم قصد حل الجمعية الوطنية الجمهورية باسم حزب النظام، وعزل هذه الوزارة لكي يعلن أسمه مستقلاً عن الجمعية الوطنية لحزب النظام هذا.

ولم تكن تقصصه الذرائع المقبولة الظاهر التي يبرر بها هذا العزل. فإن وزارة بارو قد أهملت حتى المجلamas التي ينبغي التقىدها بها حيال رئيس الجمهورية بوصفه سلطة قائمة إلى جانب الجمعية الوطنية. ففي أثناء عطلة البرلمان نشر بونابرت رسالة وجهها إلى ادغار نبي كان يبدو فيها إنه لا يوافق على الموقف المتزمت الذي وقفه البابا (بيوس التاسع. الناشر). تماماً كما نشر من قبل رسالة امتدح فيها أودينو بسبب الهجوم على الجمهورية الرومانية، مخالفًا في ذلك الجمعية التأسيسية. وعندما صدق الجمعية الوطنية على الميزانية الخاصة بالحملة الرومانية طرح فكتور هوغو، بدافع من الليبرالية المزعومة، هذه الرسالة للمناقشة. وعمد حزب النظام بصيحات الإنكار المشوب بالازدراء إلى خنق الفكرة القائلة أن تصرفات بونابرت غير الذكية يمكن أن تكون لها آية أهمية سياسية. ولم يلقط واحد من الوزراء القفاز الذي ألقى في وجه بونابرت. وفي مناسبة أخرى عمد بارو، بما هو معهود فيه من بلاغة جوفاء، إلى إلقاء كلمات غاضبة من على المنبر حول "الدسائس المنكرة" التي كانت تجري، حسب تأكيده، بين الحاشية المباشرة للرئيس. وأخيرًا رفضت الوزارة بصورة قاطعة تقديم أي اقتراح لزيادة مخصصات رئيس الجمهورية، في الوقت الذي توصلت فيه إلى الحصول من الجمعية الوطنية على مرتب أرملة لدرقة أورليان. ولكن المدعى بالتجاهل الإمبراطوري قد أندمج أوثق الاندماج في شخص بونابرت المغامر الخائب حتى أن الفكرة العظيمة التي كانت تساؤره وهي إنه مدعو لإعادة الإمبراطورية كانت تتممها عنده دائمًا فكرة عظيمة أخرى هي أن الشعب الفرنسي مدعو لسداد ديونه.

إن وزارة بارو - فالو كانت أول وأخر وزارة برلمانية أخرجها بونابرت للوجود. وعلى ذلك كان عزلامها يشكل نقطة تحول حاسمة. فقد خسر حزب النظام بها إلى غير رجعة حصنًا ضروريًا للحفاظ على الحكم البرلماني إلا وهو قيادته للسلطة التنفيذية. و واضح إنه في بلد كفرنسا، حيث يأمر بأمر السلطة التنفيذية جيش من الموظفين يتجاوز عدده نصف مليون أي أن السلطة التنفيذية تحتفظ بذلك بصورة دائمة بكلة ضخمة من المصالح والأشخاص في حالة اعتماد مطلق عليها، وحيث تلف الدولة المجتمع المدني بشباكها وترافقه وتوجهه وتهيمن عليه وتقوم على أمره أبداء من أكثر مظاهر حياته شمولًا إلى أقل حركاته شأنًا، ومن أعم أشكال وجوده إلى حياة الأفراد الخاصة، وحيث تكتسب هذه الهيئة الطففية، من جراء المركزية الخارقة

العادة، وجوداً كلياً ومعرفة كلية وقدرة على المرونة والحركة المترايدتين اللتين لا تجدان لهما نداً إلا في عدم الاستقلال العاجز للهيئة الاجتماعية الفعلية وفي ميوعتها وانعدام شكلها - واضح أن الجمعية الوطنية تخسر في بلد كهذا كل نفوذ حقيقي لها عندما تفقد سيطرتها على توزيع المناصب الوزارية إن لم تعمد في الوقت نفسه إلى تبسيط إدارة الدولة وتخفيف جيش الموظفين بقدر الإمكان، وأخيراً أن لم تدع المجتمع المدني والرأي العام يخلقان أجهزة خاصة بهما مستقلة عن السلطة الحكومية.بيد أن المصالح المادية للبرجوازية الفرنسية متشابكة أوثق التشابك مع الاحتفاظ بجهاز الدولة الواسع هذا بما له من تشعبات متعددة. فهي تجد هنا الوظائف لمن يفيض من بينها وتوعرض، على شكل المرتبات الحكومية، عما تعجز عن أخذها لجيئها على شكل الأرباح والفوائد والريع والمكافئات. ومن ناحية أخرى كانت مصالحها السياسية قد أرغمتها على أن تزيد كل يوم إجراءات القمع، أي أن تزيد يومياً موارد سلطة الدولة وموظفيها، بينما كان عليها أن تخوض في الوقت نفسه حرباً غير منقطعة ضد الرأي العام وأن تعمد بداع الارتياب إلى شل الأجهزة المستقلة للحركة الاجتماعية وتعطيلها حيثما لم تنجح في بترها تماماً. وهكذا كانت البرجوازية الفرنسية مرغمة بحكم وضعها الطبقي على أن تبدي شروط وجود كل سلطة برلمانية، وبالتالي سلطتها البرلمانية هي أيضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تجعل السلطة التنفيذية المعادية لها سلطة قاهرة.

لقد دعيت الوزارة الجديدة باسم وزارة دوبلول. وليس معنى هذا أن الجنرال دوبلول قد تسلم منصب رئيس الوزراء. بل أن بونابرت قد عمد بالأحرى - وفي نفس الوقت الذي أقال فيه بارو - إلى إلغاء هذا المقام الذي كان يحكم على رئيس الجمهورية فعلاً بأن يظل في وضع الصفر القانوني الذي يكون فيه الملك الدستوري، ولكن ملك دستوري بلا عرش ولا تاج، بلا صولجان ولا سيف، بلا امتياز حصانة وبلا حيازة وراثية لأعلى مقام في الدولة، - وأسوأ ما في الأمر - بلا مخصصات. كانت وزارة دوبلول تضم شخصاً واحداً فحسب ذا مكانة برلمانية وهو المرابي فولد، الذي كان من أسوأ رجال أريستقراطية المال ذكرًا. وقد نال منصب وزير المالية. ولو رجع المرء إلى لوائح أسعار بورصة باريس لوجد الأوراق المالية الفرنسية، اعتباراً من أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ فصاعداً، كانت ترتفع وتذهب تبعاً لارتفاع مكانة بونابرت وهبوطها. وهكذا ما أن وجد بونابرت حليفاً له في البورصة حتى الوقت نفسه على الشرطة بتعيين كارلييه مديرًا لشرطة باريس.

بيد أن النتائج التي أسف عنها تغيير الوزارة لم يكن ممكناً أن تظهر إلا في مجرى التطور. في بداية الأمر لم يسر بونابرت هذه الخطوة إلى الأمام إلا ليُدفع إلى الوراء على نحو أشد جلاء. وقد أردف رسالته الفظة تلك ببيان في منتهي التذلل يعلن فيه ولاءه للجمعية الوطنية. وكلما كان الوزراء يجرون على القيام بمحاولات وجلة لإضفاء شكل مشاريع القوانين على أهوائه الشخصية، كان يبدو أنهم يقومون رغمًا عن أرادتهم وبحكم مناصبهم فحسب، بـ"أموريات مضحكه كانوا مقتعين سلفاً بعدم جدواها. وكلما كان بونابرت يهدر في الكلام في مقاصده من وراء ظهور وزرائه ويلعب بـ"des idées napoléoniennes" الخاصة به⁽³⁸⁾ كان وزرائه هو يتصلون منه من على منبر الجمعية الوطنية. وكان يبدو كأنه لا يعرب عن شهواته الاغتصابية إلا لكي لا تسكت الضحكات الشامتة التي يطلقها أعداؤه. كان يتصرف كأنه عقربي غير معترف به وتنظر إليه الدنيا كلها نظرتها إلى أبله. لم يسبق له قط أن تتمتع من قبل باحتقار جميع الطبقات إلى مدى أعظم مما حدث في هذه الفترة. ولم يسبق للبرجوازية أن حكمت حكماً أكثر استبداداً، ولم يسبق لها أن عرضت على الملا شعائر سلطانها بهذا القدر من المباهاة.

ليس من شأنى هنا أن أكتب تاريخ نشاطها التشريعى، وهو النشاط الذى يتلخص فى هذه الفترة فى قانونين: القانون الذى يعيد فرض ضريبة الخمور وقانون التعليم الذى يلغى الالحاد. وإذا كانت البرجوازية تعرقل استهلاك الفرنسيين للخمر،

(38) تلميح إلى كتاب لويس بونابرت "الأفكار النابوليونية" الذي صدر في باريس عام ١٨٣٩ . "Des idées napoléoniennes" Paris. 1839 - ص ٧٠ .

فإنها عمدت مقابل ذلك إلى منحهم ماء الحياة الطاهرة على نحو أوفر وأغزر. وإذا كانت البرجوازية، بإصدار القانون الخاص بضريبة الخمور، قد أعلنت نظام الضرائب القائم المقيد نظاماً مصوتاً، فهي قد سعت بواسطة قانون التعليم، إلى أن نضمن بين الجماهير بقاء الحالة العقلية القديمة التي تتيح لها احتمال نظام الضرائب هذا. وأن المرء ليدهش إذ يرى الاورليانين، البرجوازيين الليبيين، اتباع الغولتيرية والفلسفة الاختيارية القدامي هؤلاء، يعهدون إلى أعدائهم الأداء التقليديين، اليهوديين، بالإشراف الروحي على الفرنسيين. وإنما كانت الخلافات بين الاورليانين والشرعيين فيما يتصل بأمر المدعى بالعرش، فقد كانوا يدركون أن حكمهم الموحد يقتضي توحيد وسائل القمع في العهدين وأن وسائل الاستبعاد التي أتبعت في عهد ملكية تموز (بولييو) كان ينبغي أن تكمل وتعزز بوسائل التي أتبعت في عهد العودة.

أما الفلاحون، الذين خيب جميع آمالهم وسحقهم أكثر من أي وقت مضى هبوط أسعار القمح من جهة والعبء المتزايد للضرائب وديون الرهن من جهة أخرى، فقد بدأوا يتحركون في المقاطعات. وقد أجبوا على ذلك بحملة ضد أساندنة المدارس الذي أخضعوا لرجال الأكليروس وبحملة ضد رؤساء البلديات الذي أخضعوا لحكام المقاطعات وأخيراً بنظام التجسس الذي أخضع له الجميع. وفي باريس والمدن الكبرى تكون للرجعية ذاتها سيماء عصرها وهي تزعم أكثر مما تضغط. وفي الريف تصبح خسيسة، خشنة، تافهة، متعبة ومزعجة، بكلمة واحدة جندرمة. وفي وسع المرء أن يدرك كيف أن ثلاثة سنوات من حكم الجندرمة، يكرسها حكم القسيس، كان لا بد أن تقضي أخلاق الجماهير غير الناضجة.

ومهما كان مبلغ الانفعال أو الخطاب الحماسية التي كان حزب النظام يلجاً إليها ضد الأقلية من على منبر الجمعية الوطنية فإن كلامه ظل ذا مقطع واحد ككلام المسيحيين الذي كان عليهم أن يقولوا: نعم، نعم، لا، لا! كذلك على المنابر كما في الصحافة، غث كلغز حل معروف سلفاً. وسواء كان الأمر يتعلق بحق الالتماس أو ضريبة الخمور، بحرية الصحافة أو التجارة الحرة، بالتوادي أو دستور البلديات، بضمانت الحرية الشخصية أو تحديد ميزانية الدولة، فإن كلمة السر الواحدة تكرر دائمًا والموضوع يبقى واحداً على الدوام، والحكم جاهز أبداً، وهو دائماً بلا تغيير: "الاشتراكية!" حتى الليبيرالية البرجوازية كانوا يعلنونها اشتراكية، والاستمارية البرجوازية والإصلاح المالي البرجوازي اشتراكية. لقد كانت اشتراكية أن تبني سكة حديد حيثما كانت قناة من قبل، وكانت اشتراكية أن يدافع المرء عن نفسه بخيزرانه حين يهاجمه أحد بالشيش.

لم يكن هذا مجرد جملة أو موضة أو أسلوب في النضال الحزبي. فإن البرجوازية أدركت أدركَ صحيحاً أن جميع أنواع الأسلحة التي أعدتها لمحاربة الإقطاع قد أدارت رؤوسها ضدها هي وأن جميع وسائل التعليم التي أوجدتها قد ثارت ضد مدنيتها هي وأن جميع الإلهة التي خافتها قد تخلت عنها. لقد فهمت أن كل ما يدعى بحريات المواطنين وأجهزة التقدم كانت تتطاول على حكمها الطبقي وتهدهد من جانب أساسه الاجتماعي وق芒ته السياسية في الوقت نفسه، وإنها أصبحت لهذا السبب "اشتراكية". وفي هذا التهديد وهذا التطاول رأت بحق سر الاشتراكية التي قدرت معناها واتجاهها بأصح مما تقر نفسها هذه التي تدعى بالاشتراكية والتي لا تستطيع أن تفهم لهذا السبب لماذا يقوس قلب البرجوازية كل هذه القسوة عليها، سواء وهي تتدبر آلام البشرية على نحو مؤثر، أو تعظ عظة مسيحية حول العصر الأنفي السعيد والمحبة الأخوية الشاملة، أو تلغو حول الروح والتعليم والحرية وعلى طريقة أهل البر والإنسانية، أو تعمد كذب النظريين المتحالفين إلى اختلاف نظام للتوفيق ونشر الرخاء بين جميع الطبقات. بيد أن البرجوازية لم تدرك شيئاً واحداً وهو أن نظامها البرلماني نفسه، وأن سيطرتها السياسية بصورة عامة، إذا كنا منسجمين في المحاكمة، لابد لها أن يتعرضوا أيضاً للشجب العام بوصفهما شيئاً اشتراكياً. وطالما أن سيطرة البرجوازية لم تنظم تنظيماً تماماً بعد، وطالما إنها لم تكتسب التعبير السياسي الخالص فإن التاجر بين البرجوازية وبين الطبقات الأخرى لم يكن يستطيع كذلك أن يظهر في شكله الخالص ولم يكن، حيثما ظهر، يستطيع أن يتجه الاتجاه الخطير الذي يتحول معه كل صراع ضد سلطة الدولة إلى صراع ضد رأس المال. وإذا كانت البرجوازية ترى في كل مظهر من

مظاهر الحياة الاجتماعية تهديداً "للسكينة" فكيف كانت تريد أن تحفظ على رأس هذا المجتمع بنظام الفلق، بنظمتها هي بالذات، النظام البرلماني، هذا النظام الذي يعيش، على حد تعبير أحد الناطقين باسمها، في الصراع وبالصراع؟ وكيف يستطيع النظام البرلماني الذي يعيش بالنقاش، وأن يمنع النقاش؟ أن كل مصلحة وكل إجراء اجتماعي يتحولان هنا إلى فكرة عامة، ويُعتبران فكرة، فكيف يتمنى لأية مصلحة أو أية إجراءات أن تُتصَّب فوق التفكير وتفرض كرمز للإيمان؟ أن كفاح الخطباء على المنابر يستتبع كفاح المثيرين على صفحات الجرائد، ونادي النقاش في البرلمان تكمله بالضرورة نوادي النقاش في الصالونات والحانات. والنواب الذي يرجعون على الدوام إلى الرأي العام يعطون وبالتالي الرأي العام الحق في الإفصاح عن وجهات نظره الحقيقة في العرائض. أن النظام البرلماني يترك كل شيء لقرار الأكثريّة، فكيف لا ترغب الأكثريّات العظمى خارج البرلمان في اتخاذ القرارات؟ إذا كان رب الحكم ضارباً بالدف فما عسى أن ننتظر من هم دونه غير الرقص؟

وهكذا فإن البرجوازية، إذ تضم الآن "بالاشتراكية" ما كانت تمده سابقاً باعتباره "لبيبراليا"، تعرف بأن مصالحها الخاصة تملّى عليها أن تتخلص من خطر حكمها ذاتها، وبضرورة تسكين برلمانها البرجوازي بادئ ذي بدء من أجل إعادة السكينة على البلاد، وبأن سلطتها السياسيّة ينبغي أن تكسر حتى يتمنى المحافظة على سلطتها الاجتماعيّة دون مساس، وبأن البرجوازيين الأفراد يستطيعون أن يواصلوا استغلالهم للطبقات الأخرى وأن يتمتعوا دونما إزعاج بخيارات الملكية والعائلة والدين والنظام ولكن بشرط أن يحكم على البرجوازية بوصفها طبقة، شأنها في ذلك شأن الطبقات الأخرى، بالفاقة السياسيّة المتساوية، وبأنه يجب خلع التاج عنها لكي تحافظ على محفظتها، وبأن السيف الذي يحميها ينبغي، في الوقت ذاته، أن يظل مسلطاً فوق رأسها كسيف داموقليس.

أما في مجال المصالح العامة للبرجوازية فقد أثبتت الجمعية الوطنيّة إنها عديمة الإنتاج تماماً حتى أن المناقشات بشأن بناء سكة حديد باريس - أفينيون، على سبيل المثال، وهي التي بدأت في شتاء ١٨٥٠، لم تكن ناضجة بعد للختام في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١. فحيثما لم تكن الجمعية الوطنيّة تcum أو تسلك مسلكاً رجعيّاً كانت مصابة بعمق لا شفاء منه.

بينما كانت وزارة بونابرت، من جهة، تأخذ زمام المبادرة في صياغة القوانين وفقاً لروح حزب النظام وتشدد من جهة أخرى قساوة تغفّيل هذه القوانين، كان بونابرت يسعى، من جهةه إلى كسب الشعبيّة بما يقتمه من مقترحات صبيانية سخيفة مظهراً عداوته للجمعية الوطنيّة ولمحّا إلى دفينة سرية حالت الظروف مؤقتاً فحسب دون أن يفتح كنوزها هذه للشعب الفرنسي. من هذا القبيل كان الاقتراح القاضي بزيادة رواتب ضباط الصف بمقدار ٤ سنوات (سو - sou -الجزء العشرون من الفرنك أو خمسة سنتيمات . المترجم). يومياً ومن هذا القبيل كان مشروع "مصرف الشرف" لإقرارات العمل. المال موهوّباً والمال مدانًا - هذه هي الآفاق التي كان يعلّل النفس بأن يغوي بها الجماهير. الهبات والقرروض، أن الفن المالي لحالة البروليتاريا - سواء كانوا من درجة عالية أو واطئة - لم يكن يتعدى هذا. هذه هي اللوالب الوحيدة التي كان بونابرت يعرف كيف يحركها. ولم يسبق من قبل أن ضارب مدع على سفاله الجماهير بمثل هذه السفاله.

أن الجمعية الوطنيّة قد ثارت مراراً وتكراراً على هذه المحاولات التي لا لبس فيها لكسب الشعبيّة على حسابها في ظروف خطر متزايد كان يتمثل في احتمال مجازفة هذا المغامر الذي كانت تتخذه ديونه والذي لم تكن تردعه سمعة راسخة - بعمل يائس. كانت الخلافات بين حزب النظام والرئيس توشك أن تتخذ طابعاً خطيراً عندما ألقى به حادث غير منظر مرة أخرى تائباً بين ذراعي الحزب. ونعني بذلك الانتخابات الإضافية في العاشر من آذار (مارس) سنة ١٨٥٠. لقد أجريت هذه الانتخابات بغية ملء مقاعد النواب التي شغرّت بعد الثالث عشر من حزيران (يونيو) بسبب السجن أو النفي. أن باريس لم تنتخب إلا المرشحين الاشتراكيين - الديموراطيين بل إنها ركّزت معظم الأصوات على أحد المشتركون في اتفاقية حزيران

(يونيو) ١٨٤٨، على ديفلوت. وهكذا ثارت البرجوازية الصغيرة الباريسية، بالتحالف مع البروليتاريا، للهزيمة التي حافت بها الثالث عشر من حزيران (يونيو) ١٨٤٩. وبما أن البرجوازية الصغيرة ما اخفت من ميدان القتال في لحظة الخطر إلا لاظهر هناك من جديد في ظروف أكثر مؤاتاه، حائزة على قوات قتالية أكبر ورافعة شعاراً قتالياً أجرأ. وبما أن ظرفاً واحداً كان قد زاد من خطر هذا النصر الانتخابي: فإن الجيش أقترب في باريس لمتمرد حزيران (يونيو) ضد لاهيت، أحد وزراء بونابرت، وأقترب في المقاطعات إلى حد بعيد للجلبيين الذي أكدوا هنا أيضاً رجحان كفتهم على خصومهم وأن لم يكن بالدرجة الحاسمة التي كان عليها في باريس.

ورأي بونابرت نفسه فجأة مرة أخرى إزاء ثورة. وكما كان الأمر في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩ وكما كان في ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩، كذلك في العاشر من آذار (مارس) ١٨٥٠ اختفى بونابرت وراء حزب النظام. أنحنى امتنالاً واستباح العذر جيناً وصغاراً وأعرب عن استعداده لأن يشكل، بناء على أمر الأكثريّة البرلمانية، أية وزارة ترضي عنها بل إنه توسل إلى زعماء الأورليانيين والشريعين، إلى أمثال تيير وبيرييه وبروغلي ومولييه، وبالاختصار إلى من يدعون بالبرجراف^(٣٩)، أن يأخذوا زمام الدولة بأيديهم. وأثبتت حزب النظام عجزه عن اغتنام هذه الفرصة التي لن تعود. فهو بدلاً من أن يستولى بجراة على السلطة التي عرضت عليه، لم يرغم بونابرت حتى على إعادة الوزارة التي أقالها في اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر). وأكفي بـإدلاله بالصفح عنه وبضم المسيو باروش إلى وزارة دبوبول. وكان باروش هذا، بصفته مدعياً عاماً، قد أرغى وأزبد أمام المحكمة العليا في بورجييه، المرة الأولى ضد ثوريي الخامس عشر من أيار (مايو) والمرة الثانية ضد ديموقراطيي الثالث عشر من حزيران (يونيو)، وكلتا المرتين أتهمهم بالاعتداء على الجمعية الوطنية. ولم يساهم أحد من الوزراء بونابرت فيما بعد أكثر من في البعض من شأن الجمعية الوطنية، وبعد اليوم الثاني من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١ نصادفه مرة أخرى في ذلك المنصب المرريع العالي الأجر، منصب نائب رئيس مجلس الشيوخ. لقد بصدق في حسأء الثوريين حتى يتمكن بونابرت من التهامه.

أما الحزب الاشتراكي - الديمقراطي فقد بدأ من جهته، وكان لا هم له إلا إيجاد الذرائع لوضع انتصاره مرة أخرى موضع الشك، وللتليم حده. أن فيدال وهو أحد النواب الذين انتخبوه حديثاً عن باريس، كان قد انتخب في الوقت نفسه عن ستراسبورغ وقد حمل على أن يرفض النيابة عن باريس وأن يقبلها عن ستراسبورغ. وهكذا، بدلاً من أن يجعل الحزب الديمقراطي نصره في الانتخابات نصراً فاصلاً ويرغم بذلك حزب النظام فوراً على أن ينزع عهده أياه في البرلمان، بدلاً من أن يرغم خصمه على القتال، على هذا الوجه، في لحظة الحماسة الشعبية والجو المؤاتي في الجيش، عمد هذا الحزب إلى أتعاب باريس خلال شهر آذار (مارس) ونيسان (أبريل) بدعاية انتخابية جديدة، وترك العواطف الشعبية الفائرة تستند قوتها في هذه اللعبة الانتخابية الجديدة المؤقتة، وأطfa الطاقة الثورية بالنجاحات الدستورية وبعزق هذه الطاقة في المكائد الصغيرة والخطب الطنانة الجوفاء والظهور بالحركة، وترك البرجوازية تتمالك نفسها وتأخذ أهبتها، وهو قد أضعف أخيراً مغزى انتخابات آذار (مارس) بتلقي عاطفي عليها، بانتخابات نيسان (أبريل) الفرعية، بانتخاب أوجين سو. بكلمة واحدة جعل من العاشر من آذار (مارس) كذابة أو نيسان (أبريل).

أن الأكثريّة البرلمانية قد فهمت ضعف عدوها. وبما أن بونابرت قد ترك لحزب النظام إدارة الهجوم ومسئوليته فقد أعد البرجرافيون السبعة عشر قانوناً انتخابياً جديداً عهد أمر تقديميه إلى المسيو فوشيه الذي توسل لينال هذا الشرف. وفي اليوم

(٣٩) البرجراف، أطلق هذا اللقب على زعماء الأورليانيين والشريعين السبعة عشر الذين اشتراكوا في لجنة الجمعية التشريعية لوضع مشروع قانون انتخابي جديد، وذلك نظراً لادعائهم التي لا مرر لها بالسلطة وليو لهم الرجعية. واللقب مأخوذ من رواية تاريخية بالاسم نفسه لفيكتور هوغو عن الحياة في ألمانيا القرون الوسطى. وكانوا في ألمانيا يطلقون لقب برجراف على حكام المدن والوائريين الذين يعينهم الإمبراطور. - ص ٧٦.

الثامن من أيار (مايو) قدم فوشيه القانون الذي كان سيعطي الاقتراع الشامل ويفرض على الناخبين شرط الإقامة لمدة ثلاثة سنوات في دائرة الانتخابية هذا مع العلم أن ثبات مدة هذه الإقامة كان متوقفاً في حالة العمال على شهادة من أرباب أعمالهم.

وإذ الديمقراطيون الذي هاجوا كثيراً على نحو ثوري أثناء الكفاح الانتخابي الدستوري، يأخذون الآن، وقد أقتضى الأمور أن يثبتوا جدية ذلك النصر الانتخابي والسلاح في أيديهم، يبشرون على نحو دستوري بالنظام والهدوء المهيّب (Calme) والأعمال المطابقة للقانون أي الإذعان الأعمى لإدارة الثورة المعاكسة التي أدعى بإتها هي القانون. وفي أثناء المناقشات خجل "الجبل" حزب النظام معارضًا لافعاله الثوري بموقف التافه الشريف غير المتأثر بالعواطف الذي يراعي حدود القانون، وبطرحه ذلك الحزب أرضًا بتوجيهه التأييب المخيف له بأنه يتصرف بطريقة ثورية. وحتى النواب المنتخبين حديثاً بذلوا قصاراً لهم ليثبتوا بسلوكهم المحتمس الرزين مبلغ الخطل في التهديد بهم على اعتبار إنهم فوضويون وتقسيرون انتخابهم بأنه نصر للثورة. وفي اليوم الحادي والثلاثين من أيار (مايو) أقرَّ قانون الانتخابات الجديد، وأكفي "الجبل" بتهريب احتجاج إلى جيب الرئيس. أعقب قانون الانتخابات قانون جديد للصحافة أخذت بموجبه الصحافة الثورية تماماً⁽⁴⁰⁾. وقد استحقت هذه الأخيرة مصيرها. وبعد هذه الهزيمة الشنعاء لم يبقى غير صحيفتي "Presse" و "National" البرجوازيين باعتبارهما أكثر المراكز الأمامية للثورة تقدماً.

لقد رأينا كيف أن الزعماء الديمقراطيين فعلوا كل شيء خلال شهر آذار (مارس) ونisan (أبريل) ليورطوا سكان باريس في قتال صوري وكيف إنهم فعلوا كل شيء بعد الثامن من أيار (مايو) ليصدرون عن القتال الحقيقي. وفضلاً عن هذا لا يجوز أن ننسى أن سنة ١٨٥٠ كانت من أروع سنوات الإزدهار الصناعي والتجاري وأن العمل كان لذلك متوفراً تماماً لبروليتاريا باريس. غير أن قانون الانتخاب الصادر في الحادي والثلاثين من أيار (مايو) ١٨٥٠ حرمتها من أيام مساهمة في السلطة السياسية وعزلها حتى عن حلبة الصراع ذاتها. وقد رد هذا القانون العمل إلى مركز المنبوذين الذي كانوا يحتلونه قبل ثورة شباط (فبراير). وإذ سمح العمال بأن يقودهم الديمقراطيون في وجه حدث كهذا الحدث ونسوا المصالح الثورية لطبقتهم من أجل الرخاء الواقعي فقد تخلىوا عن شرف كونهم قوة ظاهرة واستسلموا لمصيرهم وأثبتوا أن هزيمة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ قد جعلتهم عاجزين عن القتال لسنوات طويلة وأن العملية التاريخية كان لابد لها في الوقت القريب أن تمضي مرة أخرى من فوق رؤوسهم. أما الديموقراطية البرجوازية الصغيرة التي صرخت في الثالث عشر من حزيران (يونيو): "ليتجاوزوا على مس حق الاقتراع الشامل، ليتجاوزوا وأن مرة!" فإنها قد عزت نفسها الآن بالإدعاء الفائل أن الضربة التي هوت عليها بها الثورة المعاكسة لم تكن ضربة وأن قانون الحادي والثلاثين من أيار (مايو) لم يكن قانوناً. وفي يوم الأحد الثاني من شهر أيار ١٨٥٢ سيظهر كل فرنسي في مركز الاقتراع وقد حمل بطاقة الاقتراع بيده وحمل السيف باليد الأخرى. كانت تعزzi نفسها بهذه النبوءة. وأخيراً كان الجيش قد ضبطه رؤساؤه لانتخابات آذار ونisan ١٨٥٠ تماماً كما ضبطوه لانتخابات ٢٨ أيار ١٨٤٩. بيد أنه في هذه المرة قال لنفسه حازماً: "لن تخدعنا الثورة مرة ثالثة".

أن قانون ٣١ أيار سنة ١٨٥٠ كان Coup détat قام به البرجوازية. أن جميع انتصاراتها السابقة على الثورة كان لها طابع مؤقت فسحب. وكانت تتعرض للخطر حالما كانت الجمعية الوطنية القائمة تتسحب من المسار؛ وكانت تعتمد على المصادفات التي يحملها أي انتخاب عام جديد معه. وتاريخ الانتخابات منذ عام ١٨٤٨ أثبت بصورة لا تدحض أن سلطان البرجوازية الأدبي على الجماهير الشعبية كان يضعف بنفس المقدار الذي كانت تزداد به سيطرتها الفعلية. في العاشر من آذار

(40) بموجب قانون الصحافة الذي أقرته الجمعية التشريعية في توز (يوليو) ١٨٥٠، زيدت الضمانة النقدية التي كان أصحاب الصحف ملزمين بدفعها زيادة كبيرة، وفرضت ضريبة جديدة - ضريبة طابع أميري شملت كذلك الكواريس.

(41) كان هذا القانون الجديد مواصلة للتدابير الرجعية التي ألت إلى تصفية حرية الصحافة عملياً في فرنسا. - ص ٧٩

(مارس) ظهر أن حق الاقتراع الشامل يعارض سيطرة البرجوازية معارضة مباشرة. فأجابت البرجوازية على ذلك بإلغاء حق الاقتراع الشامل. ولذا كان قانون ٣١ أيار مظهراً من المظاهر الملزمة للصراع الطبقي. ومن ناحية أخرى كان الدستور يستلزم حداً أدنى مليوني صوت لجعل انتخاب رئيس الجمهورية صحيحاً. فإذا لم يبنل أحد المرشحين للرئاسة هذا الحد الأدنى كان على الجمعية الوطنية أن تختار الرئيس من المرشحين الخمسة الذين يفوزون بأكبر عدد من الأصوات. وعندما أعدت الجمعية التأسيسية هذا القانون كان عدد الناخبين المسجلين في جداول الاقتراع عشرة ملايين. وعلى هذا كان خمس الناس الذي يحق لهم الاقتراع يكفي، بموجب هذا القانون لجعل انتخاب الرئيس صحيحاً. أن قانون ٣١ أيار (مايو) شطب ثلاثة ملايين صوت على الأقل من الجداول الانتخابية وخفض عدد الذين يتمتعون بحق الاقتراع إلى سبعة ملايين وأبقى مع ذلك الحد الأدنى القانون - وهو مليونان - اللازم لانتخاب الرئيس. ولذلك أرتفع الحد الأدنى القانون من خمس الأصوات الانتخابية جميعاً إلى حوالي الثلث أي بكلمة أخرى، فعل هذا القانون كل شيء لتهريب انتخاب الرئيس من أيدي الشعب إلى أيدي الجمعية الوطنية. وهكذا يبدو أن حزب النظام قد حصن حكمه بقانون ٣١ أيار (مايو) الانتخابي مرتين، وذلك بتسلیم انتخاب نواب الجمعية الوطنية وانتخاب رئيس الجمهورية إلى القسم المحافظ في المجتمع.

(٥)

وما أن مرت الأزمة الثورية وأُلغى الاقتراع الشامل حتى نشب الصراع ثانية بين الجمعية الوطنية وبونابرت.

حدد الدستور مرتب بونابرت بـ ٦٠٠٠٠ فرنك. ولم تكن تمضي ستة أشهر على تنصيبه حتى نجح في زيادة هذا المبلغ إلىضعف لأن أوديلون بارو أنتزع من الجمعية التأسيسية علاوة إضافية قدرها ٦٠٠٠٠ فرنك سنويًا لسد نفقات ما يسمى بنفقات التمثيل. وبعد اليوم الثالث عشر من حزيران (يونيو) أُوغُر بونابرت بالمجاهدة بطلبات مماثلة ولكن دون أن يجد في هذه المرة أذنًا صاغية لدى بارو. والآن، بعد الحادي والثلاثين من أيار (مايو)، أستغل بونابرت على الفور اللحظة المؤاتيه وجعل وزراء يقتربون في الجمعية الوطنية مخصصات للرئاسة تبلغ ثلاثة ملايين فرنك سنويًا. أن حياة طويلة من التشرد والمغامرة قد أكسبته حاسة شديدة للغاية لأقصى لحظات الضعف التي يمكن أن يعتصر فيها المال من البرجوازيين. كان يزاول الابتزاز حقًا وفعلاً. كانت الجمعية الوطنية قد أنهكت سيادة الشعب بمساعدته وباطلاته، فهدد بشجب جريمتها أمام محكمة الشعب ما لم تحل كيسها وتشتر سكوتها بثلاثة ملايين فرنك سنويًا. وقد سلبت الجمعية الوطنية ثلاثة ملايين فرنسي حقهم الانتخابي فطلب، مقابل كل فرنسي وضع خارج التداول السياسي، فرنكا واحداً قيد التداول أي ثلاثة ملايين فرنك بالتمام. وطالب، وهو منتخب ستة ملايين، بتعويضات عن الأصوات التي قال إنها سرقت منه بالغش في وقت لاحق. ورفضت لجنة الجمعية الوطنية طلب هذا الملاح. وأخذت الصحافة البونابرتية تهدد. هذا في وسع الجمعية الوطنية أن تقطع صلاتها مع رئيس الجمهورية في لحظة كانت قد قطعت فيها، من حيث المبدأ، صلاتها مع جمهور الأمة بصورة نهائية؟ صحيح إنها رفضت المخصصات السنوية ولكنها منحت لمرة واحدة علاوة إضافية قدرها مليونان ومائة وستون ألف فرنك. وهذا أدانت نفسها بضعف مزدوج: بمنحها المال وباظهارها في الوقت ذاته، بالضيق الذي أبدته، إنها منحته على غير إرادتها. وسوف نرى فيما بعد لأي غرض كان بونابرت يحتاج هذا المال. بعد هذه العاقبة المزعجة التي جاءت في أثر إلغاء حق الاقتراع الشامل، والتي استعراض فيها بونابرت عن الموقف المتواضع الذي وقفه أيام أزمة آذار (مارس) ونيسان (أبريل) بالتحدي الواقع للبرلمان الغاصب، أجلت الجمعية الوطنية جلساتها ثلاثة شهر من ١١ آب (أغسطس) حتى ١١ تشرين الثاني (نوفمبر). وخلفت مكانها لجنة دائمة مؤلفة من ثمانية وعشرين عضواً لم تكن تضم بونابرتين ولكنها قد ضمت بعض الجمهوريين المعطلين. أن اللجنة الدائمة لسنة ١٨٤٩ ضمت أعضاء حزب النظام وبونابرتين فحسب. بيد أن حزب النظام قد أعلن آنذاك أنه ضد الثورة بصفة دائمة. وفي هذه المرة أعلنت الجمهورية البرلمانية أنها ضد الرئيس بصفة دائمة. وفي هذه المرة أعلنت الجمهورية البرلمانية أنها ضد الرئيس بصفة دائمة. وبعد قانون ٣١ أيار كان هذا هو المنافس الوحيد الذي ما زال يواجه حزب النظام.

عندما انعقدت الجمعية الوطنية مرة أخرى في شهر تشرين الثاني ١٨٥٠، بدا أنه غدًا لا مناص من نشوب صراع كبير فاس، صراع حياة أو موت بين السلطتين، بدلاً من المناوشات الطفيفة التي قامت حتى الآن بين البرلمان والرئيس.

وكما في سنة ١٨٤٩، كذلك أثناء العطلة البرلمانية لعام ١٨٥٠، أنسق حزب النظام إلى كتل متفرقة انهارت كل واحدة بمكائد لها لإعادة الملكية، وهي المكائد التي حصلت على غذاء جديد بوفاة لويس فيليب. بل أن ملك الشرعيين، هنري الخامس، عين وزارة رسمية اتخذت باريس مقراً لها وشغل بعض الأعضاء في اللجنة الدائمة مقاعد فيها. ولهذا كان من حق بونابرت، بدوره، أن يقوم برحلات في المقاطعات الفرنسية فيها مشاريع الإعادة الخاصة به بقدر مقاولات من الصرامة ويتنصيد الأصوات الانتخابية لنفسه وفقاً لمزاج المدينة التي كان يسعدها بحضوره. وفي هذه المواقف، التي كانت تحفل بها الصحفة الرسمية

الكبرى "Moniteur" (42) والصحف الصغرى الخصوصية التابعة لبونابرت بطبيعة الحال بوصفها مواكب ظفر، كان يرافقه دائماً أشخاص يتمنون على جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر). وهذه الجمعية يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٤٩. فبحجة تأسيس جمعية خيرية ثم تنظيم حثالة البروليتاريا في باريس في أقسام سرية يقود كل قسم منها وكلاء بونابرتيون ويرأس الجميع جنراً بونابرتياً. جنباً إلى جنب مع الفجرة الذين بددوا أموالهم والمشكوك في وسائل معاشهم والمشكوك في أصلهم ومع المغامرين المنفلتين من أوباش البرجوازية الفاجرین كان هنالك متشردون وجنود مسرحون وزبائن سجون مطلقو السراح وهاربون من الأشغال الشاقة ونصابون ومشغوفون ومتسلعون ونشالون ومحталون ومقامرون وقوادون وأصحاب مواخير وحملون ونساخون وضاربو أرغن وجماعوا أسمال وسنانو سكاكين ولحامو معادن ومتسلون - وباختصار جميع هذا الجمهور السائب، المتوع، غير المحدد تدفعه الظروف هنا وهناك والذي يسميه الفرنسيون: La bohème (بوهيميا. الناشر). من هذه العناصر القريبة منه، كون بونابرت نواة جمعية العاشر من كانون الأول - "جمعية خيرية" - إذ كان يشعر جميع أعضائها، شأنهم شأن بونابرت، بالحاجة إلى احتلال الخيرات لأنفسهم على حساب قسم الأمة الكادح. وبونابرت هذا الذي يجعل من نفسه رئيساً لحثالة البروليتاريا والذي يرى فيها وحدها انعكاساً جماعياً لمصالحه الشخصية والذي يرى في هذا الزبد والسقط والقمامدة من جميع الطبقات الطبقية الوحيدة التي يستطيع أن يستند إليها دون قيد أو شرط، هو بونابرت الحقيقي، بونابرت Sans phrase (دون زينة. الناشر). أنه، وهو الفاسق الماكر القديم، ينظر إلى الحياة التاريخية للشعوب وإلى جميع المآسي التي تحملها هذه الحياة نظرته إلى ملهاة بأكثر المعاني لبذاً وإلى مسخة مجرد قصد الملابس الفخمة والكلمات والمواضف فيها أن تخفي أصغر النذالات. فهكذا في غزو ستراسبورغ أدى عقاب سويسري مدرب دور النسر النابوليوني. وأنشاء الغارة التي شنها على بولون، أليس بعض الخدم اللذيني البزات العسكرية الفرنسية. إنهم كانوا يمثلون الجيش (43). وفي جمعية العاشر من كانون الأول حشد عشرة آلاف من الأوغاد عليهم أن يؤدوا دور الشعب كما نوى ذلك بوتوم أن يؤدي دور الأسد (44). وفي اللحظة كانت البرجوازية نفسها تؤدي فيها الملهاة بأتم صورها، ولكن بأكثر المظاهر الجدية، دون أن تحرق أي شرط من الشروط المختلفة لأصول فن الدراما في فرنسا، وكانت هي نفسها ما بين منخدعة ومفتونة بمهابة المسرحية التي تقوم بها، كان لابد للمغامر، وهو الذي أخذ الملهاة التي يقوم بها تاريخ العالم، إلا عندما قضى على خصمه الوقور، عندما صار يأخذ بنفسه الآن دوره الإمبراطوري بصورة جدية ويتصور وهو تحت القناع النابوليوني أنه نابوليون الحقيقي. وقد كانت جمعية العاشر من كانون الأول، وهي القوة المقاتلة الحزبية التي يتميز بها بونابرت، تقوم عنده مقام المشاغل الوطنية عند العمال الاشتراكيين والحرس المنتقل عند الجمهوريين البرجوازيين. في أثناء رحلاته كان على قطعات هذه الجمعية المرصوصة في محطات السكك الحديدية أن ترتجل جمهوراً له وأن تمثل مناظر الحماسة العمومية وأن تزار: "Vive l'Empereur" (عاش الإمبراطور!. الناشر). وأن تهين الجمهوريين وتضرفهم، بحماية البوليس بالطبع. وفي رحلات إياه إلى باريس كان عليها أن تؤلف حرس الطليعة، وأن تستيقن المظاهرات المعاكسة أو تفرقها. أن جمعية العاشر من كانون الأول كانت تخصه، كانت فكرته الخاصة بالذات. أما كل ما يحوزه فيما عدا ذلك، فقد وضع بيده بحكم الظروف. وكل ما يفعله فيما عدا ذلك، تعلله الظروف له أو يكتفي بالنسخ عن أعمال الآخرين. بيد أن بونابرت بالعبارات الرسمية حول النظام

(42) (مونيتور)، اسم موجز للجريدة اليومية الفرنسية "Le Moniteur universel" ("البشير العام")، لسان حال الحكومة الرسمي. صدرت الجريدة بهذا الاسم في باريس من عام ١٧٨٩ حتى عام ١٨٦٩. - ص ٨٣.

(43) المقصود هنا المحاولات اللثان قام بهما لويس بونابرت في عهد ملكية ناوش (بوليو) لإجراء انقلاب بواسطة تمرد عسكري. في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٨٣٦ أُلقي بمساعدة بعض الضباط ذوي الميل البونابرتية في استئناف فوجين من المدفعية في حامية ستراسبورغ، ولكن بعد بضع ساعات، تم نزع سلاح المتمردين. وأعتقل لويس بونابرت نفسه ونفي إلى أميركا. وفي ٦ آب (أغسطس) ١٨٤٠، أستغل بعض الانتعاش الذي دب في الميل البونابرتية في فرنسا فنزل مع حفنة من المتأمرين في بولون وحاول استئثاره تمرد بين رجال الحامية المحلية. وقد انتهت هذه المحاولة أيضاً بالإخفاق التام. وحكم على بونابرت بالسجن المؤبد، ولكنه فر من السجن في عام ١٨٤٦ إلى بريطانيا - ص ٨٥.

(44) ناك بوتوم، شخصية من مسرحية شكسبير المزالية "حلم ليلة صيف". ويقصد ماركس هنا المشهد الثاني من الفصل الأول - ص ٨٥.

والدين والعائلة والملكية نقال علناً وعلى ملأ من البرجوازيين بينما يستند سرًا إلى جمعية شوفتيرل وشيبغلبرغ⁽⁴⁵⁾ وإضرابها، جمعية الفوضى والدعارة والسرقة – إنما هو بونابرت نفسه في صفة المؤلف الأصلي، وتاريخ جمعية العاشر من كانون الأول هو تاريخه الخاص. لقد حدث ذات مرة حادث خارق: فإن بعض النواب من حزب النظام وقع تحت هراوات أعضاء جمعية العاشر من كانون الأول. بل أكثر من ذلك. فإن يون، مفوض الشرطة المكلف بالشهر على سلامة الجمعية الوطنية، أبلغ اللجنة الدائمة، استناداً إلى تصريح من شخص يدعى آليه، أن فرعاً من فروع جمعية العاشر من كانون الأول قررت اغتيال الجنرال شانغارنبيه دوبان، رئيس الجمعية الوطنية، وأنه قام بالفعل بتعيين الأشخاص الذي كان عليهم تنفيذ هذا الفعل. ويستطيع المرء أن يتصور مدى الجزع الذي تملك المسيو دوبان. وبذا أنه لا مناص من القيام بتحقيق برلماني يتناول جمعية العاشر من كانون الأول، أي من انتهاك قدسيّة العالم البونابرتى السرى. وقبيل انعقاد الجمعية الوطنية عمد بونابرت، على سبيل التحوط، إلى تصريح جمعيته، على الورق فحسب بطبيعة الحال، وذلك لأن مدير الشرطة كارلبيه كان ما يزال يسعى عبثاً في مذكرة تفصيلية وضعها في نهاية عام ١٨٥١ إلى دفعه إلى حل هذه الجمعية بصورة حقيقة.

وكان لجمعية العاشر من كانون الأول أن تبقى جيش بونابرت الخصوصي حتى نجح في تحويل جيش الدولة إلى جمعية العاشر من كانون الأول. وقد قام بونابرت بالمحاولة الأولى في هذا الصدد بعد أرفضاص الجمعية الوطنية بوقت قصير وبالمال ذاته الذي أغتصبه منها. وهو، بوصفه قدرياً، يعيش في العقيدة القائلة أن هنالك قوى عاوية معينة لا قبل للإنسان، وخاصة الجندي، بمقامتها، وهو يعد من بين هذه القوى أولاً وقبل كل شيء لفافات السيجارة والشمباتانيا ولحم الطيور البارد والمقانق المحشوة بالثوم. وبناء على ذلك، عمد بادئ ذي بدء إلى تضييف الضباط وضباط الصف في مقاصير الإبليزية لفافات السيجار والشمباتانيا ولحم الطيور البارد والمقانق المحشوة بالثوم. وفي الثالث من تشرين الأول، أعاد هذه المناورة مع جمهرة من الجنود في استعراض سان - ماور، وفي العاشر من تشرين الأول كرر المناورة نفسها على نطاق أكبر في استعراض الجيش الرئيسي في ساتوري. لقد تذكر العم حملات الاسكندر في آسيا وتذكر ابن زحوف باخوس⁽⁴⁶⁾ المظفرة في البلاد ذاتها. صحيح أن الاسكندر كان نصف إله ولكن باخوس كان إلهًا حقيقياً بل كان إله الحامي لجمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر).

بعد استعراض الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) استدعت اللجنة الدائمة وزير الحرب دوبول فوعده بالاستمرار على هذا الخرق للانضباط. ونحن نعرف كيف حافظ بونابرت في العاشر من تشرين الأول على كلمة دوبول. أن شانغارنبيه، بوصفه قائدًا عامًا لجيش باريس، قد قاد الاستعراضين وهو، إذ كان في وقت واحد عضواً في اللجنة الدائمة ورئيساً للحرس الوطني و"منذ" ٢٩ كانون الثاني (يناير) و١٣ حزيران (يونيو) و"حضر المجتمع" مرشح حزب النظام لشرف الرئاسة و"موناك" المظنون لملكتين، لم يعترف حتى الآن مطلقاً بأنه دون وزير الحرب منزلة وكان يزدري دائماً الدستور الجمهوري بصورة مكشوفة ويتبع بونابرت بحماية مهمته فيها استعلاء. وقد استبدت به الآن الحماسة للذود عن الانضباط ضد وزير الحرب وعن الدستور ضد بونابرت. وبينما كان فريق من الفرسان في العاشر من تشرين الأول يصيحون: "Vive Napoléon! Vivent les saucissons!" (عاش نابوليون! عاشت المقانق!). الناشر). وضع شانغارنبيه ترتيباً لجعل المشاة الذين يمرون أمام المنصة تحت قيادة صديقة نيمایر على الأقل يرافقون الصمت المطبق. وعاقباً على ذلك أُغفى وزير الحرب الجنرال نيمایر من وظيفته في باريس بتحريض من بونابرت، بحجّة تعينه قائدًا عامًا لفرقتين العسكريتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة. وقد رفض نيمایر هذا التبادل في الوظائف فكان عليه بذلك أن يستقيل. أما شانغارنبيه فقد أذاع من جانبه أمراً في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) منع فيه الجنود من الانغماس في الصراع السياسي أو المظاهرات من أي نوع ما داموا تحت السلاح. وهاجمت جرائد

(45) شوفتيرل وشيبغلبرغ – شخصيات من مسرحية شيلر "قطاع الطريق"، غوغاجان عن اللصوص والقتلة الحالين من كل ذرة من الأخلاق. – ص. ٨٦.

(46) المقصود هنا الأسطورة اليونانية عن زحف إله الخمر باخوس (ديونيزوس) إلى الهند. – ص. ٨٧.

الأيليزية⁽⁴⁷⁾ شانغارنيه وهاجمت جرائد حزب النظام بونابرت، وعقدت اللجنة الدائمة جلسات سرية متكررة أقرّت فيها تكراراً اعلان الوطن في خطر. وبدا أن الجيش انقسم إلى مسكونين متعادلين لهما هيتان متعادلتين للأركان العامة ، واحدة في الأيليزية حيث كان يسكن بونابرت والأخرى في التوليري حيث كان مقر شانغارنيه. وبدا أن انعقاد الجمعية الوطنية قد يغدو الإشارة للمعركة. وحكم الجمهور الفرنسي على هذا الاحتكاك بين بونابرت وشانغارنيه كما فعل ذلك الصحفى الانجليزى الذى حدد خصائصه بالكلمات التالية:

"إن خدمات منزل فرنسا السياسيات يكنس حم الثورة بمكانت عتيقة ويتشاجرن الواحدة مع الأخرى وهن يؤذين عملهم".

وفي هذه الأثناء بادر بونابرت إلى إزاحة وزير الحرب دوبول وشحنه بأقصى السرعة على الجزائر وتعيين الجنرال شرام وزيراً للحربية مكانه. وفي ١٢ تشرين الثاني بعث إلى الجمعية الوطنية برسالة اميركية الإسهاب، مشحونة بالتفاصيل، عاقبة بشذا النظام، راغبة في المصالحة، مذعنة للدستور تتناول كل شيء إجمالاً وأفراداً ما عدا questions brulantes (القضايا الملحة. الناشر) في الوقت الراهن. وكأنما بصورة عابرة أبدى ملاحظة مفادها أن التصرف في الجيش، وفق أحكام الدستور الصريحة، هو من شأن الرئيس وحده. واختتمت الرسالة بهذه الكلمات المهمية.

"إن فرنسا تطالب، فيها كل شيء، بالسکينة... وبما أني وحدى مرتبطة بقسم فسوف ألتزم الحدود الضيقية التي رسماها لي... وبقدر ما يتعلق الأمر بي، بوصفي منتخبًا من قبل الشعب وأدين له وحده بالسلطة، فإني سأحنّي دائمًا لإرادته المعبر عنها بصورة شرعية. فإذا ما أستقر رأيك في هذه الدورة على إعادة النظر في الدستور فسوف تتولى الجمعية التأسيسية تنظيم وضع السلطة التنفيذية. وإلا فإن الشعب سيعلن قراره على نحو مهيب في عام ١٨٥٢. ولكن مهما كانت طول المستقبل فدعونا نصل إلى تفاصيل بحث لا ندع مطلاً للعاطفة أو المفاجأة أو العنف سبيلاً لتقدير مصير الأمة العظيمة... أن ما يشغل اهتمامي في الدرجة الأولى ليس هو من يحكم فرنسا في سنة ١٨٥٢ بل كيف أستخدم الوقت الباقى تحت تصرفى بحيث تمر الفترة الانتقالية دون تهديد أو اضطراب. لقد فتحت قلبي لكم بإخلاص. وستجيبون على صراحى بصدقكم وعلى مساعي الحميدية بتعاونكم والباقي على الله".

إن لغة البرجوازية الموقرة، المنافقة في اعتدالها، الغثة في فضيلتها، لنكشف عن أعمق معانيها في فم أوتوقراطي جمعية العاشر من كانون الأول وبطل ولimenti سان - ماور وساتوري.

إن بورجرافي حزب النظام لم يضلوا أنفسهم لحظة في شأن الثقة التي يستحقها فتح القلب هذا. أما الإيمان فقد طال عهد بشمهم منها، إذ كانوا يضمون بين صفوفهم محنكين وموهوبين في الحنث بالإيمان السياسية، ولكن لم يفتهن مع ذلك أن يسمعوا الفقرة المتعلقة بالجيش. فقد لاحظوا بازداج أن الرسالة في تعدادها المستفيض للقوانين التي شرعت مؤخراً قد أغفلت أهم هذه القوانين جميعاً، وهو قانون الانتخاب، بصمت متعمد، بل إنها تركت انتخاب الرئيس سنة ١٨٥٢، في حالة عدم إعادة النظر في الدستور، إلى الشعب. إن القانون الانتخابي كان كرة الرصاص التي قيدت بها أرجل حزب النظام فمنعه من المشي به منعه من الاقتحام! ناهيك نأن بونابرت، بتسریحه الرسمي لجمعية العاشر من كانون الأول وبعزله وزير الحرب دوبول، قد قرب بيديه أكباش الفداء على مذبح الوطن. لقد ثمّ حدة الصدام المرتقب. وأخيراً كان حزب النظام نفسه حریصاً، بداعي الجبن، على أن يقادى أي اشتباك حاسم مع السلطة التنفيذية وأن يلطّفه ويطمئنه. وخوفاً من أن يخسر انتصاراته ضد الثورة، سمح

(47) يقصد ماركس الجرائد ذات الاتجاه البونابرتى. والتسمية مأخوذة من قصر الأيليزية، مقر لويس بونابرت في باريس، زمن رئاسته. - ص ٨٨.

لمنافسه بأن يجني ثمارها. "أن فرنسا تطالب، قبل كل شيء، بالسكينة". هذا ما صرخ به حزب النظام بوجه الثورة منذ شباط (فبراير) (سنة ١٨٤٨ . الناشر). وهذا ما صرخت به رسالة بونابرت بوجه حزب النظام. "أن فرنسا تطالب، قبل كل شيء، بالسكينة". أن بونابرت أتخذ تدابير تهدف إلى الاغتصاب ولكن حزب النظام يغدو مذنباً في "تعكير السكينة" إذا أثار ضجيجاً حول هذه التدابير وفسرها تفسيراً سوداوياً موسوساً. أن مقانق ساتوري كانت هادئة كالفيران عندما لم يكن يتكلم عنها أحد. "أن فرنسا تطالب، قبل كل شيء، بالسكينة". ولذا طالب بونابرت بأن يترك شأنه في سلام وسكونه. وكان الحزب البرلماني يشله خوف مزدوج: خوف من أن يتسبب ثانية تعكير ثوري للسكونة وخوف من أن يظهر هو نفسه بمظهر المحرض على تعكير السكينة في عيون طبقته ذاتها، في عيون البرجوازية. ولما كانت فرنسا تطالب بالسكونة قبل كل شيء فإن حزب النظام لم يجرؤ على أن يحيي "حرباً" بعد أن تكلم بونابرت في رسالته "سلاماً". أما الجمهور الذي توقع مشاهد من الفضائح الكبرى لدى افتتاح الجمعية الوطنية فقد خابت توقعاته. فنواب المعارضة الذي طالبوا بعرض محاضر مناقشات اللجنة الدائمة حول حوادث تشرين الأول خذلتهم الأغلبية. وتتجنب الجمعية، من حيث المبدأ، جميع المناقشات التي كان ممكناً أن تؤدي إلى أهاجة المشاعر. أن إجراءات الجمعية الوطنية خلال تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٠ كانت عديمة الأهمية.

وفي أواخر كانون الأول فقط، بدأت صدامات صغيرة حول عدد من صلاحيات البرلمان. وقد نفحت الحركة وانحصرت في مشاحنات صغيرة حول صلاحيات كلتا السلطتين منذ أن تخلصت البرجوازية من الصراع الطبقي للأوقات القريبة القادمة بإلغائها حق الاقتراع الشامل.

لقد أصدرت المحكمة حكمها بحق موغين، أحد النواب، بسبب ديونه، وراداً على استفسار رئيس المحكمة، أعلن روبيه، وزير العدلية، وجوب إصدار مذكرة بإلقاء القبض على المدين دون مزيد من الأخذ والرد. وهكذا زج بموغين في حبس المدينين. وثارت ثائرة الجمعية الوطنية عندما علمت بالاعتداء على حصانة النواب. ولم تكتف بإصدار الأمر بإطلاق سراحه في الحال بل إنها عملت على إحضاره بالقوة من كليشي في المساء ذاته بواسطة كاتبها. بيد أنها لكي ثبتت إيمانها بقداسة الملكية الفردية، ومع الفكرة التي كانت تساورها بفتح ملأ، إذا أقصى الأمر، "الجلبيين" الذين غروا مزعجين، أعلنت أن حبس الناخب بسبب الدين يمكن السماح به بعد الحصول على موافقة سابقة منها. ونسيت أن ترسم بأنه يمكن حبس الرئيس أيضاً بسبب الدين. لقد قضت على آخر مظاهر الحصانة التي كانت تحيط بأعضاء هيئتها نفسها.

لقد أشرنا أعلاه إلى أن يون، مفوض الشرطة، قد أخبر عن تدبير فرع من فروع جمعية العاشر من كانون الأول لخطة اغتيال دوبان وشانغارنبيه، بناء على إخبارية من شخص يدعى آلية. ونظرًا لهذا قدم الكويسنور في الجلسة الأولى ذاتها اقتراحًا بتشكيل شرطة خاصة بالبرلمان، تدفع مرتباتها من الميزانية الخاصة للجمعية الوطنية وتكون مستقلة استقلالاً مطلقاً عن مدير الشرطة. وأحتج وزير الداخلية، باروش، على هذا الاعتداء على ميدان اختصاصه. بعد هذا، تمت مساومة بائسة بهذا الشأن أصبح راتب مفوض شرطة البرلمان بموجبها بدفع حقيقة من ميزانيته الخاصة ويعين ويعزل من قبل كويسنور البرلمان ولكن بعد اتفاق سابق مع وزير الداخلية فحسب. وفي هذه الأثناء باشرت الحكومة بالملحاقات القضائية بحق آلية. وكأن من السهل هنا إظهار إخباريته بأنها خزعلبة وإظهار دوبان وشانغارنبيه ويون والجمعية الوطنية بكاملها بمظهر مضحك، وذلك على لسان المدعي العام. وبعد هذا، يكتب الوزير باروش في ٢٩ كانون الأول رسالة إلى دوبان يطالبه فيها بعزل يون. ويقرر ديون الجمعية الوطنية بقاء يون في منصبه، بيد أن الجمعية الوطنية، وقد ذعرت من عنفها في قضية موغين وأعتقدت أن تتلقى من السلطة التنفيذية ضربتين مقابل كل ضربة تجرأت على توجيهها إليها، لم تصافق على هذا القرار. وعزلت يون مكافأة له على ما أبداه من حماسة في الوظيفة وسلبت نفسها صلاحيات برلمانية لا غنى عنها إزاء شخص لا يقر ليلًا ما ينفذنه نهاراً بل يقرر نهاراً وينفذ ليلاً.

لقد رأينا كيف أن الجمعية الوطنية في مناسبات جدية بارزة خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول قد تقامت أو رفضت الصراع مع السلطة التنفيذية. ونحن الآن نجدها مرغمة على مباشرته في أصغر المناسبات شأنًا. ففي قضية موغرين تؤكد، من حيث المبدأ، حبس النواب بسبب الدين ولكنها تحتفظ بحق تطبيقه على النواب الذين تم قتلهم فحسب، وتتشاجر حول هذا الامتياز الشائن مع وزير العدل. وبدلاً من أن تستفيد من نبأ أعداد مؤامرة القتل فتأمر بإجراء تحقيق في نشاط جمعية العاشر من كانون الأول وتكشف بذلك القناع نهائياً عن بونابيرت أمام فرنسا وأوروبا، بحيث يستحيل ستره بعد ذلك، وبحيث يبدو في صفة الحقيقة رئيساً لحالة البروليتاريا في باريس، حضرت الصراع في مشاجرة بينها وبين وزير الداخلية هي أيهما صاحب الصلاحية في تعين مفوض شرطة وعزله. وهكذا نرى حزب النظام، خلال هذه الفترة بأسرها، قد أرغمه موقفه المبهم على تبديد صراعه مع السلطة التنفيذية وتحويله إلى هذر ولغو وتقتيه في مناوشات صغيرة حول حدود الصالحيات ومماحكات صغيرة ونزاعات قانونية سفسطائية وخلافات على تحديد السلطات، وعلى جعل المسائل الشكلية الفارغة موضوعاً لنشاطه. إنه لا يجرؤ على الدخول في الصراع في اللحظة التي يكون فيها للصراع معنى من حيث المبدأ، عندما تكون السلطة التنفيذية قد فضحت نفسها حقاً وتكون قضية الجمعية الوطنية هي قضية الأمة. وهو إذ يفعل ذلك يكون قد أعطى الأمة الأوامر بأن تهاجم في حين إنه ليس له ما يخشى أكثر من أن تتحرك الأمة. ولذا يرفض في مثل هذه المناسبات اقتراحات "الجلب" وينقل إلى إجراءات دورية. وبعد ما أمنت حزب النظام عن النضال الواسع النطاق، أخذت السلطة التنفيذية تتحين بهدوء الوقت الذي يمكن لها فيه أن تخوض هذا النضال ثانية في مناسبات صغيرة تافهة، أي عندما يكون الأمر، كما يقال، ذا أهمية برلمانية محلية فحسب. وعندئذ ينفجر غضب حزب النظام المكتوب، عندئذ يزبح حزب النظام السنار عن الكوايس، عندئذ يكشف قناع الرئيس، عندئذ يعلن الجمهورية في خطر، ويكن عندئذ أيضاً تبدو غيره سخيفة وتبدو مناسبة الصراع ذريعة ملؤها النفاق أو غير حرية مطلقاً بالصراع. وتصبح العاصفة البرلمانية عاصفة في فنجان، ويصبح الصراع مكيدة والن زاع فضيحة. وبينما تتأمل الطبقات الثورية ملياً بشماتة الإذلال الذي صارت إليه الجمعية الوطنية وذلك لأن حماستها لصالحيات هذه الجمعية البرلمانية تعادل تماماً حماسة الأخيرة للحرirات العامة، لا تدرك البرجوازية خارج البرلمان كيف تقدر البرجوازية داخل البرلمان على إضاعة الوقت في مشاحنات صغيرة كهذه وتهديد السكينة بمثل هذه المنافسات الحقيقة مع الرئيس، وتنتابها الببلة من إستراتيجية يعقد بموجبها الصلح في لحظة تتوقع فيها الدنيا كلها المعارك، ويبدأ بموجبها الهجوم في اللحظة التي تعتقد فيها الدنيا كلها أن الصلح قد عقد.

في العشرين من كانون الأول تقدم بascal دوبرا باستجواب إلى وزير الداخلية بشأن يانصيب قضبان الذهب. أن هذا اليانصيب كان "ابنة الأليزيوم"⁽⁴⁸⁾ وقد جلبه للدنيا بونابيرت وأتباعه ووضعه مدير الشرطة كارييه تحت حمايته الرسمية، رغم أن القانون الفرنسي يحرم جميع أنواع اليانصيب ما عدا اليانصيب الذي يخصص للأغراض الخيرية. فقد صدرت سبعة ملايين تذكرة بانصيب، ثمن التذكرة فرنك، يخصص ريعه في ظاهر الأمر لسفر مشردي باريس إلى كاليفورنيا. فمن جهة كان للأحلام الذهبية أن تحل محل الأحلام الاشتراكية لبروليتاريا باريس وللأمل المغربي في الفوز بالجائزة الأولى أن يحل محل الحق النظري في العمل. ومن الطبيعي أن عمال باريس لم يتعرفوا في بريق قضبان كاليفورنيا الذهبية على الفرنكات المتواضعة التي سحبها الإغواء من جيوبهم. وعلى العموم، كان هذا اليانصيب "نصباً" صريحاً. أن المشردين الذي أرادوا فتح مناجم ذهب كاليفورنيا دون أن يزعجوا أنفسهم بترك باريس كانوا بونابيرت نفسه وحاشيته المتنقلة بالديون. فإن الملايين الثلاثة التي وافقت الجمعية الوطنية على اعتمادها قد بعزمت وكان لابد من إملاء صناديق المال الفارغة ثانية بطريقة أو بأخرى. وعثناً أفتتح بونابيرت اكتتاباً وطنياً لإنشاء ما يسمى Cité ouvrières (حوار العمال. الناشر). وظهر هو نفسه على رأس القائمة بمبلغ كبير. أن البرجوازيين قساة القلوب انظرواه بارتياح حتى يسدد حصته، ولم لم يحدث هذا بطبيعة الحال، اندثرت

(48) يلحاً ماركس هنا إلى تلاعب بكلام بيت من قصيدة شيلر "الفرح" وفيها ينشد الشاعر الفرحة - "ابنة الأليزيون" أو ميدان الأليزيون (وهي مرادف الفردوس في آثار المؤلفين الأقدمين). وميدان الأليزيون اسم جادة في باريس كان فيها قصر لويس بونابيرت - ص ٩٥.

المضاربة بالقصور الاشتراكية كفقاعات الصابون. وكان سحب قضبان الذهب أفضل. أن بونابرت وشركاه لم يكتفوا بأن يملئوا جيوبهم بجزء من دخل اليانصيب بقي من السبعة ملايين فرنك بعد حسم قيمة القضبان المعروضة في اليانصيب بل صنعوا تذاكر يانصيب مزورة، إذ أصدروا عشر وخمس عشرة بل وعشرين تذكرة تحمل ذات الرقم - وهي عملية مالية تتسمج مع روح جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر)! إن الجمعية الوطنية لم تواجه هنا كان في وسعها أن تمسكه متلبساً ب فعلته، ليس خلافاً للدستور بل خلافاً *Code pénal* (قانون العقوبات. التاسع). وإذا كانت الجمعية الوطنية قد أجبت على استجواب دوبرا بالانتقال إلى الإجراءات الدورية، فإن هذا لم يحدث لمجرد أن اقتراح جيراردين بأنه ينبغي أن تعلن "ارياحها" قد ذكر حزب النظام بالفساد المنظم القائم بين صفوفه. أن البرجوازي، وفي الدرجة الأولى البرجوازي الذي تضم فاصبح رجل دولة، يكمل لؤمه العملي بالإسراف النظري. وهو يصبح، بوصفه رجل دولة، شأن سلطة الدولة التي تواجهه، كائناً أعلى لا يمكن محاربته إلا بشكل أعلى وأشد تكريساً.

أن بونابرت الذي كان يتمتع بوصفه وليد البوهيميا وزعيماً لحالة البروليتاريا، بمزية على البرجوازي النذر من حيث أنه أستطيع أن يقود الصراع بوسائل سافلة رأي الآن، بعد أن قادته الجمعية نفسها بيدها بنجاح عبر مزالق الولائم العسكرية والاستعراضات وجمعية العاشر من كانون الأول وأخيراً *Code penal*، أن اللحظة التي يستطيع فيها أن ينتقل من الدفاع الظاهري إلى الهجوم قد حانت. وقليلًا ما أزعجه الهزائم الصغيرة التي حلت في هذه الأثناء بوزير العدلية ووزير الحربية ووزير البحرية وزيرة المالية والتي أعربت الجمعية الوطنية من خلالها عن استيائها المزمن. فهو لم يكتف بأن يمنع الوزراء من أن يستقيلوا فيعترفوا بذلك بسيادة البرلمان على السلطة التنفيذية بل إنه أستطيع الآن أن يتم ما بدأه أثناء عطلة الجمعية الوطنية: أي فصل السلطة العسكرية عن البرلمان إذ أنه أقصى سانغارنييه.

نشرت صحيفة من صحف الإليزيه أمرًا يومياً زعم إنه وجه في شهر أيار (مايو) إلى الفرقة العسكرية الأولى وأنه صدر وبالتالي عن شانغارنييه، وفيه أوصى الضباط بالا تأخذهم في حالة التمرد رأفة بالخونة في صفوفهم بل بأن يرمونهم بالرصاص على الفور وأن يرفضوا مد الجمعية الوطنية بالجند، فيما لو استدعتهم. وفي ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٥١ ثلت وزراء استجواباً بشأن هذا الأمر. وتطلب الوزارة، من أجل إجراء تحقيق في هذه القضية، مهلة ثلاثة أشهر في أول الأمر، ثم أسبوعاً وأخيراً أربعاً وعشرين ساعة فحسب. وتصر الجمعية على تفسير فوري، وينهض شانغارنييه ويصرح بأنه لم يصدر أمرًا كهذا على الإطلاق وبضيف أنه سيصدر دائمًا إلى الأمثال لطلبات الجمعية الوطنية وأنها تستطيع في حالة حدوث اصطدام أن تعول عليه. وتنطبق الجمعية تصريحه بهليل وتصفيق لا يوصف وتصدر قراراً بالثقة فيه. أنها تتخلى عن السلطة وتتصدر حكمًا بعجزها هي وبقدرة الجيش الكلية بوضع نفسها تحت الحماية الخاصة لجنرال. بيد أن الجنرال يخطئ عندما يضع تحت أمر البرلمان ضد بونابرت قوة حازها بمثابة أقطاع فقط من بونابرت نفسه، وعندما يتوقع، هو بدوره، أن يحميه هذا البرلمان، هذا اللاذ به الذي يحتاج إلى الحماية. بيد أن شانغارنييه يؤمن، على كل حال، بالقوة الغامضة التي أسبغتها البرجوازية عليه منذ ٢٩ كانون الثاني ١٨٤٩. إنه يعتبر نفسه السلطة الثالثة التي تقوم جنباً على جنب مع سلطتي الدولة الآخرين. وهو يشارك سائل أبطال هذه الفترة، أو بالأحرى قدسيتها، مصيرهم، وهم الذين تقوم عظمتهم، بوجه التحديد، على الفكرة العظيمة المتحizza التي شيعها عنهم حزبهم والذين ينكشون إلى أشخاص عاديين حالما تدعوهم الظروف إلى القيام بالمعجزات. أن عدم الإيمان هو، بصورة عامة، العدو المميت لهؤلاء المحسوبين أبطالاً وقدسيين الحقيقيين. ومن هنا ينشأ غضبهم الفاضل الجليل على هذا الفقر في الحماسة الذي يبديه المتذرون والساخرون.

في المساء نفسه يدعى الوزراء إلى قصر الإليزيه. ويصر بونابرت على عزل شانغارنييه ويرفض خمسة وزراء توقيع العزل. وتعلن "Moniteur" نشوء أزمة وزارية بينما تهدد صحف حزب النظام بتشكيل جيش برلماني تحت قيادة

شانغارنبيه. وقد كان لدى حزب النظام الحق الدستوري في اتخاذ هذه الخطوة. ولم يكن عليه إلا أن ينتخب شانغارنبيه رئيساً للجمعية الوطنية يستدعي العدد الذي يشاؤه من الجنود لحمايتها. وكان في وسعه أن يفعل ذلك باطمئنان تام لأن شانغارنبيه كان ما يزال بالفعل على رأس الجيش والحرس الوطني في باريس وكان ينتظر فقط أن يستدعي هو والجيش لتقديم المساعدة. ولم تجرأ الصحف البونابرتية لغاية الآن حتى على مناقشة حق الجمعية الوطنية في استدعاء الجنود مباشرة، وهو تشكيق قانوني لم يكن يبشر في تلك الظروف بأي حظ من النجاح. أما أن الجيش كان سيعطي أوامر الجمعية الوطنية فهو أمر محتمل كثيراً إذا تذكر المرء أن بونابرت أضطر إلى أن يفتح باريس كلها مدة أسبوع لكي يجد جرالين - باراغة ديليه وسان - جان دانجيلى - أعلنوا استعدادهما بالإضافة توقيعهما على أمر عزل شانغارنبيه. أما أن حزب النظام كان سيجد في صفوفه نفسها وفي البرلمان العدد اللازم من الأصوات لإتخاذ قرار كهذه أكثر من مشكوك فيه لو أخذ المرء بالحسبان أنه انفصل ٢٨٦ نائباً عن الحزب بعد أسبوع وأنه في شهر كانون الأول سنة ١٨٥١، في ساعة الفصل الأخيرة، كان "الجبال" يرفض اقتراحًا مماثلاً. ورغم هذا، ربما كان ما يزال في وسع البورجرافيين أن ينجحوا في دفع جمهورة حزبهم إلى بطولة الاختفاء خلف غابة من الحراب وإلى قبول خدمات جيش التحق بمعسكرهم. وبخلاف من هذا، توجه السادة البورجرافيون مساء ٦ كانون الثاني إلى قصر الإليزيه ليحملوا بونابرت، باستخدام الأساليب والحجج الدبلوماسية، على عدم اتخاذ قرار بإقالة شانغارنبيه. وكل من تسعى لإقناعه فإنما تعرف بأنه سيد الموقف. وفي ١٢ كانون الثاني عمد بونابرت، وقد بعثت هذه الخطوة التي أتخذها البورجرافيون في نفسه الاطمئنان، إلى تشكيل وزارة جديدة بقى فيها زعيماً الوزارة القديمة، فولد وباروش. وأصبح سان - جان دانجيلى وزيراً للحربي، ونشرت "Moniteur" مرسوم إقالة شانغارنبيه وتوزيع وظيفته بين باراغة ديليه الذي أسلم فرقة الجيش الأولى، وبيررو الذي أسلم الحرس الوطني. وأُقيل "حصن المجتمع"، وبينما لم يتسبب هذا في سقوط أية أجرة من الأسطحة فإن أسعار البورصة قد ارتفعت بالمقابل.

أن حزب النظام، إذ صد الجيش الذي يضع نفسه في شخص شانغارنبيه تحت تصرفه وتتنازل عنه بذلك بصورة قطعية للرئيس، قد أثبت أن البرجوازية قد فقد القدرة على الحكم. ولم يعد هنالك وزارة برلمانية. وهو إذ فقد الآن بالفعل قبضته على الجيش والحرس الوطني فما هي وسائل القوة لديه التي يمكن بها من أن يحتفظ في آن واحد بسلطة البرلمان المغتصبة على الشعب وبسلطته الدستورية ضد الرئيس؟ لا شيء. لم يبق له الآن إلا أن يلجأ إلى المبادئ العاجزة، إلى المبادئ التي فسرها هو نفسه دائمًا مجرد قواعد عامة يشير بها على الآخرين لكي يتمكن من أن يتصرف هو بحرية أكبر. أن عزل شانغارنبيه وسقوط العسكرية بيدي بونابرت يختمان الجزء الأول من هذه الفترة التي نحن بصددها، فترة الصراع بين حزب النظام والسلطة التنفيذية. وقد أعلنت الحرب بين السلطتين الآن بصورة رسمية، وهي تخاض بصورة مكشوفة، ولكن بعد أن فقد حزب النظام السلاح والجند. وإذا غدت الجمعية الوطنية بلا وزارة ولا جيش ولا شعب ولا رأي عام، ولم تبق بعد إصدارها القانون الانتخابي للحادي والثلاثين من أيار (مايو) تمثل الأمة ذات السبادة، وإذا غدت بلا عيون ولا آذان ولا أنسان ولا أي شيء، تحولت تدريجياً إلى برلمان فرنسي قديم (٤٩) عليه أن يترك العمل للحكومة ويكتفي هو بهممة الاعتراضات Post festum (بعد العيد، أي بعد وقوع الحادث. الناشر).

وأستقبل حزب النظام الوزارة الجديدة بعاصفة من السخط وإعادة الجنرال بيدو إلى الذهن اللطف الذي أبدته اللجنة الدائمة أثناء العطلة والاعتبار الزائد الذي أظهرته بالعدول عن نشر محاضر جلساتها. وأخذ وزير الداخلية بنفسه يصر الآن على نشر هذه المحاضر التي غدت في هذا الوقت بطبعية الحال راكرة كمية الخندق لا تكشف عن أي حقائق جديدة وليس لها

(٤٩) البرلمان، مؤسسات قضائية عليا في فرنسا قبل الثورة البرجوازية في أواخر القرن الثامن عشر. كانت البرلمان موجودة في جملة من مدن فرنسا. وكان أهمها شأنًا برلمان باريس الذي كان يسجل الأوامر الملكية والذي كان يملك ما يسمى حق الإشارة أي حق الاحتجاج على الأوامر التي لا تتطابق مع عادات البلاد وقوانينها. ولكن معارضة البرلمان كانت محرومة بين كل قوة فعلية لأن حضور الملك بشخصه في الجلسات كان يجعل تسجيل الأوامر الرامية - ص ١٠٠.

أدنى تأثير على الجمهور المتعب الضجر. وبناء على اقتراح ريمواز، عينت الجمعية الوطنية، بالاعتماد على جلسات لجانها، "لجنة الإجراءات فوق العادة". أما باريس فلم تخرج في حياتها عن مجرياها العادي إذ أن التجارة كانت في هذه اللحظة رائجة والمؤسسات الصناعية ناشطة وأسعار الخدمة منخفضة والمواد الغذائية فائضة وصناديق التوفير تتلقى يومياً الودائع الجديدة. وتمضي "الإجراءات فوق العادة" التي أعلنت عنها البرلمان بكل تلك الضجة فولدت قراراً في اليوم الثامن عشر من كانون الثاني بحجب الثقة عن الوزراء حتى دون أن يأتي للجنرال شانغارنييه ذكر. وقد أضطر حزب النظام إلى صياغة قراره بهذه الصورة لكي يؤمن أصوات الجمهوريين، ذلك لأن عزل شانغارنييه كان من بين جميع الإجراءات التي اتخذتها الوزارة هو الإجراء الوحيد الذي يوافق عليه الجمهوريون بينما لم يكن حزب النظام في الواقع في وضع يمكنه من شجب الأعمال الوزارية الأخرى إذ أنه هو الذي أملأها بنفسه على الوزارة.

أن قرار حجب الثقة الصادر في ١٨ كانون الثاني قد أتى بأربعيني وخمسة عشر صوتاً مقابل مائتين وستة وثمانين، أي أنه لم يتخد إلا باتفاق الشرعيين والأورليانيين المتطرفين مع الجمهوريين الصرف والـ"الجبل". وبين ذلك أن حزب النظام لم يفقد في نزاعاته مع بونابرت الوزارة وحدها ولا الجيش وحده بل فقد أيضاً أغلبيته البرلمانية المستقلة، وأن فريقاً من النواب قد انضموا عن معسكره بداعي الأعمى إلى المساومة أو الخوف من الصراع أو الكل أو الحرص العائلي على مرتبات الدولة القريبة إليهم العزيزة عليهم أو المضاربة على المناصب الوزارية التي تخلو (دويلون بارو) أو بداعي الأنانية الحقيرة التي تجعل البرجوازي العادي يجذب دائمًا إلى تضحية المصلحة العامة لطبقته لهذا الباعث الشخصي أو ذلك. ومنذ البداية لم يتثبت النواب الـ"بونابريتون" بحزبه النظام إلا في الصراع ضد الثورة. ومنذ ذلك الحين عمد مونتالمبير، زعيم الحزب الكاثوليكي، إلى إلقاء نفوذه الشخصي في الكفة الـ"بونابريته" لأنه يئس من قدرة الحزب البرلماني على الحياة. وأخيراً أضطر زعيم هذا الحزب، الأورلياني تيير والشريعي بيربيه، إلى أن يعلن نفسيهما جمهوريين بصورة مكشوفة وأن يعتراضاً بأن قلبيهما ملكيان ولكن رأسهما جمهوريان وأن الجمهورية البرلمانية كانت الشكل الوحيد الممكن لحكم البرجوازية ككل. وهكذا، اضطرا على ملأ من الطبقة البرجوازية نفسها، إلى أن يصمتا مشروعات العودة التي واصلا العمل على تحقيقها بلا كلل من وراء ظهر البرلمان، بأنها ميكة فيها من الخطير بقدر ما فيها من فراغ العقل.

أن قرار حجب الثقة الصادر في ١٨ كانون الثاني (يناير) قد أصاب الوزارة لا الرئيس. ولكن ليست الوزارة بل الرئيس هو الذي عزل شانغارنييه. ألم يكن يجب أن يضع حزب النظام بونابرت نفسه موضع الاتهام؟ بسبب رغبات العودة التي لديه؟ ولكن الأخيرة كانت مجرد تكلة لرغباته هو بسبب مؤامرته المتصلة بالاستعراضات العسكرية وجمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر)؟ ولكن دفن هذه الموضوعات منذ زمن طويل تحت جداول الأعمال البسيطة اليومية. بسبب عزل بطل ٢٩ كانون الثاني و ١٣ حزيران (يونيو)، الرجل الذي هدد في أيام ١٨٥٠ بإشعال النار في أركان باريس الأربع في حالة حدوث تمرد؟ ولكن حفاء من "الجبل" وكافينياك لم يسمحوا له حتى بأن يؤيد "حصن المجتمع" الساقط بوساطة شهادة رسمية بالعطف عليه. بل أن حزب النظام نفسه لم يستطع إنكار حق الرئيس الدستوري في عزل الجنرالات. أنه لم يتم تهيج إلا لأن الرئيس استخدم حقه الدستوري ضد البرلمان. ولكن ألم يستخدم حزب النظام نفسه باستمرار صلاحياته البرلمانية ضد الدستور، خصوصاً فيما يتعلق بإلغاء حق الاقتراع الشامل؟ ولذا لم يبق له غير أن يتمسك بدقة بالحدود البرلمانية. وبغير هذا الداء الغريب الذي استشرى منذ عام ١٨٤٨ في طول القارة الأوروبية وعرضها، وهو داء البلاهة البرلمانية، والذي يشد المصابين به إلى عالم خيالي ويسلبهم كل عقل وكل ذكرى وكل فهم للعالم الخارجي الفظ - بغير هذه البلاهة البرلمان بـ"إيديه"، وكان لا بد له من أن يدمراها في صراعه منطبقات الأخرى، وظل مع ذلك يعتبر انتصاراته البرلمانية انتصارات ويعتقد أنه يصيب الرئيس بتوجيهه الضربات إلى وزرائه. وكل ما فعله هو أنه منح الرئيس الفرصة لإذلال الجمعية الوطنية من جديد في عيون الأمة. ففي العشرين من كانون الثاني أعلنت "Moniteur" قبول استقالة الوزارة بأسرها. وبذرعة أن حزباً برلمانياً واحداً لم

يعد يمتنع بالأغلبية، كما أثبت ذلك تصويت ١٨ كانون الثاني، هذه الثمرة لاتفاق "الجب" والملكيين، وريثما يتسمى تشكيلأغلبية جديدة، عمد بونابرت إلى تعين ما يسمى بوزارة انتقالية لم يكن عضو واحد من أعضائها عضواً في البرلمان بل كانوا جميعاً أشخاصاً مغموري تماماً ولا شأن لهم، وزارة مجرد كتبة ونساخ. وأصبح في وسع حزب النظام الآن أن يبدد قواه في اللعب مع هذه الدمى. أما السلطة التنفيذية فلم تعد تعتقد بأن الأمر يستحق منها أن تكون ممثلة تمثيلاً جدياً في الجمعية الوطنية. وكلما كان وزراء بونابرت مجرد دمى، كلما ركز هو السلطة التنفيذية بأسرها في شخصه وأتسع المجال أمامه لاستغلالها لغاياته الخاصة.

وبالاتفاق مع "الجب"، ثار حزب النظام لنفسه برفض منح الرئيس مبلغ مليون وثمانمائة ألف فرنك، وهو المبلغ الذي كان رئيس جمعية العاشر من كانون الأول قد أرغم صنائعه الوزراء على أن يقتربوه. وقد تقررت المسألة في هذه المرة بأغلبية مائة صوت وصوتين فقط، أي أن سبعة وعشرين صوتاً جديداً أفضت منذ ١٨ كانون الثاني (يناير) عن حزب النظام؛ أن انحلال حزب النظام كان يجري قدمًا. وفي الوقت ذاته، ولكي لا يكون هنالك مجال للالتباس لحظة واحدة بشأن معنى اتفاقه مع "الجب"، ألغى حتى أن يبدأ المناقشات حول اقتراح موقع من مائة وتسعة وثمانين عضواً من "الجب" يدعوه إلى إصدار عفو عام من المجرمين السياسيين. كان يكفي وزير الداخلية، وهو شخص يدعى فايس، أن يعلن أن السكينة ظاهرية فحسب وأن تحريضاً قوياً سرياً ينتشر في البلاد وأنه يجري تنظيم جمعيات سرية في كل مكان وأن الصحف الديموقراطية تستعد للظهور الثانية وأن التقارير الواردة من المقاطعات لا تبشر بالخير وأن لاجئي جنيف يرأسون مؤامرة تمتد خيوطها عن طريق ليون إلى سائر أنحاء جنوب فرنسا وأن فرنسا على حافة أزمة صناعية وت التجارية وأن أصحاب المعامل في مدينة روبيه قد خضوا ساعات العمل وأن مساجين بيل - أيل^(٥٠) قد ثاروا - كان يكفي فايس هذا أن يستحضر الشبح الأحمر حتى يرفض حزب النظام دون مناقشة اقتراحاً كان من شأنه أن يكسب الجمعية الوطنية على وجه التحقيق شعبية عظيمة ويرمي بونابرت بين ذراعيها من جديد. وكان ينبغي عليه، بدلاً من أن يدع السلطة التنفيذية ترهبه باحتمال نشوب اضطرابات جديدة، أن يمنح الصراع الطبقي بالأحرى بعض المجال حتى يبقى السلطة التنفيذية في حالة اعتماد عليه. بيد أنه لم يكن يشعر بأنه أهل لمهمة اللعب بالنار.

وفي غضون ذلك عاشت ما تدعى بالوزارة الانتقالية معيشتها الخامala حتى منتصف نيسان (أبريل). وقد أنهك بونابرت الجمعية الوطنية وخادعها بمناورات وزارية جديدة مستمرة. فتارة كان يبدو عليه أنه يريد تشكيل وزارة جمهورية تضم لامارتين وبيل وطوراً ووزارة برلمانية تضم أوديلون بارو، الذي لا بد أن يكون اسمه حاضراً أبداً عندما يحتاج الأمر إلى مغفل، ثم وزارة شرعية تضم فاتيمينيل وبنوا داري، ثم تارة أخرى وزارة أورليانية تضم مالفيل. وبينما أبقى بونابرت على هذا الوجه التكتلات المختلفة من حزب النظام في حالة توتر الواحدة ضد الأخرى وأفزعها كل باحتمال تشكيل وزارة جمهورية وما يستتبعه ذلك حتماً من إعادة حق الاقتراض الشامل، كان يوحى إلى البرجوازية في الوقت نفسه الاقتتاع بأن عدم تسامح التكتلات الملكية هو الذي يحيط جهوده الشريفة لتشكيل وزارة برلمانية. أما البرجوازية فكان يعلو صراخها من أجل "حكومة قوية" وتجد أن ترك فرنسا "دون إدارة" يصبح أمراً أقل احتمالاً للغران بقدر ما كان يبدو أن الأزمة التجارية العامة الزاحفة أخذت تكسب الاشتراكية أنصاراً جدداً في المدن. تماماً كما فعل الهبوط المخرب في سعر القمح في الريف. وأزداد كساد التجارة يوماً بعد يوم كما زادت الأيدي العاطلة بصورة ملموسة وبات عشرة آلاف عامل، على الأقل، محرومين من الخبر في باريس وتعطل عدد لا يحصى من المعامل في روان ومولهوس (مولوز. الناشر). وليون وروبيه وتوركوبين وسانس - اتيين والبيف، الخ.. وفي هذه الظروف أستطاع بونابرت أن يجتاز في ١١ نيسان (أبريل) على إعادة وزارة ١٨ كانون الثاني (يناير) : السادة وبيه

(٥٠) بيل - أيل، حزيرة في خليج بيكان. في أعوام ١٨٤٩ - ١٨٥٢، كانت مكاناً لحبس السجناء السياسيين. وفيها اعتقل مثلاً العمال من اشتراكوا في انتفاضة حزيران (يونيو) ١٨٤٨ في باريس - ص ٤.

وفولد وباروش، الخ، أضيف إليهم المسيو ليون فوشيه الذي كانت الجمعية التأسيسية في أيامها الأخيرة قد وصمته بإجماع الأصوات، باستثناء خمسة أصوات أدلّى بها الوزراء، بقرار حجب لإذاعة برقيات كاذبة. وهكذا، ما أحرزت الجمعية الوطنية انتصارها على وزارة ١٨ كانون الثاني وما تصارعت مع بونابرت ثلاثة أشهر إلا لتمكن فولد وباروش من إدخال المتردّم فوشيه في ١١ نيسان شخصاً ثالثاً في حفظهما الوزاري.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ أكتفى بونابرت بوزارة غير برلمانية وفي كانون الثاني ١٨٥١ اكتفى بوزارة خارجة عن البرلمان وفي ١١ نيسان أنس من نفسه القوة بحيث يشكل وزارة معادية للبرلمان كانت تجمع في ذاتها بانسجام قرارات حجب الثقة التي أصدرتها الجمعيّتان التأسيسية والتشريعيّة، الجمهوريّة والملكيّة. وقد كان هذا التدرج في الوزارات هو مقاييس الحرارة الذي كان البرلمان يستطيع بواسطته أن يقيس انخفاض حرارة حياته هو. وما أن أشرف شهر نيسان على نهايته حتى كانت الأخيرة قد هبطت إلى حد استطاع معه برسنييه أن يحث شغارنبيه، في مقابلة شخصية، على انضمام إلى معسكر الرئيس وأكد له أن بونابرت يعتبر أن نفوذ الجمعية الوطنيّة قد قضي عليه تماماً وأنه تم أعداد المنشور الذي سيذاع بعد Coup d'état، الذي كان ماثلاً في الذهن بصورة واضحة ولكنه تأجل بفعل الصدفة مرة أخرى. وقد أبلغ شانغارنبيه زعماء حزب النظام بحكم الموت هذا. ولكن من ذا الذي يظن عضات البق مميتة؟ وما كان في وسع البرلمان، وهو العاجز المفكك الذي دب فيه الموت والذي يوشك أن يلقط نفسه الأخير، أن يتغلب على نفسه ليرى في مبارزته مع الرئيس المسلح لجمعية العاشر من كانون الأول شيئاً غير مبارزة مع بقة. ولكن بونابرت أجاب حزب النظام بمثل ما أجاب أجيسلاوس الملك أجيس: "أبدوا لعينيك نملة ولكنني سأكون ذات يوم أسدًا"⁽⁵¹⁾.

(51) يستشهد ماركس هنا بحادثة منقوله بتصرف، رواها الكاتب القدم أتيه (القرنان الثاني والثالث بعد الميلاد) في كتابه "أحاديث العلماء حول المائدة" ("Deipnosophistae"). فقد قال الفرعون المصري تاخوس، ملحاً إلى صغر قامة أجيسلاوس، ملك أسبارطه، الذي جاء بمحنوده لنجده: "تحض الجبل، فخاف زوس، ولكن الجبل ولد فأرّة". فأجابه أجيسلاوس: "أنا أبدو لعينيك فأرّة، ولكن سيأتي يوم أبدو فيه لعينيك أسدًا". - ص ١٠٧.

(٦)

أن الالتفاف مع "الجبل" والجمهوريين الصرف الذي وجد حزب النظام أنه محكوم به عليه في جهوده غير المجدية للاحتفاظ بالسلطة العسكرية واستعادة الأشراف الأعلى على السلطة التنفيذية أثبت بلا جدال أنه قد خسر أكثريته البرلمانية المستقلة. وفي ٢٨ أيار أعطت القوة البسيطة للتقويم الزمني ولعقارب الساعة الإشارة لفككه تفككاً تاماً. في ٢٨ أيار بدأت السنة الأخيرة من سني حياة الجمعية الوطنية. لقد كان عليها الآن أن تقرر أما أبقاء الدستور دون تعديل أو إعادة النظر فيه. بيد أن إعادة النظر في الدستور لم يكن تعني فحسب الاختياريين حكم البرجوازية أو حكم ديموقراطية البرجوازية الصغيرة، بين الديموقراطية أو الفوضى البروليتارية، بين الجمهورية البرلمانية أو بونابرت، بل كانت تعني في الوقت نفسه الاختيار بين أورليان أو بوربون! وهكذا سقطت وسط البرلمان نفسه تقاحة الشفاق التي كان لا بد لها أن تؤجج علناً التضارب في المصالح التي شقت حزب النظام إلى تكتلات متعادية. أن حزب النظام كان خليطاً من عناصر اجتماعية غير متجانسة. وقد ولدت مسألة إعادة النظر في الدستور درجة الحرارة السياسية التي ينحل عندها هذا الخليط إلى عناصره الأصلية.

أما مصلحة البونابرتين في إعادة النظر في الدستور فبساطة. فالنسبة إليهم كانت المسألة قبل كل شيء هي مسألة إلغاء المادة ٤٥ التي كانت تمنع إعادة انتخاب بونابرت وتمديد سلطته. ولم يكن موقف الجمهوريين ليبدو أقل بساطة. فقد كانوا يبندون دون قيد أو شرط أية إعادة نظر إذ كانوا يرون فيها مؤامرة عامة على الجمهورية. ولما كانوا يحكمون على أكثر من ربع الأصوات في الجمعية الوطنية، وكان يلزم ثلاثة أرباع الأصوات، حسب الدستور، ليكون القرار القاضي بإعادة النظر صحيحاً من الوجهة القانونية ولি�تم عقد جلسة خاصة لإعادة النظر، فقد كان بحسبهم أن يدعوا أصواتهم ليكونوا واثقين من النصر. وقد كانوا واثقين من النصر.

وخلالاً لهذين الموقفين الواضحين وجد حزب النظام نفسه متورطاً في تناقضات لا قبل بحلها. فإذا ما رفضت إعادة النظر، لهدد الوضع القائم لأن ذلك يترك لبونابرت مخرجاً واحداً فحسب هو اللجوء إلى القوة، وأن ذلك يعني تسليم فرنسا يوم الأحد الثاني من أيار سنة ١٨٥٢، وفي لحظة الفصل، إلى تعسف الفوضى الثورية مع رئيس فقد سلطته وبرلمان لم يكن يملها منذ زمن بعيد وشعب ينوي استردادها ثانية. وإذا ما أقرّت العدالة نظر دستورية فقد كان يعرف أنه يقترب عبثاً وكان لا بد له أن يفشل دستورياً بسبب اعتراض الجمهوريين. وإذا ما أعلن، خلافاً للدستور، أن قراراً يتخذ بالأكثرية البسيطة سيكون ملزماً فلن يكون لديه حيئاً أمل في التغلب على الثورة إلا إذا أخضع نفسه بلا قيد أو شرط لسيادة السلطة التنفيذية، وبذلك يضع تحت تصرف بونابرت الدستور وإعادة النظر فيه ومصير الحزب نفسه. أما إعادة النظر الجزئية الرامية إلى إطالة أمد سلطة الرئيس فإنها تمهد السبيل للاغتصاب البونابرتى. وأما إعادة النظر العامة الرامية إلى تنصير أمد بقاء الجمهورية فإنها تؤدي بلا محالة إلى وقوع اشتباك بين ادعاءات الأسر المالكة الأورليانية لم تكن تختلف بعضها عن بعض فحسب بل كانت تتفق بعضها بعضاً بصورة متبادلة.

أن الجمهورية البرلمانية كانت أكثر من تربة محايده تستطيع كثالتا البرجوازية الفرنسية، الشرعيون والأورليانيون، الملكية العقارية الكبيرة والصناعة - أن تتصرفان عليها جنباً إلى جنب متمتعين بالحقوق المتساوية. فقد كانت الشرط الذي لا بد منه لحكمهما المشترك، شكل الدولة الوحيد الذي سيطرت معه مصلحتها الطبقية العامة على إدعاءات بعض كتل البرجوازية وكذلك على جميع طبقات المجتمع الباقية. وبوصفهم ملكيين، ارتدوا إلى عادتهم القديمة، إلى الصراع بين الملكية العقارية

وبين النقد من أجل السيادة، وأعلى تعبير عن هذه العداوة، وتجسيدها، إنما كان ملوكهم أنفسهم وأسرهم المالكة. وهذا ما يفسر مقاومة حزب النظام لعودة البوربون.

كان الأولياني والنائب كريتون قد تقدم بصورة دورية في سنوات ١٨٤٩ و ١٨٥٠ و ١٨٥١ باقتراح يدعوه للإلغاء مرسوم النفي الصادر بحق الأسر المالكة. وظهر البرلمان نفسه، بانتظام مماثل، بمظاهر جمعية من الملكيين توصد بعناد الأبواب التي يمكن أن يعود منها ملوكهم المنفيون إلى الوطن. أن ريتشارد الثالث قتل هنري السادس قائلًا أنه أطيب من أن يعيش في هذه الدنيا وأن مكانه الذي يستحقه هو السماء. والملكيون أعلنوا أن فرنسا أسوأ من أن تحصل على ملوكها المنفيين ثانية. فقد أرغمنتهم الظروف القاهرة على أن يصبحوا جمهوريين ويصادقوا تكراراً على القرار الشعبي الذي نفي ملوكهم من فرنسا.

أن إعادة النظر في الدستور - وكانت الظروف تجبر طرح هذه المسألة على بساط البحث - عرضت للخطر، إلى جانب الجمهورية، الحكم المشترك للكليتين البرجوازيتين وأحياناً، مع إمكانية قيام الحكم الملكي، تنافس المصالح التي كان يمثلها هذا الحكم بصورة غالبة بالتناوب، كما أحبت الصراع من أجل سيادة أحدي الكليتين على الأخرى. وأعتقد ديلوماسيو حزب النظام أنهم يستطيعون إطفاء الصراع يدمج الأسرتين، بما يسمى صهر الحزبين الملكيين وبيتهما المالكيين. أن الصهر الحقيقي لعهد العودة ولملوكية تموز (يوليو) كان الجمهورية البرلمانية التي محيت فيها الألوان الأوليانية والشرعية وانحلت فيها الألوان المختلفة من البرجوازية في البرجوازية بشكل عام، في البرجوازية - النوع. أما الآن فيجب على الأولياني أن يصبح شرعاً وشرعياً أوليانياً. وكان للملوكية التي كانت تجسيداً لعاداتهم أن تصبح تجسيداً لوحدتهم. وكان للتعبير عن مصالحهم التكتلية المتغيرة أن يصبح تعبيراً عن مصلحتهم الطبقية المشتركة، وكان على الملوكية أن تفعل ما لم يستطع فعله ولم يفعله غير إلغاء الملوكين، غير الجمهورية. لقد كان هذا حجر الفلسفة الذي صدَّع كيمائيو حزب النظام رؤوسهم في سبيل أنتاجه. فكانَ الملوكية الشرعية يمكن أن تغدو يوماً ملكية البرجوازيين الصناعيين أو كأن الملكية البرجوازية يمكن أن تغدو يوماً ملكية اريستقراطية الأرض الوراثية. وكان الملكية العقارية والصناعة يمكن أن تتعاشاً بسلام تحت تاج واحد، في حين لا يستطيع التاج أن يكلل إلا رأساً واحداً، رأس الأخ الأكبر أو الأصغر. وكان الصناعة على العموم يمكن أن تتفق مع الملكية العقارية ما دامت الملكية العقارية لا تقرر أن تصبح هي نفسها صناعية. فإذا مات هنري الخامس غالباً، فإن كونت باريس لا يغدو لهذا السبب ملك الشرعيين إلا إذا كف عن أن يكون ملك الأوليانيين. بيد أن فلاسفة الصهر الذين كان يزداد زعيقهم بمقدار ما كانت قضية إعادة النظر في الدستور تأتي إلى مركز الصدارة والذين هيأوا لأنفسهم من جريدة "Assemblée nationale" (52) صحيفة يومية تتطوّر باسمهم والذين يعكفون على العمل ثانية حتى في هذه اللحظة بالذات (شباط - فبراير - ١٨٥٢) رأوا أن الصعوبة كلها ناشئة عن الخصومة والتنافس بين الأسرتين المالكتين. أن المحاولات التوفيق بين أسرة أولييان وهنري الخامس، التي بدأت منذ وفاة لويس فيليب ولكن التي كانت لا تقوم، شأنها شأن كل المكائد المتصلة بالأسر المالكة عموماً، إلا في أثناء عطلة الجمعية الوطنية، فيما بين الفصول ووراء الكواليس، بوصفها مداعبة عاطفية للخرافة القديمة أكثر منها شغلاً بالمعنى الجدي، هذه المحاولات أصبحت الآن تمثيلية مهيبة يقوم بها حزب النظام على المسرح العام بدلاً من مسارح الهواة، كما كان الأمر حتى الآن. لقد تراكم الرسل بلا انقطاع من تاريخ إلى البندقية⁽⁵³⁾ ومن البندقية إلى كليرمونت ومن كليرمونت إلى باريس. ويصدر الكونت شامبور بياناً يعلن فيه، "بمعونة عموم أفراد عائلته" لا إعادة هو بل الإعادة "القومية". ويلقي الأولياني سالفاندي بنفسه عند أقدام هنري الخامس. ويسافر الرؤساء الشرعيون: بيربييه وبنوا داري وسان - بريست، إلى

(52) "L'Assemblée nationale" ("الجمعية الوطنية") - جريدة يومية فرنسية ذات اتجاه ملكي شرعى، صدرت في باريس من عام ١٨٤٨ على عام ١٨٥٧. - ص ١١١.

(53) كانت البندقية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر محل إقامة الطامح الشرعي بالعرش الفرنسي الكونت شامبور. - ص ١١١.

كليرمونت لكي يقنعوا الطقم الأولياني ولكن على غير طائل. أن أنصار الصهر يدركون بعد فوات الأوان أن مصالح الكتلتين البرجوازيتين لا تصبح أقل تناقضاً ولا تكسب ليونة عندما يجري التشديد عليها في شكل مصالح عائلية، مصالح بيتين مالكين. فإذا ما أُعترف هنري الخامس بكونت باريس خلفاً له - وهو النجاح الوحيد الذي يمكن أن يأمل أنصار الصهر فيه في أحسن الحالات - فإن آل أورليان لن يكتسبوا بذلك أي حقوق غير تلك التي أمنها لهم عق هنري الخامس بل أنهم سيغدون جميع الحقوق التي كسبوها بثورة تموز (يوليو). أنهم يكونون قد تخلوا عن ادعاءاتهم القديمة وجميع الحقوق التي انتزعاها من الفرع الأقدم للبوربون خلال مائة عام من الصراع تقريباً، أنهم يكتسبون قد تخلوا عن امتيازاتهم التاريخية، امتيازات الملكية الحديثة، لصالح الامتياز القائم على شجرة النسب. ولهذا لن يكون الصهر إلا تنازاً طوعياً من قبل آل أورليان، تنازاً عن حقوقهم في صالح الشرعية وانسحاباً نادماً من كنيسة الدولة البروتستانتية إلى الكنيسة الكاثوليكية، انسحاباً لن يأتي بهم، فضلاً عن هذا، حتى إلى العرش الذي فقدوه بل إلى درجة من سلم العرش الذي ولدوا عليه. أن الوزراء الأوليانيين القدماء غيزو ودوشاتل وغيرهما الذي سارعوا بالمثل إلى كليرمونت لكي يدعوا الصهر سلفاً لم يكونوا يمثلون في الواقع إلا شعور الضيق والكآبة بعد ثورة تموز، وخيبة آمالهم في ملكية برجوازية وبرجوازية ملκية، والاعتقاد الخرافي بالشرعية باعتبارها التعويذة الأخيرة ضد الفوضى. وهم أذ تصوروا أنفسهم وسطاء بين الأوليانيين والبوربون، كانوا في الواقع مجرد مرتدین أوليانيين وبهذه الصفة استقبلهم الأمير جوانفيلي. أما الفريق المحب لل伊拉克 والقابل للحياة من الأوليانيين، تيير وباز، الخ، من جهة أخرى، فقد أقنع أسرة لويس فيليب بسهولة أكثر بأنه إذا كانت أية إعادة مباشرة للملكية تفترض مقدماً صهر الأسرتين ولما كان أي صهر كهذا، على أية حال، يفترض مقدماً تخلي آل أورليان عن حقوقهم، فمما يتلقى تماماً مع تقاليد أجدادهم هو أن يعترفوا بالجمهورية مؤقتاً وينتظروا حتى تسمح الأحداث بتحويل كرسي الرئاسة إلى عرش. وقد راجت أولاً الشائعات عن ترشيح جوانفيلي لرئاسة الجمهورية وبات فضول الجماهير في حالة ترقب وفاق، بعد أشهر قليلة، في شهر أيلول (سبتمبر)، وبعد نبذ إعادة النظر في الدستور، أعلن ترشيحه بصورة علنية.

وهكذا فإن محاولة القيام بصهر ملكي للأوليانيين والشرعرين لم تمن بالفشل فحسب بل إنها دمرت صهرهم البرلماني، شكلهم الجمهوري المشترك، وجزأت حزب النظام الثانية إلى جزئيه الأصليين الذين كان يتألف منهما. بيد أنه كلما ازداد الجفاء بين كليرمونت والبنديقة وكلما أخفق التوفيق بينهما وأحرز تهبيج جوانفيلي نجاحاً، ازدادت المفاوضات بين فوشيه ووزير بونابرت والشرعرين حماسة وجدية.

إن انحلال حزب النظام لم ينحصر في تفككه إلى عنصريه الأصليين. فإن كلا من الكتلتين الكبيرتين قد تحالت بدورها من جديد. وبات الأمر كما لو أن جميع الفروق الطفيفة القديمة التي تصارعت وتزاحمت سابقاً في داخل كل من المعسكرين، سواء أكان شرعاً أم أورليانياً، قد ساحت ثانية كما تسريح النقاعيات الجافة لدى ملامستها الماء، كما لو أنها اكتسبت مجددًا طاقة حيوية لتشكيل جماعات خاصة ذات مصالح متناقضة مستقلة. وعاد الشرعين في أحالمهم إلى الماضي، إلى زمن المجادلات فيما بين قصر التويليري وجناح مارسان، وبين فيلي وبولينياك⁽⁵⁴⁾. وعاش الأوليانيون من جديد الأيام الذهبية لمواكبة المبارزة بين غيزو وموليه. وبروغلي وتير وأوديلون بارو.

إن ذلك الجزء من حزب النظام الذي كان حريصاً على إعادة النظر في الدستور، ولكنه كان منقسمًا أيضًا حول حدود إعادة النظر، وهو فريق مؤلف من الشرعين بقيادة برييه وقالوا من جهة وبقيادة لاروشجالكين من جهة أخرى، ومن

(54) المقصود هنا الخلافات التاكتيكية في معسكر الشرعين في عهد العودة. فإن لويس الثامن عشر وفيليب كانوا يقولان بتطبيق التدابير الرجعية. بمزيد من الحذر، بينما كان الكونت دارتوا (الملك شارل العاشر ابتداء من عام ١٨٢٤) وبولينياك يتجاهلان تماماً الوضع في فرنسا ويقولان ببعث أنظمة ما قبل الثورة كليًا. قصر التويليري في باريس، مقر لويس الثامن عشر. جناح مارسان، أحد أحجنحة القصر وكان مقر الكونت دارتوا في عهد العودة. – ص ١١٣.

الأورليانيين الذين أتعبهم الصراع بقيادة موليه وبروغلي ومونتالمير وأوديلون بارو، اتفق مع النواب البونابرتين على الاقتراح التالي الذي صيغ بعبارة واسعة غير محدودة:

"إن النواب الموقعين أدناه، بقصد أن تعدا إلى الأمة ممارسة سعادتها بصورة كاملة، يقترحون إعادة النظر في الدستور".

بيد أنهم صرحوا بالإجماع في الوقت نفسه، بلسان رواية إخبارهم توكيبل، بأن الجمعية الوطنية لم يكن يحق لها أن تقترح إلغاء الجمهورية - وأن هذا الحق كان منوطاً بمجلس ينعقد من أجل إعادة النظر في الدستور. وفضلاً عن ذلك صرحوا أنه لا يجوز إعادة النظر في الدستور إلا بصورة "قانونية"، أي إلا إذا كانت ثلاثة أرباع الأصوات التي نص عليها الدستور إلى جانب إعادة النظر. وفي اليوم التاسع عشر من تموز (يوليو)، وبعد ستة أيام من النقاش العاصل، نبذت إعادة النظر، كما كان متوقعاً. فقد اقرع إلى جانبها أربعين وستة وأربعون صوتاً بيد أن مائتين وثمانين وسبعين كانت ضدتها. وقد صوت الأورليانيون المنطرفون، تبير وشانغارنييه، إلخ، مع الجمهوريين و"الجبل".

وهكذا أعلنت أكثريات البرلمان وقوفها ضد الدستور، بيد أن هذا الدستور نفسه أعلن أنه يقف مع الأقلية وأن قرارها هو الملزم. ألم يقم حزب النظام بإخضاع الدستور للأكثريات البرلمانية في ٣١ أيار (مايو) سنة ١٨٥٠ وفي ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩ ألم تكن سياساته كلها تستند حتى الآن إلى إخضاع مواد الدستور لقرارات الأكثريات البرلمانية؟ ألم يترك للديموقراطيين الاعتقاد الخافي الذي أكل عليه الدهر وشرب بحرافية القانون ويقاوم الديموقراطيين بسببه؟ بيد أن إعادة النظر في الدستور لم تكن تعني في اللحظة الراهنة سوى إطالة مدة سلطة الرئيس، بينما كان تمديد مفعول الدستور لا يعني سوى الإطاحة ببونابرت. أن البرلمان أعلن وقوفه إلى جانب بونابرت ولكن الدستور أعلن وقوفه ضد البرلمان. ولذلك كان بونابرت يعمل بروح البرلمان عندما مرق الدستور وكان يعمل بروح الدستور عندما صرف البرلمان.

إن البرلمان أعلن الدستور وأعلن مع الدستور حكمه هو "خارج الأكثريات"؛ وبالقرار الذي اتخذه هو، ألغى الدستور ومد في أجل سلطان الرئيس كما أعلن في الوقت ذاته أنه لا يمكن للدستور أن يموت ولا لسلطان الرئيس أن يعيش ما دام البرلمان نفسه على قيد الحياة. وأولئك الذين سيدفونه كانوا يقفون بالباب. وبينما كان البرلمان يناقش إعادة النظر، عمد بونابرت إلى إقصاء الجنرال باراغه ديليه الذي أثبت قلة الحزم، عن قيادة الفرقة الأولى للجيش وعين بدلاً منه الجنرال مانيان، صاحب النصر في ليون وبطل أيام كانون الأول، وهو أحد صنائعه وكان من قبل، زمن لويس فيليب، قد أساء إلى سمعته إلى هذا الحد أو ذاك بوصفه من أنصار بونابرت لمناسبة الحملة على بولون.

لقد أثبتت حزب النظام بالقرار الذي اتخذه بشأن إعادة النظر في الدستور أنه ليس قادراً لا على أن يحكم ولا على أن يخدم، لا على أن يعيش ولا على أن يموت، لا على أن يتحمل الجمهورية ولا على أن يقبلها، لا على أن يدعم الدستور ولا على أن يطرحه، لا على أن يتعاون مع الرئيس ولا على أن ينابذه. فإلى من يتطلع، إذن، لحل جميع التناقضات؟ إلى التقويم الزمني، إلى مجرى الأحداث. لقد كف عن الادعاء بأنه يتحكم بالأحداث، ولذلك استسلم لسلطان الأحداث، أي لسلطان تلك القوة التي تتازل لها عن صلاحية تأثير من صلاحيات السلطة في نضاله ضد الشعب حتى وقف هو نفسه عاجزاً إزاء هذه القوة. ولكي يمكن رئيس السلطة التنفيذية من أن يضع خطة الحملة ضده دونما إزعاج ويعزز وسائل الهجوم ويختار أدواته ويحسن موقعه، فرر في هذه اللحظة الحرجة بالذات أن يعتزل المسرح وأن يرفض ثلاثة أشهر، من ١٠ آب لغاية ٤ تشرين الثاني.

إن الحزب البرلماني لم ينحل إلى كتلته الكبیرتين فحسب ولم تقسم كل واحدة من هاتين الكتلتين من الداخل فحسب بل أن الخلاف قد دب بين حزب النظام في البرلمان وحزب النظام خارج البرلمان. فإن خطباء البرجوازية وكتابها، منابرها وصحفها، وبكلمة مختصرة، أيديولوجياً البرجوازية والبرجوازية ذاتها، الممثليين والممثليين، واجهوا بعضهم البعض بالجفاء ولم يعد يفهم واحدهم الآخر.

إن الشرعيين في الأقاليم، بما كانوا عليه من أفق محدود وحماسة غير محدودة، اتهموا زعيميهما البرلمانين، بيربيه وفالو، بالتخلي عنهم والانضمام إلى المعسكر البونابرتى وبالارتداد عن هنرى الخامس. أن عقولهم الزنبقية (نسبة إلى زهرة الزنبق: *fleur-de-lis*، شعار ملكية آل بوربون الشرعي. الناشر) كانت تؤمن بخطيئة آدم لا بالديبلوماسية.

لقد أثبت أن ما كان أكثر شوئاً من هذا بكثير وأكثر حسماً فهو قطيعة البرجوازية التجارية مع ساستها. لقد وبختهم، لأنخليهم عن مبادئهم، كما فعل الشرعيون مع ساستهم بل بالعكس لتشبيهم بمبادئ أصبحت عديمة الجدوى.

لقد أشرت من قبل إلى أن ذلك الفريق من البرجوازية التجارية الذي كانت له حصة الأسد من السلطة في زمن لويس فيليب، أي أريستقراطية المال، قد غدا منذ دخول فولد الوزارة بونابرتياً. أن فولد لم يكن يزود عن مصالح بونابرت في البورصة فحسب بل كان يدافع في الوقت نفسه عن مصالح البورصة أمام بونابرت. ونحن نجد موقف أريستقراطية المال مصوراً بأجل بياني في فقرة وردت في لسان حالها الأوروبي، صحفة "Economist" (55) اللندنية. وفي عددها الصادر في ١ شباط ١٨٥١ كتب مراسلها في باريس يقول:

"تفيد الأنباء الواردة من جميع الجهات أن فرنسا تطالب بالسكنية قبل كل شيء. الرئيس يعلنها في رسالته إلى الجمعية التشريعية، وصداها يتعدد من على المنابر الوطنية، وهي تؤكد في الصحف وتذاع من كراسى الوعظ في الكنائس، وتثبتها حساسية السندات الحكومية حيال أقل بادرة من بوادر الاضطراب وثباتها في اللحظة التي يتضح فيها أن السلطة التنفيذية هي المنتصرة".

وتعلن "Economist" في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٨٥١ باسمها الخاص:

"إن الرئيس هو حامي النظام. وبهذه الصفة تعرف به الآن جميع بورصات أوروبا".

ولهذا استذكرت أريستقراطية المال الصراع البرلماني لحزب النظام مع السلطة التنفيذية بوصفه إخلالاً بالنظام ورحبـت بكل نصر أحـزـهـ الرـئـيـسـ عـلـىـ مـمـثـيـهاـ هـيـ بـالـذـاتـ،ـ كـمـاـ يـبـدـوـ،ـ باـعـتـبارـهـ نـصـرـاـ لـلـنـظـامـ.ـ وـلـاـ يـجـوزـ أـنـ نـفـهـمـ هـنـاـ مـنـ عـبـارـةـ "أـريـسـتقـراـطـيـةـ الـمـالـ"ـ مجـرـدـ كـبـارـ مـتـعـهـدـيـ تقـيـمـ الـقـرـوـضـ وـالـمـضـارـبـيـنـ فـيـ سـنـدـاتـ الـحـكـوـمـيـةـ،ـ الـذـيـنـ تـنـقـقـ مـصـالـحـهـمـ تـامـ الـاـتـفـاقـ معـ مـصـالـحـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ لـأـسـبـابـ وـاضـحةـ تـامـاـ.ـ إـنـ عـالـمـ الـمـالـ الـحـدـيـثـ كـلـهـ،ـ أـشـغـالـ الـبـنـوـكـ بـأـسـرـهـ،ـ مـتـشـابـكـةـ أـوـثـقـ التـشـابـكـ مـعـ قـرـوـضـ الـدـوـلـةـ.ـ أـنـ شـطـرـاـ مـنـ رـسـامـيلـ الـبـنـوـكـ هـوـ بـالـضـرـورـةـ مـسـتـثـمـرـ وـمـشـغـلـ بـالـرـبـاـ فـيـ سـنـدـاتـ حـكـوـمـيـةـ قـابـلـةـ لـلـتـصـرـيفـ بـسـرـعـةـ كـمـاـ أـنـ الـوـدـائـ الـبـنـكـيـةـ وـرـأـسـ الـمـالـ الـمـوـضـوـعـ تـحـتـ تـصـرـفـ الـبـنـوـكـ الـتـيـ تـوزـعـهـاـ بـيـنـ الـتـجـارـ وـرـجـالـ الـصـنـاعـةـ مـسـتـمـدـةـ جـزـئـيـاـ مـنـ أـرـبـاحـ حـامـلـيـ الـسـنـدـاتـ الـحـكـوـمـيـةـ.ـ وـإـذـ كـانـ اـسـتـقـارـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ قـدـ عـنـيـ فـيـ جـمـيعـ الـأـزـمـنـةـ قـدـسـ الـأـقـدـاسـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ السـوقـ

(55) "The Economist" ("الاقتصاد") مجلة أسبوعية إنجليزية في قضايا الاقتصاد والسياسة؛ تصدر في لندن ابتداء من عام ١٨٤٣. لسان حال البرجوازية الصناعية الكبيرة. - ص ١١٧.

المالية بأسرها وبالنسبة إلى كهان هذه السوق المالية فلماذا لا يكون الأمر كذلك من بابا أولى اليوم عندما يهدد كل طوفان بكنس الدول القديمة وكنس ديون الدول القديمة معها؟

كذلك البرجوازية الصناعية في تعصبها الأعمى للنظام أعضبتها مناقرات حزب النظام البرلماني مع السلطة التنفيذية. وقد تلقى تيير وأنجلاس وسان-بيف وغيرهم، بعد تصويتهم في ١٨ كانون الثاني بمناسبة عزل شانغارنيري، توبيخات علنية من منتخبهم، من المناطق الصناعية بالذات، عنفوا فيها بشدة لانتلافهم مع "الجبل" بوجه خاص باعتباره خيانة عظمى للنظام. وإذا كانت القرىعات المتوجحة والمكائد التافهة التي انحصر فيها صراع حزب النظام ضد الرئيس لا تستحق، كما رأينا، استقبالاً أفضل مما استقبلت به فإن هذا الجزء من البرجوازية الذي طلب ممثليه بأخذ القوة العسكرية من برلمانه وإعطائهم بلا قيد ولا شرط إلى مدع مغامر، كان لا يساوي، من ناحية أخرى، حتى هذه المكائد التي يعزف عن أجل مصالحه. ولقد أثبت أن الصراع من أجل مصالحه العامة ومصالحه الطبقية الخاصة وسلطته السياسية لم يكن من شأنه إلا أن يزعجه ويتعبه لأنه كان عائقاً لأعماله الخصوصية.

إن أعيان البرجوازية في مدن المقاطعات ومستشاري البلديات وأعضاء المحاكم التجارية، إلخ، قد استقبلوا بونابرت في كل مكان تقريباً أشاء رحلاته بمتنهي الخنوع وحتى في ديجون حيث شن هجوماً غير متحفظ على الجمعية الوطنية وخصوصاً على حزب النظام.

عندما كانت التجارة رائجة، كما كانت ما تزال عليه في أول عام ١٨٥١، ثارت البرجوازية التجارية ضد أي صراع برلماني لثلا يعتكر مزاج التجارة. وعندما كانت التجارة بائرة، كما كانت باستمرار منذ نهاية شباط ١٨٥١، اتهمت البرجوازية التجارية الصراعات البرلمانية بأنها سبب الركود وطلبت بالكف عن هذا الصراع قصد تشجيع التجارة. وقد جرت مناقشات إعادة النظر في الدستور في هذه الفترة السيئة بالضبط. ولما كانت القضية هنا هي فيما إذا كان الشكل القائم للدولة سيكون أو لن يكون فقد شعرت البرجوازية بأن لها ملء الحق في أن تطالب ممثليها بإنهاء هذه الحالة الانتقالية المعيبة وبالمحافظة في الوقت نفسه على الوضع القائم. ولم يكن في هذا أي تناقض. فقد كانت تفهم بنهاية الحالة الانتقالية إطالتها بالضبط وتتأجيل البت في الأمور إلى المستقبل البعيد. ولم يكن في الوضع المحافظة على الوضع القائم إلا بطريقتين: بتمديد سلطة بونابرت أو باعتزاله اعتراضاً دستورياً وانتخاباً كافينياً. وكان قسم البرجوازية يميل إلى الحل الأخير ولكنه لم يكن يعرف نصيحة يسديها إلى ممثليه أفضل من أن يتزموا الصمت ويتركوا القضية الملحة دون مساس. وكان يرى أنه إذا لم يتكلم ممثوه فإن بونابرت لن يعمل. كان يريد برلماناً نعامة يخفي رأسه حتى لا يراه أحد. وكان قسم آخر من البرجوازية يرغب في أن يدع بونابرت جالساً على كرسي الرئاسة، ما دام كان يجلس عليه بالفعل، حتى يبقى كل شيء في مجرى القديم. وقد سخط لأن برلمانه لا يريد أن يخرق الدستور صراحة ويتخلّى عن سلطته دون شكليات.

إن المجالس العمومية في المقاطعات، تلك الهيئات التمثيلية الإقليمية للبرجوازية الكبيرة، التي انعقدت منذ ٢٥ آب (أغسطس) فصاعداً خلال عطلة الجمعية الوطنية، أعلنت بالإجماع تقريباً أنها مع إعادة النظر ووقفت بذلك ضد البرلمان وإلى جانب بونابرت.

وقد أظهرت البرجوازية سخطها على ممثليها الأ卑ين، على صحفتها هي على نحو أقل ليسا حتى من قطيعتها مع ممثليها البرلمانيين. فإن الأحكام التي أصدرتها المحاكم البرجوازية بالغرامات النقية الباهضة وبعقوبات السجن العديدة الحياء

لكل هجوم يقوم به الصحفيون البرجوازيون على شهوات بونابرت الاغتصابية وكل محاولة تقوم بها الصحافة للدفاع عن حقوقهم البرجوازية السياسية ضد نطاولاً السلطة التنفيذية لم تدهش فرنسا وحدها بل أدهشت أوروبا بأسرها.

وإذا كان حزب النظام البرلماني، بصراحة من أجل ضرورة السكينة، كما بينت سابقاً، قد حكم على نفسه بالهمود وإذا كان يعلن أن حكم البرجوازية السياسي لا يتفق مع أمن البرجوازية وبقائها، بتدميره بيديه جميع شروط حكمه هو، أي الحكم البرلماني، في الصراع ضد طبقات المجتمع الأخرى، فقد كانت جمهورة البرجوازية خارج البرلمان، من جهة أخرى، يخنوعها تجاه الرئيس ويعييها في البرلمان وبسوء معاملتها الوحشية لصحفاتها ذاتها، تحفز بونابرت لإخماد وإيادة الجزء الناطق والكاتب منها، سبابيها وأدبياتها، منبرها وصحفتها حتى يتسمى لها حينئذ متابعة سؤونها الخاصة في نفقة تامة بحماية حكومة قوية غير مقيدة. لقد أعلنت بغير التباس أنها كانت تحن إلى التخلص من حكمها السياسي الخاص لكي تتخلص من هموم الحكم ومخاطرها.

وهذه البرجوازية خارج البرلمان، التي ثارت من قبل على الصراع البرلماني والأدبي الصرف من أجل حكم طبقتها هي والتي خانت زعماء هذا الصراع، تجروا الآن، بعد حدوث ما حدث، على اتهام البروليتاريا بأنها لم تنهض من أجلها إلى كفاح دام، كفاح حياة أو موت! وهذه البرجوازية التي كانت تصحي في كل لحظة بالمصالح العامة لطبقتها، أي بمصالحها السياسية في سبيل أضيق المصالح الخاصة وأخسها وكانت تطالب ممثليها بتضحيه مماثلة، تتوح الآن زاعمة أن البروليتاريا قد ضحت بمصالحها السياسية المثلالية (أي مصالح البرجوازية) في سبيل مصالحها المادية (أي مصالح البروليتاريا)، أنها تصرف لأنها كانت جميل أساعت البروليتاريا التي ضللها الاشتراكيون فهمه وخذلتة في الساعة الحاسمة. وتجد صرخاتها صدى في العالم البرجوازي كله. وأنا لا أتحدث هنا بطبيعة الحال عن الساسة الألمان التافهين والجهلة. أني أقصد، على سبيل المثال، مجلة "Economist"، نفسها التي أعلنت، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١، أي قبل الانقلاب بأربعة أيام، بونابرت "حامياً للنظام" وتثير وبيريه وإضرابهما "الفوضويين"، والتي تصبح في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١، أي بعد أن أخمد بونابرت هؤلاء "الوضويين"، بشأن الخيانة التي ارتكبها "جماهير البروليتاريين الجهلة غير المذهبين البداء" بحق "مواهب فنات المجتمع الوسطى والعليا وعلمها وانضباطها وتأثيرها العقلي ومواردها الفكرية وزونها الأدبي". ولكن الجمهور البليد الجاهل المبتذر لم يكن سوى الجمهور البرجوازي ذاته.

صحيح أن فرنسا مرت في عام ١٨٥١ بنوع من أزمة تجارية صغيرة. فقد أشارت نهاية شهر شباط (فبراير) إلى هبوط في الصادرات بالمقارنة مع عام ١٨٥٠، وفي شهر آذار (مارس) ساعدت حال التجارة وأخذت المصانع تطلق أبوابها، وفي شهر نيسان (إبريل) كان وضع المقاطعات الصناعية يبدو في حالة من اليأس تماثل تلك التي سادت بعد أيام شباط، وفي شهر أيار لم تكن الحال قد تحسنت بعد، وقد دلت مقتنيات بنك فرنسا حتى في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو)، وذلك استناداً إلى الزيادة الضخمة في الودائع والنقصان الكبير المماطل في التسليف على الحالات المالية، على أن الإنتاج كان في حالة ركود؛ ولم يطرأ تحسن تدريجي على الأشغال التجارية إلا في منتصف تشرين الأول (أكتوبر). وقد عزت البرجوازية الفرنسية هذا الركود التجاري إلى أسباب سياسية بحثة، وإلى الصراع بين البرلمان والسلطة التنفيذية، وإلى عدم رسوخ الشكل المؤقت للحكم، وعلى المنظر المفزع ليوم الأحد الثاني من شهر أيار (مايو) ١٨٥٢. ولست أنكر أن هذه الظروف جميعاً كان لها أثراً في التدهور الذي طرأ على بعض فروع الصناعة في باريس والمقاطعات. بيد أن هذا التأثير للظروف السياسية كان على أية حال تأثيراً محلياً وزهيداً فحسب. وهذا ما تبررهن بأفضل نحو الحقيقة التي تشير إلى أن تحسن التجارة قد بدأ في أواسط تشرين الأول بالضبط في اللحظة عينها التي ساعدت فيها الحالة السياسية واكتفه الأفق السياسي وكان نزول صاعقة من قصر الإليزيه متوقعاً في أية لحظة. ثم أن البرجوازي الفرنسي الذي لم تكن "مواهبه وعلمه وبصيرته الروحية وموارده العقلية"

تصل إلى أبعد من أنفه، كان في وسعه طيلة فترة انعقاد المعرض الصناعي في لندن⁽⁵⁶⁾ أن يجد سبب بؤسه التجاري تحت أنفه تماماً. وبينما كانت المصانع في فرنسا تنقل أبوابها، كانت الإفلاتات التجارية تتفشى في إنجلترا، وبينما بلغ الذعر الصناعي، أوجه في فرنسا في نيسان وأيار، بلغ الذعر التجاري في نيسان وأيار أوجه في إنجلترا. وكما قاست صناعة الصوف الفرنسي، كذلك قاست صناعة الصوف الإنجليزية، وكما قاست صناعة الحرير الفرنسي كذلك قاست صناعة الحرير الإنجليزية. صحيح أن معامل القطن الإنجليزية واصلت أعمالها ولكنها لم تعد تجني نفس الأرباح التي جنتها في سنتي ١٨٤٩ و ١٨٥٠. الفرق الوحيد هو أن الأزمة في فرنسا كانت صناعية وفي إنجلترا تجارية. وأنه بينما تعطلت المعامل في فرنسا، وسعت أعمالها في إنجلترا ولكن في ظروف أقل مؤانة من ظروف السنوات السابقة؛ أن الصادرات هي التي تألفت الضربة الرئيسية في فرنسا وفي إنجلترا الواردات. أما السبب المشترك، الذي لا يجوز أن تبحث عنه بطبيعة الحال ضمن حدود الأفق السياسي الفرنسي، فقد كان واضحًا. أن سنتي ١٨٤٩ و ١٨٥٠ كانتا سنتين من أعظم سنوات الرخاء المادي وفيض الإنتاج الذي لم تظهر نتائجه إلا في ١٨٥١. ففي بداية هذه السنة، اشتد فيض الإنتاج بوجه خاص بسبب من انعقاد المعرض الصناعي في المستقبل. وهناك فضلاً عن ذلك الظروف الخاصة التالية: أولاً فلة محصول القطن في ١٨٥٠ و ١٨٥١، وبعدئذ الثقة والأمل في محصول قطن أكبر مما كان متوقعاً، أولاً ارتفاع أسعار القطن ثم هبوطها المفاجئ، وبالاختصار التقليبات في أسعار القطن. إن محصول الحرير الخام، في فرنسا على الأقل، كان حتى أقل من المعدل. وأخيراً اتسعت صناعة الصوف لدرجة كبيرة منذ عام ١٨٤٨ حتى لم يعد في وسع إنتاج الصوف أن يجاريها فارتفعت أسعار الصوف الخام بحيث انعدم كل تناسب بينها وبين أسعار المصنوعات الصوفية. هنا إذن، في حالة المادة الخام لثلاثة فروع صناعية عالمية، توفرت لدينا قاعدة مثابة للركود التجاري. وفضلاً عن هذه الظروف الخاصة لم تكن الأزمة الظاهرة لعام ١٨٥١ إلا الوقفة التي تحدث على الدوام في حالة فيض الإنتاج والبالغة في المضاربة في سياق الدورة الصناعية قبل أن يستجعوا كل قوتهم لكي يقطعوا بشكل محموم المرحلة الأخيرة لهذه الدورة ويصلوا مرة أخرى إلى نقطة بدئها، الأزمة التجارية العامة. وفي مثل هذه الفترات في تاريخ التجارة، تتفشى الإفلاتات التجارية في بريطانيا في حين تتعطل الصناعة نفسها في فرنسا، إذ تكون بت نوع ما مرغمة على التقهقر أمام مزاحمة الإنجليز في جميع الأسواق. تلك المزاحمة التي لا تستطيع أن تصد لها في هذه الحال، وتكون بت نوع آخر شديدة الحساسية بكل ركود في الأعمال بوصفها صناعة كماليات. وهكذا تجتاز فرنسا، فضلاً عن الأزمات العامة، أزمات تجارية وطنية خاصة بها يحددها ويشترطها برغم ذلك الوضع العام للسوق العالمية أكثر بكثير من المؤشرات المحلية الفرنسية. ولا يخلو الأمر من متعة إذا قارنا بين رأي البرجوازي الإنجليزي وبين وهم البرجوازي الفرنسي. كتب واحد من أكبر البيوتات التجارية في ليفربول في تقريره التجاري السنوي لعام ١٨٥١ يقول:

"سنوات نادرة كذبت التوقعات التي تكونت عند بدايتها على نحو أتم مما فعلت السنة التي انقضت الآن. فبدلاً من الأزدھار العظيم الذي كان يتطلع إليه الجميع أثبتت أنها واحدة من أكثر السنتين التي رأيناها في ربع القرن الأخير تثبيطاً للعزائم – وهذا يتعلق، بطبيعة الحال، بالطبقات التجارية لا الصناعية. ومع ذلك كانت هنالك بالتأكيد دواع كافية لتوقع العكس في بداية السنة – مخزون البضائع كان قليلاً والرساميل كانت وفيرة والطعام كان رخيصاً وكان يبدو أن المحصول الغني مضمون؛ سلام غير منقطع على القارة ولا صعوبات سياسية أو مالية في الوطن، وبالفعل، كان في وسع التجارة، على ما يبدو، أن تطلق أحجتها أوسع مما في أي يوم مضى... فلأي شيء إذن يمكن أن تعزى هذه النتيجة المشؤومة؟ نحن نعتقد – إلى تضخم التجارة بصورة فائقة العادة سواء في الواردات أو في الصادرات. وإذا لم يضع تجارنا بأنفسهم حدوداً أضيق لنشاطهم، فلن يحفظ توازننا غير فزع يتجدد كل ثلاثة سنوات."

(56) المعرض الصناعي بلندن – أول معرض صناعي تجاري عالمي. أقيم في أيار – تشرين الأول (مايو – أكتوبر) ١٨٥١ – ١٢٣.

والآن لنتصور البرجوازي الفرنسي كيف يتذمّر ذهنه المخبوط بالتجارة في غمرة هذا الذعر التجاري ويدور في دوامة وينذهل من شائعات الانقلاب وإعادة حق الاقتراع الشامل، من الصراع بين البرلمان والسلطة التنفيذية، من مخاصمات الفروند فيما بين الأورليانيين والشريعين، من المؤامرات الشيوعية في جنون فرنسا، من انتفاضات الفلاحين المزعومة في مقاطعتي نيفر وشير، من إعلانات مختلف المرشحين للرئاسة، من الشعارات الكثيرة الوعود في الصحف، من تهديدات الجمهوريين بالدفاع عن الدستور وحق الاقتراع الشامل بقوة السلاح، من الرسائل الانجليزية من المهاجرين الأبطال *in partibus* التي تبشر بإنتهاء العالم يوم الأحد الثاني من أيار (مايو) ١٨٥٢ – لتأمل كل ذلك، نفهم لماذا كانت البرجوازية، في هذه الفوضى التي لا توصف والتي تضم الأذان بما فيها من صهر وإعادة نظر وتمديد دستور وتأمر وأئتلاف وهجرة وأغتصاب وثورة، ترغى وتزبد مبهورة الأنفاس، وتزرع في جمهوريتها البرلمانية: "النهاية برب و لا رعب بلا نهاية!".

وقد فهم بونابرت هذه الصرخة. أن قدرته على الإدراك قد أرهقتها الجلبة المتزايدة للدائنين الذي كانوا يعتقدون أنه مع كل مغيب للشمس يقرب آخر يوم الرئاسة، الأحد الثاني من أيار ١٨٥٢، تعلن حركة النجوم رفض دفع كمبالياتهم الأرضية. لقد أصبحوا منجمين حقيقيين. أن الجمعية الوطنية بددت آمال بونابرت في تمديد سلطته تمديداً دستورياً، ولم يعد ترشيح الأمير جوانفيلي يسمح بأي تأرجح.

لو أن حادثاً ألقى يوم بظلاله أمامه قبل مجئه بمدة طويلة لكان هذا انقلاب بونابرت. ففي اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٩، ولما يكاد ينقضي على انتخابه شهر، قدم اقتراحًا بهذا المعنى إلى شانغارنييه. وفي صيف عام ١٨٤٩ تحدث رئيس وزرائه ذاته، أوديلون، سراعن سياسية الانقلاب، وفي شتاء عام ١٨٥٠ فعل تبيراً ذلك علناً. وفي أيار ١٨٥١ سعي برسنييه مرة أخرى لكسب شانغارنييه إلى جانب الانقلاب وقد نشرت^(٥٧) "Messenger de l'Assemblée" وصفاً لهذه المفاوضات. وفي أثناء كل عاصفة برلمانية كانت الصحف البونابيرية تهدد الانقلاب وكلما كانت الأزمة تقترب كانت نبرتها ترتفع. وفي مجالس القصف والسكر التي كان بونابرت يعقدها ليلاً مع رجال ونساء من طعام الناس وحالما كانت ساعة منتصف الليل تقترب والجرعات الكبار تطلق الألسنة وتذهب الخيال كان الصباح التالي يحدد موعداً للانقلاب. كانت السيوف تسل والكؤوس تقرع والنواب يلقى بهم من النافذة والعبارة الإمبراطورية تسقط على كتفي بونابرت إلى أن يلاشي الصباح التالي الأشباح مرة أخرى ويعلم باريس المندهشة من كاهنات فستا (فستا: إله المراقد، ونيران الديباج عند الرومان القدماء. كاهنات فستا كناية عن النساء العفيفات. في حالة خرق بكارهن يدفعونهن حيات في الأرض. الناشر). القليلات الکتمان ومن الفرسان الطائشين بالخطر الذي نجح منه مرة أخرى. في خلال شهر أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر) كانت شائعات Coup d'état تتواتي بسرعة الواحدة في أثر الأخرى. وكان الظل يكتسب لوناً مثل الداجوروتيب (صورة فوتografie مطبوعة على لوحدة معدنية معالجة على نحو خاص. الناشر). المرقش. حسبنا أن نتصفح أعداد شهر أيلول وتشرين الأول من الجرائد الأوروپية لنجد فيها كلمة فكلمة أخباراً كما يلي: "شائعات انقلاب تملأ باريس. يقولون أن العاصمة ستحتل بالجند أثناء الليل، وسيجلب الصباح التالي مراسيم بحل الجمعية الوطنية وبإعلان حالة الحصار في مقاطعة السين وإعادة حق الاقتراع الشامل والرجوع إلى الشعب. يقال أن بونابرت يبحث عن وزراء لتنفيذ هذه المراسيم غير القانونية". وكانت الرسائل التي تأتي بهذه الأنباء تنتهي دائمًا بكلمة المشؤومة: "يؤجل". أن الانقلاب كان دائمًا الفكر الراسخ لدى بونابرت. بهذه الفكرة وطئت قدماء ثانية الأرض الفرنسية. وقد كانت تلح عليه وتلتحقه بحيث كان يفسيها بصورة متواصلة ويفقق بها. وكان من الضعف بحيث كان يقلع عنها بنفسه بصورة المتواصلة. أن ظل الانقلاب قد أصبح مألوفاً للباريسين كشبح حتى أنهم لم يكونوا على استعداد للتصديق به عندما مثل أمامهم أخيراً باللحم والدم. وعلى هذا فلا الکتمان المتحفظ لرئيس جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر) ولا أخذ الجمعية الوطنية

(٥٧) "Le Messager de l'Assimblée" - له ميساجه دي لاسامبله - (" بشير الجمعية") جريدة يومية فرنسية ذات اتجاه معاد لبونابرت. صدرت في باريس من ١٦ شباط (فبراير) إلى ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥١. - ص ١٢٧.

على حين غفلة هما السبب الذي أتاح للانقلاب أن ينجح. ولئن نجح فهو قد نجح بالرغم من هذر بونابرت ومع علم الجمعية الوطنية التام السابق بالانقلاب، وكان نتيجة ضرورية وحتمية للتطورات السابقة.

في اليوم العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) أعلن بونابرت لوزرائه قراره بإعادة حق الاقتراع الشامل، وفي اليوم السادس عشر قدموا استقالتهم، وفي اليوم السادس والعشرين علمت باريس بتشكيل وزارة توريني. وفي الوقت ذاته نحي مدير الشرطة كارلبيه وأستبدل به موبا، بينما قام رئيس الفرقـة العسكرية الأولى مانيان بتركيز أكثر الفصائل أهلاً للثقة في العاصمة. وفي الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) استأنفت الجمعية الوطنية جلساتها. ولم يكن لديها ما تفعله أفضل من أن تجمل في صيغة وجيزة مقتضبة الطريق الذي سلكته وأن تثبت إنها لم تدفن إلا بعد أن ماتت.

وكان أول مركز خسرته في الصراع مع السلطة التنفيذية هو الوزارة. وكان عليها أن تأخذ بوقار علمًا وخبرًا بهذه الخسارة وذلك باعترافها التام بوزارة توريني الزائفة تماماً. واستقبلت اللجنة الدائمة المسيو جيرو بالضحك عندما قدم نفسه باسم الوزارة الجديدة. مثل هذه الوزارة الضعيفة لمثل هذه الإجراء القوى لإعادة حق الاقتراع الشامل! ومع ذلك كان الهدف بالضبط عدم أجازة شيء بواسطـة البرلمان بل أجازة كل شيء ضدـ البرلمان.

وفي اليوم الأول بالذات لإعادة افتتاح الجمعية الوطنية تاقت الجمعية من بونابرت الرسالة التي طلب فيها إعادة حق الاقتراع الشامل وإلغاء قانون ٣١ أيار ١٨٥٠. وفي اليوم نفسه قدم وزراوه مرسوماً بهذا الشأن. وقد رفضت الجمعية الوطنية على الفور اقتراح استعمال المرسوم الذي قدمه الوزراء ورفضت القانون نفسه في ١٣ تشرين الثاني بثلاثمائة وخمسة وخمسين صوتاً مقابل ثلاثة وثمانية وأربعين. وهكذا مزقت تقويضـها مرة أخرى وأثبتـت مرة أخرى أنها قد حولـت نفسها من ممثـلة الشعب منتخبـة انتخـاباً حـراً إلىـ البرلمان غـاصـبـ لـطبـقةـ وـاحـدةـ، لـقدـ اـعـرـفـتـ مـرـةـ أـخـرىـ بـأـنـهـاـ قـطـعـتـ بـنـفـسـهـاـ العـضـلـاتـ الـتـيـ تـصـلـ الرـأـسـ الـبرـلـمـانـيـ بـجـسـمـ الـأـمـةـ.

وإذا كانت السلطة التنفيذية باقتراحـها إعادة حق الاقتراع الشامل قد استأنفتـ الأمر من الجمعية الوطنية إلىـ الشعبـ، فإنـ السلطة التشريعـيةـ بـمشروعـ قـانـونـ الكـويـستـورـ قدـ استـأنـفتـ الأـمـرـ منـ الشـعـبـ إـلـىـ الـجـيـشـ. وقدـ قـصـدتـ الجـمـعـيـةـ الـوطـنـيـةـ منـ مـشـروـعـ قـانـونـ هـذـاـ أـنـ تـثـبـتـ حـقـهـاـ فـيـ اـسـتـدـعـاءـ الـجـنـودـ مـباـشـرـةـ وـتـشـكـيلـ جـيـشـ برـلـمـانـيـ. وإذاـ عـيـنـتـ الجـمـعـيـةـ الـوطـنـيـةـ الـجـيـشـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ حـكـمـاـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ الشـعـبـ، وـبـيـنـ بـوـنـابـرـتـ، وـإـذـاـ اـعـرـفـتـ بـالـجـيـشـ بـوـصـفـةـ الـقـوـةـ الـحـاسـمـةـ فـيـ الدـوـلـةـ فـقـدـ كـانـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ حـكـمـاـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ الشـعـبـ، وـبـيـنـ بـوـنـابـرـتـ، وـإـذـاـ اـعـرـفـتـ بـالـجـيـشـ بـوـصـفـةـ الـقـوـةـ الـحـاسـمـةـ فـيـ الدـوـلـةـ فـقـدـ كـانـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ حـكـمـاـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ الشـعـبـ، وـبـيـنـ بـوـنـابـرـتـ، وـإـذـاـ هـيـ نـاقـشـتـ حـقـهـاـ فـيـ تـؤـكـدـ. منـ الجـهـةـ الـأـخـرىـ، أـنـهـاـ قـدـ تـخلـتـ مـنـ زـمـنـ طـوـيلـ عـنـ إـدـعـائـهـ بـالـسـيـطـرـةـ عـلـىـ هـذـهـ الـقـوـةـ. وـإـذـاـ هـيـ رـفـضـتـ حـقـهـاـ فـيـ اـسـتـدـعـاءـ الـجـنـودـ بدـلـاـ مـنـ أـنـ تـسـتـدـعـهـمـ عـلـىـ الـفـورـ، فـضـحتـ الشـكـوـ الـتـيـ كـانـ تـساـوـرـهـاـ بـشـأـنـ قـوـنـتهاـ بـالـذـاتـ. وـإـذـاـ هـيـ رـفـضـتـ مـشـروـعـ قـانـونـ الكـويـستـورـ، اـعـرـفـتـ عـلـىـ الـمـلـأـ بـعـجزـهـاـ. أـنـ مـشـروـعـ قـانـونـ هـذـاـ قـدـ هـزـ لـأـنـهـ نـالـ أـقـلـيـةـ مـنـ مـائـةـ وـثـمـانـيـةـ أـصـواتـ. وـهـكـذاـ فـصـلـ "ـالـجـبـلـ"ـ فـيـ الـأـمـرـ. لـقـدـ وـجـدـ "ـالـجـبـلـ"ـ نـفـسـهـ فـيـ مـوـقـفـ حـمـارـ بـورـيـدانـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـكـنـ بـيـنـ حـزـمـتـيـنـ مـنـ الـقـشـ كـانـ عـلـىـ هـذـاـ فـصـلـ "ـالـجـبـلـ"ـ فـيـ الـأـمـرـ. أـنـ يـقـرـرـ الـأـظـرـفـ مـنـهـمـ بـلـ كـانـ بـيـنـ زـخـتـيـنـ مـنـ الـضـربـاتـ وـعـلـيـهـ أـنـ يـقـرـرـ الـأـقـسـىـ مـنـهـمـ. كـانـ هـنـالـكـ مـنـ جـهـةـ الـخـوفـ مـنـ شـانـغاـرـانـيـيـهـ وـمـنـ جـهـةـ أـخـرىـ الـخـوفـ مـنـ بـوـنـابـرـتـ. وـعـلـىـ الـمـرـءـ أـنـ يـعـتـرـفـ بـأـنـ الـمـوـقـفـ لـمـ يـكـنـ بـالـمـوـقـفـ الـبـطـولـيـ.

فيـ اليومـ الثـامـنـ عـشـرـ مـنـ تـشـيـرـنـ الثـانـيـ وـرـدـ تعـديـلـ عـلـىـ قـانـونـ الـاـنـتـخـابـاتـ الـبـلـدـيـةـ الـذـيـ قـدـمـهـ حـزـبـ النـظـامـ بـالـذـاتـ، وـيـقـضـيـ التـعـديـلـ بـاعتـبارـ الإـقـامـةـ لـمـدـةـ سـنـةـ وـاحـدـةـ، بدـلـاـ مـنـ ثـلـاثـ سـنـواتـ، كـافـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـلـنـاخـيـنـ الـبـلـدـيـنـ. وـقـدـ خـذـلـ التـعـديـلـ بـأـغـلـيـةـ صـوتـ وـاحـدـ فـقـطـ، بـيـدـ أـنـهـ تـبـيـنـ عـلـىـ الـفـورـ أـنـ هـذـاـ الصـوتـ الـوـحـيدـ كـانـ مـسـجـلـاـ مـنـ قـبـيلـ الـخـطاـ. أـنـ حـزـبـ النـظـامـ، وـقـدـ أـنـقـسـ إـلـىـ أـنـكـتـلـاتـ مـتـعـادـيـةـ، قـدـ خـسـرـ مـنـ زـمـنـ بـعـيدـ أـكـثـرـيـتـهـ الـبـرـلـمـانـيـةـ الـمـسـتـقـلـةـ. وـقـدـ تـبـيـنـ الـآنـ أـنـهـ لـمـ تـعـدـ هـنـاكـ فـيـ الـبـرـلـمـانـ أـغـلـيـةـ عـلـىـ

الإطلاق. أن الجمعية الوطنية غدت عاجزة عن اتخاذ القرارات. لم تعد هناك قوة تمسك من أي نوع تشد جزئياتها بعضها البعض. لقد لفظت نفسها الأخير. لقد ماتت وأخيراً وقبل الكارثة بأيام قلائل، كان على جمارة البرجوازية خارج البرلمان أن تؤكد مرة أخرى على نحو مهيب انقطاع العلاقة بينا وبين البرجوازية في البرلمان. أن تثير، وهو كبطل برلماني مصاب أكثر بكثير من الباقيين بداء البلاهة البرلمانية العضال، قد عمد، بعد موت البرلمان، بالاشتراك مع مجلس الدولة، إلى تدبير مكيدة برلمانية جديدة - قانون مسؤولية من شأنه أن يفيد الرئيس تقبيداً صارماً بحدود الدستور. وكما أن بونابرت، لدى وضعه حجر الأساس لقاعات السوق الجديدة المسقوفة في باريس في 15 أيلول (سبتمبر)، قد سحر، كأنه مازنيلو ثان، سيدات السوق، بائعات السمك - صحيح أن الواحدة منهم كانت ترجم في قوتها الحقيقة سبعة عشر برجرافاً - وكما أنه، بعد تقديم مشروع قانون الكويستور، فئن الملذمين الذين أقام لهم الولائم في قصر الأليزيه، كذلك الآن في 25 تشرين الثاني ساق وراءه البرجوازية الصناعية التي اجتمعت في السيرك لتسلم من يديه الأوسمة عن معرض لندن الصناعي. وسأورد الجزء ذا المغزى من خطابه كما ورد في "Journal des Débats":

"مع مثل هذه النجاحات التي لم يكن يأملها أحد، لدى ملء الحق في أن أكرر: كم ستكون الجمهورية الفرنسية عظيمة لو أتيح لها أن تلتحق مصالحها الحقيقة وتصلح مؤسساتها بدلاً من أن تمنى بالخسارة على الدوام بسبب من إزعاج الديماغوجيين من جهة واضغاث الملكية من جهة أخرى. (تصفيق مدو، عاصف، متواصل مع جميع أرجاء المدرج). أن الاضغاث الملكية تعرقل كل تقدم وكل فروع الصناعة الهامة. بدلاً من التقدم لا شيء سوى الصراع. ونحن نرى قوماً كانوا قبلًا أشد المؤيدين للغير السلطة الملكية والامتيازات الملكية ويعلمون الآن بروح الكونفاسيون لا شيء إلا ليضعفوا السلطة التي انبثقت عن حق الاقتراع الشامل. (تصفيق مدو متواصل). ونحن نرى قوماً عانوا أشد المعاناة من الثورة وتنمروا منها أشد التنمر يستثثرون ثورة جديدة وما ذلك إلا ليقيدوا إرادة الأمة.. أنتي أعدكم بالسكينة بالنسبة للمستقبل"، الخ، الخ.. (هتفات عاصفة: "موحي، مرحى")."

وهكذا تهلك البرجوازية الصناعية بصيحات الاستحسان الذليلة لانقلاب الثاني من كانون الأول وإلادة البرلمان ولسقوط حكمها هي - ولديكتاتورية بونابرت. أن هدير التهليل في 25 تشرين الثاني قد وجّه جوابه في هدير المدافع في 4 كانون الأول، وقد كان بيت المسيو سالاندروز، الذي فاق الجميع بالتصفيق، أكثر البيوت تعرضًا للقصف.

عندما حل كرومويل البرلمان الطويل، ذهب بمفرده إلى قاعة الجلسات وأخرج ساعته حتى لا يبقى البرلمان دقيقة واحدة بعد الوقت الذي ضربه، وصرف كل عضو من أعضاء البرلمان مشيًعاً بالتوبيخات الفkehة المرحة. ونابوليون، وهو أصغر من قドّوته، أخذ نفسه على الأقل في الثامن عشر من برومير إلى الجمعية التشريعية وتلا عليها، ولو بصوت متقطع، الحكم باعدامها. أما بونابرت الثاني الذي وجد في حيازته، فضلاً عن هذا، سلطة تنفيذية تختلف كل الاختلاف عن سلطة كرومويل أو نابوليون فقد بحث عن نموذجه لا في صحائف تاريخ العالم بل في تاريخ جمعية العاشر من كانون الأول، في تاريخ المحاكم الجنائية. فقد سلب بنك فرنسا خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكـات فاشترى الجنـال مـانيـان بـمـليـونـ وـالـجنـودـ بـخـمـسـةـ عـشـرـ فـرنـكاـ لـلنـفـرـ الـواـحـدـ وـبـالـخـمـرـ وـأـجـتـمـعـ بـشـرـكـائـهـ فـيـ الـجـرـيمـةـ سـرـاـ كـالـلـصـ فـيـ الـلـيـلـ وـأـعـزـ بـاقـتـحـامـ منـازـلـ أـشـدـ الزـعـماءـ الـبرـلـانـيـنـ خـطـرـاـ وـبـجـبـرـ كـافـينـيـاـكـ وـلـامـورـيـسـيـرـ وـلـيفـلـوـ وـشـانـغـارـيـنـيـهـ وـشـارـاسـ وـتـيـرـ وـبـازـ،ـ الخـ،ـ منـ الفـراـشـ وـبـسـوقـهـمـ إـلـىـ السـجـنـ وبـاحتـلالـ الـجـنـودـ لـالـمـراـكـزـ الرـئـيـسـيـةـ فـيـ بـارـيـسـ وـلـمـبـنـيـ الـبـرـلـانـ وـبـتـعلـيقـ الإـلـاعـنـاتـ فـيـ الصـبـاحـ الـبـاـكـرـ عـلـىـ جـمـيعـ الـجـرـانـ تـعلـنـ حلـ الجـمـعـيـةـ الـوطـنـيـةـ وـمـجـلـسـ الـدـوـلـةـ وـإـعادـةـ حـقـ الـاقـتـرـاعـ الشـامـلـ وـفـرـضـ حـالـةـ الـحـصـارـ فـيـ مقـاطـعـةـ السـيـنـ.ـ وـبـعـدـ مـدةـ جـيـزةـ نـشـرـ فـيـ "Moniteur" وـثـيقـةـ مـزـوـرـةـ تـزـعـمـ أـنـ ذـوـيـ النـفـوذـ مـنـ الـبـرـلـانـيـنـ قدـ اـجـتـمـعـوـ حـولـهـ وـشـكـلـوـ مـجـلـسـ دـوـلـةـ اـسـتـيـتـائـيـةـ.

واجتمعت بقایا البرلمان في مبني بلدية الدائرة العاشرة وكانت تتالف بصورة رئيسية من الشعوب والأورليانيين، وقرروا خلع بونابرت وسط الصيحات المenkraة: "عاشت الجمهورية!"، وجلعوا عبئاً في الجماهير الفضولية أمام المبني، ثم سيقوا أخيراً في حراسة الرماة الأفريقيين أولاً إلى ثكنات أورسي وكسوا بعد ذلك في عربات السجن ونقلوا إلى سجون مازاس وهام وفسين. وهكذا انتهى حزب النظام والجمعية التشريعية وثورة شباط.

وقبل أن تبادر إلى الختام لنلخص بياجارد تاريخ الأخيرة:

- ١ - الفترة الأولى: من شباط (فبراير) لغاية ٤ أيار (مايو) ١٨٤٨. فترة شباط. تمهد مهزلة التأخي الشامل.
- ٢ - الفترة الثانية: فترة تأسيس الجمهورية والجمعية الوطنية التأسيسية.
 - (١) من ٤ أيار (مايو) لغاية ٢٥ حزيران (يونيو) ١٨٤٨. نضال جميع الطبقات ضد البروليتاريا. هزيمة البروليتاريا في أيام حزيران.
 - (٢) من ٢٥ حزيران (يونيو) لغاية ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨. دكتاتورية الجمهوريين البرجوازيين الصرف. صياغة الدستور. إعلان حالة الحصار في باريس. تحية الدكتاتورية البرجوازية في ١٠ كانون الأول بانتخاب بونابرت رئيساً للجمهورية.
 - (٣) من ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨ لغاية ٢٨ أيار (مايو) ١٨٤٩. صراع الجمعية التأسيسية ضد بونابرت ضد حزب النظام المتحالف معه. هلاك الجمعية التأسيسية. هزيمة البرجوازية الجمهورية.
- ٣ - الفترة الثالثة: فترة الجمهورية الدستورية والجمعية الوطنية التشريعية.
 - (١) من ٢٨ أيار ١٨٤٩ لغاية ١٣ حزيران ١٨٤٩. صراع البرجوازية الصغيرة ضد البرجوازية ضد بونابرت. هزيمة الديمقراطية البرجوازية الصغيرة.
 - (٢) من ١٣ حزيران ١٨٤٩ لغاية ٣١ أيار ١٨٥٠. الدكتاتورية البرلمانية لحزب النظام. الحزب يكمل حكمة بإلغاء حق الاقتراع الشامل ولكنه يخسر الوزارة البرلمانية.
 - أ- من ٣١ أيار ١٨٥٠ لغاية ١٢ كانون الثاني ١٨٥١. البرلمان يخسر القيادة العليا للجيش.
 - ب- من ١٢ كانون الثاني (يناير) لغاية ١١ نيسان (أبريل) ١٨٥١. البرلمان يخذل في محاولاته لإخضاع السلطة الإدارية لنفسه ثانية. حزب النظام يخسر النظام يخسر أكثريته البرلمانية المستقلة. ائتلافه مع الجمهوريين و"الجب".

ج- من ١١ نيسان ١٨٥١ لغاية ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٥١. محاولات لإعادة النظر في الصالحيات وصهرها ونمديدها. حزب النظام ينحدر إلى عناصره الأصلية. القطيعة النهائية بين البرلمان البرجوازي والصحافة البرجوازية وجمهرة البرجوازية.

د- من ٩ تشرين الأول لغاية ٢ كانون الأول ١٨٥١. القطيعة المكشوفة بين البرلمان والسلطة التنفيذية. البرلمان يلقط نفسه الأخير، فقد سقط وتركته طبقته ذاتها والجيش وجميع الطبقات الباقة. هلاك النظام البرلماني وحكم البرجوازية. انتصار بونابرت. مهزلة إعادة الإمبراطورية.

لقد ظهرت الجمهورية الاجتماعية على عتبة ثورة شباط لأنها لفظة، لأنها نبوءة. وفي أيام حزيران ١٨٤٨ أغرفت بدم بروليتاريا باريس، بيد أنها تخيم كالشبح على الفصول التالية من الدراما. وظهرت الجمهورية الديموقراطية على الحلة. وفي ١٣ حزيران ١٨٤٩ ترول هي وبرجوازيوها الصغار الذي يتشتتون، لكنها في أثناء هروبها تتغنى بمناقبها بتبرج مضاعف. وتستولي الجمهورية البرلمانية، هي والبرجوازية، على المسرح بأسره. وتنتهي هذه بالبقاء غاية التمنع؛ بيد أن الثاني من كانون الأول عام ١٨٥١ يدفعها على وقع صيحة الرعب التي يطلقها الملكيون المؤلفون: "عاشت الجمهورية!"

أن البرجوازية الفرنسية قد تمردت على سلطة البروليتاريا العاملة. وجلبت حثالة البروليتاريا إلى السلطة وعلى رأسهم رئيس جمعية العاشر من كانون الأول. وأبقيت البرجوازية فرنسا في خوف يكتم الأنفاس من الفظائع المقلبة للفوضى الحمراء. وقد خصم بونابرت لها هذا المستقبل عندما ترك جيش النظام الذي لعبت به نشوة الخمر يقتل روميا بالرصاص في ٤ كانون الأول أعيان البرجوازية في بولفار مونمارتر وبولفار الطليان وهم على نوافذ بيوتهم. لقد ألهت السيف، فحكمها السيف. لقد دمرت الصحافة الثورية، فدمرت صحفتها هي. لقد وضع المجتمعات الشعبية تحت رقابة الشرطة، فوضعت صالوناتها تحت رقابة الشرطة. لقد سرحت الحرس الوطني الديموقراطي، فسرح حرسها الوطني. لقد فرضت حالة الحصار، ففرضت عليها حالة الحصار. لقد استعاضت عن المخلفين باللجان العسكرية، فاستعاض عن مخلفيها باللجان العسكرية. لقد أخضعت التعليم العام لحكم الكهنة، فاخضع الكهنة تعليمها هي. لقد أبعدت الناس دون محاكمة، فأُبعدت هي دون محاكمة. لقد قمعت كل حركة في المجتمع بواسطة سلطة الدولة، باحمدت سلطة الدولة كل حركة في مجتمعها. لقد ثارت، بدافع الغيرة على جزدانها، ضد ساستها وأدبائها، فكُنس ساستها وأدبائها جانباً ولكن جزدانها ينهب الآن وقد كرم فمهما وكسر قلماها. أن البرجوازية لم تكن أبداً من الصياغ للثورة بمثل ما صاح القديس أرسينيوس باليسريين: "Fuge, tace quiesce!"، وصاح بونابرت بالبرجوازية: Fuge, tace quiesce! الهرب، الصمت، السكينة!"

أن البرجوازية الفرنسية قد وجدت منذ زمن بعيد حلاً لمعضلة نابوليون المزدوجة Dans cinquante ans l'Europe sera républicaine ou cosaque (في مدي خمسين سنة ستكون أوروبا أما جمهورية أو قوزاقية. الناشر) أنها وجدت الحل في "cosaque" (الجمهورية القوزاقية. الناشر).).

ساحرة إغريقية مسخت بسحرها الشرير ذلك العمل الفني، الجمهورية البرجوازية، فأحالته إلى شكل وحش فظيع. أن تلك الجمهورية لم تقعد شيئاً إلا مظاهر اللياقة. أن فرنسا الراهنة (أي فرنسا انقلاب سنة ١٨٥١. الناشر). كانت تتضمنها الجمهورية البرلمانية وهي في حالة كمال وانتهاء. ولم تكن تحتاج ألا إلى طعنة حربة حتى تتفجر الفقاعة ويثبت الوحش أمام عيوننا.

لماذا لم تهب بروليتاريا باريس ثائرة بعد ٢ كانون الأول؟

إن قلب البرجوازية كان حتى ذلك الحين قد صدر به قرار فحسب، ولم يكن هذا القرار قد وضع موضع التنفيذ. وقد كان من شأن أي تمرد جدي تقوم به البروليتاريا أن يبعث في البرجوازية جيادة جديدة على الفور وأن يصلحها مع الجيش ويضمن هزيمة جديدة للعمال كهزيمة حزيران.

في الرابع من كانون الأول قام البرجوازيون وأصحاب الدكاكين بتحريض البروليتاريا على القتال. وفي مساء ذلك اليوم وعدت عدة فرق من الحرس الوطني بالظهور. بسلاحيها ولباسها العسكري في مسرح المعركة. ذلك أن البرجوازيين وأصحاب الدكاكين بلغ مسامعهم أن بونابرت قد ألغى الاقتراع السري في أحد القرارات التي أصدرها في ٢ كانون الأول وأوجب عليهم أن يسجلوا كلمة "نعم" أو "لا" في سجلات الناخبين الرسمية بعد أسمائهم. أن مقاومة ٤ كانون الأول قد أرهبت بونابرت فأوعز بتعليق لافتات أثناء الليل على جميع منعطفات الشوارع في باريس تعلن إعادة الاقتراع السري. وأعتقد البرجوازيون وأصحاب الدكاكين أنهم أدركوا غایتهم. وكان الذين تخلفوا عن الحضور في الصباح التالي هم البرجوازيون وأصحاب الدكاكين بالذات.

وبصريبة مفاجئة في ليلة ١ إلى ٢ كانون الأول سلب بونابرت بروليتاريا باريس زعماءها، قادة المتاريس. وإذ غدت البروليتاريا حبشاً بلا ضباط، عازفاً عن القتال تحت لواء "الجبل" بسبب ذكريات حزيران (يونيو) ١٨٤٨ و١٨٤٩ وأيار (مايو) ١٨٥٠، فقد تركت لطبيعتها، الجمعيات السرية، مهمة إنقاذ شرف التمرد لمدينة باريس وهو الذي سلمته البرجوازية للجند دون أدنى مقاومة حتى أن بونابرت أستطاع فيما بعد أن يفسر متنهما الدافع الذي حدّا به إلى نزع سلاح الحرس الوطني بأنه كان يخشى أن يوجه الفوضويون أنفسهم هذا السلاح ضد الحرس نفسه!

"C'est el triomphe complet et definitive du socialisme!" (هذا هو انتصار الاشتراكية النام النهائي!). الناشر). هكذا وصف غيزو انقلاب ٢ كانون الأول. ولكن إذا كانت الإطاحة بالجمهورية البرلمانية تحمل في طياتها بذرة انتصار الثورة البروليتارية فإن نتائجها المباشرة والمحسوسة كانت انتصار بونابرت على البرلمان وانتصار السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية وانتصار القوة بلا كلام على قوة الكلمة. في البرلمان جعلت الأمة إرادتها العمومية هي القانون أي أنها جعلت قانون الطبقة الحاكمة إدارتها العمومية. وهي أمام السلطة التنفيذية تتخلّى عن كل إرادة خاصة بها وتذعن لأمرة أراده غريبة، للسلطة. أن السلطة التنفيذية، بال مقابلة مع السلطة التشريعية، تعبر عن خضوع الأمة لحكم الغير بالمقابلة مع ممارستها للحكم الذاتي. ولهذا يبدو أن فرنسا لم تتج من استبداد طبقة برمتها إلا لتقع تحت استبداد فرد بل وتحت سلطة فرد بلا سلطة. ويبدو أن الصراع قد انتهى بحيث أن جميع الطبقات، وقد تساوت عجزاً وسكتاً، حيث على ركبها أمام عقب البندقية.

بيد أن الثورة عميقه الجذور. أنها ما تزال في رحلتها خلال المطهر. وهي تقوم بعملها بصورة منهبية. وقد كانت لغاية ٢ كانون الأول قد أتمت نصف عملها التحضيري وهي الآن تتم النصف الآخر. أنها أكملت أولاً السلطة البرلمانية حتى تتمكن من الإطاحة بها. أما الآن وقد بلغت هذه الغاية فهي تحكم السلطة التنفيذية، تردها إلى أخلص تعبيراتها وتعزلها ثم تتصبّها في مواجهتها هي باعتبارها الهدف الوحيد حتى ترکز جميع قواتها التدميرية ضدها. وعندما تكون قد أنجزت هذا النصف الثاني من عملها التمهيدي شتبّ أوروبا من مقعدها وتصبح متلهلة: لقد أحست نيشاً ليها الخلد العجوز !⁽⁵⁸⁾.

أن هذه السلطة التنفيذية، بما لها من منظمة بيروقراطية وعسكرية ضخمة وبما لها من جهاز دولة معقد جداً ومضمّن قصدًا وجيش من الموظفين يبلغ نصف مليون عدد، فضلاً عن جيش عدده نصف مليون آخر، هذه الهيئة الطفيليّة المربيّة التي تلتف حول جسد المجتمع الفرنسي كالشبّاك وتختنق جميع مسامّة، نشأت أيام الملكية المطلقة، مع تدهور الإقطاعية الذي ساعدت هذه الهيئة على التعجيل به. أن امتيازات السيادة التي كان يتمتع بها ملاك الأرضي وتنعم بها المدن قد تحول بالكثرة نفسها إلى خصائص لسلطة الدولة وتحول الأعيان الإقطاعيون إلى موظفين ذوي مرتبات وتحولت الخريطة المبرقشة من الحقوق الإقطاعية المطلقة المتنازعـة التي كانت قائمة في القرون الوسطى إلى خطة منسقة لسلطة الدولة التي ينقسم عملها ويتمركز كما هو في مصنع من المصانع. أن الثورة الفرنسية الأولى، بما أخذته على عاتقها من تحطيم لجميع السلطات المحلية والإقليمية

(58) شكسبير - "هملت". الفصل الأول. المشهد الخامس. - ص ١٣٩.

المترفة وسلطات المدن والمقاطعات حتى يتمنى لها خلق الوحدة الأهلية للأمة، كانت ملزمة بأن تطور ذاك الذي بدأت به الملكية المطلقة: المركزية، ولكن كان عليها أن تتطور في الوقت نفسه امتداد السلطة الحكومية وخصائصها وعدد الوكالء العاملين فيها. وقد أكمل نابوليون جهاز الدولة هذا. ولم تضف الملكية الشرعية وملكية تموز (يوليو) شيئاً إليه سوى مزيد من تقسيم العمل كان ينمو بقدر ما كان تقسيم العمل ضمن المجتمع البرجوازي يخلق مجموعات مصالح جديدة فيخلق وبالتالي مادة جديدة لإدارة الدولة. أن كل مصلحة مشتركة كانت تفصل توا عن المجتمع وتوضع في مواجهته باعتبارها مصلحة عامة أعلى وترتزع من مجال نشاط أعضاء المجتمع أنفسهم وتجعل موضوعاً للنشاط الحكومي، ابتداء من الجسر ومبني المدرسة والملكية المشاعية لمجتمع قرية من القرى حتى السكك الحديدية والثروة القومية وجامعات فرنسا الحكومية. وأخيراً وجدت الجمهورية البرلمانية نفسها، في صراعها ضد الثورة، مرغمة على تعزيز وسائل سلطة الحكومة ومركزتها جنباً إلى جنب مع اتخاذ الإجراءات القمعية. أن جميع الانقلابات أكملت هذه الآلة بدلاً من أن تحطمها. وكانت الأحزاب التي تنازعت السيطرة بالتناوب تعتبر حيازة صرح الدولة الضخم هذا الغنية الرئيسية للمنتصر.

ولكن البيروقراطية، في ظل الملكية المطلقة وخلال الثورة الأولى وفي عهد نابوليون، لم تكن إلا وسيلة لإعداد الحكم الطبقي للبرجوازية. وقد كانت في عهد العودة وعهد لويس فيليب وعهد الجمهورية البرلمانية أداة الطبقة السائدة، رغم كل جهادها (أي البيروقراطية) لكي تجعل من نفسها سلطة مستقلة.

وفي عهد بونابرت الثاني فقط، بدا أن الدولة جعلت نفسها مستقلة تمام الاستقلال. وقد وطد جهاز الدولة مركزه إزاء المجتمع المدني حتى أنه أصبح ممكناً أن يكون على رأسه رئيس جمعية العاشر من كانون الأول، وهو مغامر جاء من الخارج ورفعته على الترس أيدي الجندي السكارى الذين اشتراهم بالخمر والمفانق وكان عليه أن يموئهم على الدوام بالمقانق من جديد. ومن هنا كان اليأس الذليل وشعور الإذلال والامتنان الفظيع الذي يقل صدر فرنسا ويحبس أنفاسها. أنها تشعر بالعار.

ومع هذا فإن سلطة الدولة ليست معلقة في الهواء. أن بونابرت يمثل طبقة هي فضلاً عن ذلك، أكثر طبقات المجتمع الفرنسي عدداً ونعني بها الفلاحين الصغار.

وكما أن البوربونيين كانوا أسرة العقارات الكبيرة وكما أن الأورليانيين كانوا أسرة المال كذلك البرونابيرتيون هم أسرة الفلاحين أي جمهرة الشعب الفرنسي. فليس بونابرت الذي خضع للبرلمان البرجوازي بل بونابرت الذي شنت البرلمان البرجوازي هو مختار الفلاحين. لقد نجحت المدن طيلة ثلاثة سنين في تزوير معنى انتخاب العاشر من كانون الأول (ديسمبر) وفي خداع الفلاحين وتخيب أملهم بعودة الإمبراطورية. أن انتخاب العاشر من كانون الأول ١٨٤٨ لم يبلغ تمامه إلا بانقلاب الثاني من كانون الأول ١٨٥١.

أن الفلاحين الصغار يشكلون كتلة ضخمة يعيش أعضاؤها في ظروف متشابهة ولكن دون أن يدخلوا في علاقات متشعبة بعضهم مع بعض. أن أسلوبهم في الإنتاج يعزّلهم الواحد عن الآخر بدلاً من أن يدفعهم إلى التعامل المتبادل. وتشتد هذه العزلة بسبب وسائل المواصلات السيئة في فرنسا وبسبب فقر الفلاحين. أن ميدان أنتاجهم - وهو قطعة الأرض الصغيرة - لا يسمح بتقسيم العمل في فلاحتها ولا بتطبيق العلم ولا يسمح وبالتالي بتتنوع أشكال التطور ولا بتتنوع المواهب ولا بغنِي العلاقات الاجتماعية. أن كل أسرة فلاحية بمفردها مكفيَّة ذاتياً تقريباً، وهي نفسها تنتج مباشرة الجزء الأكبر من استهلاكها وتحصل بذلك وسائل عيشها من التبادل مع الطبيعة أكثر مما تحصلها من التعامل مع المجتمع. قطعة أرض صغيرة، فلاح وأسرته. وإلى جوارهم قطعة أرض صغيرة أخرى وفلاح آخر وأسرة أخرى. أن حفنة من هذه الوحدات تشكل قرية وحفنة من القرى

تشكل مقاطعة. وبهذه الطريقة تكون الجمارة العظمى من الأمة الفرنسية بمجرد إضافة مقادير متاظرة مثلما تكون رؤوس البطاطا في كيس كيس بطاطا. وبما أن ملابس الأسر تعيش في ظروف اقتصادية الأخرى ومصالحها وثقافتها، وتُوضعها في موضع التضاد العدائى مع الأخيرة فإنها تشكل طبقة. وبما أنه لا يقوم بين هؤلاء الفلاحين الصغار غير علاقات محلية وبما أن تطابق مصالحهم لا يخلق بينهم رابطة مشتركة أو رابطة وطنية أو تنظيمًا سياسياً فهم لا يشكلون طبقة. ولذلك يعجزون عن الدفاع عن مصلحتهم الطبقية باسمهم الخاص سواءً أكان ذلك بواسطة برلمان أم بواسطة كونفانسيون (هيئة تشريعية علىَّا في فرنسا أنشئت في زمن الثورة البرجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن؛ وقد دامت من ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٧٩٢ حتى ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٩٥). أنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولا بد أن يمثلهم غيرهم. ولا بد لمثلهم أن يظهر في الوقت نفسه كسيد لهم، كسلطة فوقهم، كسلطة حكومية غير محدودة تحميهم ضد الطبقات الأخرى وترسل لهم الغيث وضوء الشمس من فوق. ولهذا يجد النفوذ السياسي للفلاحين الصغار تعبيره النهائي في الواقع أن السلطة التنفيذية تخضع المجتمع لنفسها.

أن التقليد التاريخي المتواتر ولد عند الفلاحين الفرنسيين الاعتقاد الصوفي بأن رجلاً يدعى نابوليون سيعيد لهم جميع الخيرات المفقودة. وطلع شخص أدعى بأنه هو هذا الرجل لمجرد أنه يحمل اسم نابوليون، بناءً على مادة من Code Napoléon تنص: "La recherché de la paternité est interdite" (مجموعة قوانين نابوليون: "التحقيق في الأبوة منوع". الناشر). بعد تشرد دام عشرين سنة وبعد سلسلة من المغامرات السخيفة يتحقق التكهن ويصبح الرجل إمبراطور الفرنسيين. لقد تحققت فكرة ابن الأخ الراسخة لأنها انطبقت تمام الانطباق على الفكرة الراسخة لدى أكثر طبقات المجتمع الفرنسي عدداً.

ورب معترض يقول: ولكن ما شأن انتفاضات الفلاحين في نصف فرنسا والغارات التي شنها الجيش على الفلاحين وحبس الفلاحين بالجملة ونفيهم بالجملة؟

إن فرنسا لم تشهد منذ لويس الرابع عشر مثل هذا الاضطهاد للفلاحين "بسبب الدسائس الديماغوجية".

ولكن لنكن على بيته من الأمر. أن أسرة بونابرت لا تمثل الفلاح الثوري بل الفلاح المحافظ، لا تمثل الفلاح الذي يسعى إلى التخلص من ظروف وجوده الاجتماعية التي تحددها قطعة أرضه الصغيرة، بل تمثل بالأحرى الفلاح الذي يريد توسيع هذه الظروف وهذه الأرض، لا سكان الريف الذي يريدون الارتباط مع المدن والإطاحة بالنظام القديم بجهودهم الخاصة بل، على التقىض، أولئك الذي يعزلون أنفسهم بعناد بلid ضمن هذا النظام القديم منتظرين أن ينقذهم شبح الإمبراطورية وينقذ قطع أراضيهم وينحهم وضعًا مميزًا. أن آل بونابرت لا يمثلون استنارة الفلاح بل خرافاته، لا عقله بل أوهامه، لا مستقبلة بل ماضيه، لا سيفين الحديثة بل فنه الحديثة⁽⁵⁹⁾.

أن حكم الجمهورية البرلمانية القاسي الذي دام ثلاث سنوات قد حرر قسمًا من الفلاحين الفرنسيين من الوهم النابوليوني وأحدث انقلاباً ثورياً في نفوسهم، وأن كان ذلك بصورة سطحية فحسب؛ بيد أن البرجوازية كانت تدفعهم بالقوة إلى الخلف كلما كانوا يأخذون في التحرك. وفي ظل الجمهورية البرلمانية كان الوعي العصري للفلاح الفرنسي ووعيه التقليدي يتتساعان السيادة. كانت هذه العملية تجري بشكل صراع مستمر بين معلمي المدارس والكهنة – وكانت البرجوازية تcum المعلميين. ولأول

(59) سيفين، منطقة جبلية في إقليم لانغدوك بفرنسا، نشبت فيها في أعوام ١٧٠٢ - ١٧٠٥ انتفاضة فلاحية أُسْبِتَتْ بانتفاضة "الكاميزار" ("ذوي القمصان"). نشبت الانتفاضة بسبب من ملاحقة البروتستانت، واحتذت طابعًا معادياً للإقطاعية ساطع التعبير. استمرت شرارتها تندلع هنا وهناك حتى عام ١٧١٥. فنده، إقليم في غرب فرنسا نشبت فيه أبان الثورة البرجوازية الفرنسية بأواخر القرن الثامن عشر انتفاضة فلاحية معادية للثورة، برئاسة البلااء ورجال الدين. - ص ١٤٤.

مرة بذل الفلاحون جهوداً في التصرف بصورة مستقلة إزاء نشاط الحكومة، وتجلي هذا في النزاع المتواصل بين رؤساء البلديات والحكام الإداريين وكانت البرجوازية تعزل رؤساء البلديات. وأخيراً ثار الفلاحون في أماكن متعددة خلال فترة الجمهورية البرلمانية ضد ولدهم هم الجيش وكانت البرجوازية تعاقبهم بفرض حالات الحاصر وبالحملات التأديبية. وهذه البرجوازية نفسها تصبح الآن عن بلادة الجماهير، عن هذه *vile multitude* (السوقية الحقيرة. الناشر) زاعمة بأنها باعتها لبونابرت. أنها هي نفسها التي عززت بالقوة المشاعر الإمبراطورية عند طبقة الفلاحين وحفظت بعانياً الظروف التي كانت بمثابة التربة التي تثبت عليها ديانة الفلاح هذه. صحيح أنه ينبغي على البرجوازية أن تخشى جهل الجماهير طالما ظلوا محافظين، ووعي هذه الجماهير حالما تصبح ثورية.

في الانقضاضات التي أعقبت *coup d'état* أحتج قسم من الفلاحين الفرنسيين، والسلاح في أيديهم، ضد صوتهم الانتخابي الذي أدلووا به هم أنفسهم في العاشر من كانون الأول ١٨٤٨. أن المدرسة التي اجتازوها منذ عام ١٨٤٨ قد شحذت ذكاءهم. ييد أنهم أسلموا أنفسهم إلى حريم التاريخ، والتاريخ قيدهم بكلماتهم، وكانت الأكثريّة منهم ما تزال غارقة في الضلال لدرجة أن سكان الريف في أشد المقاطعات أحمراراً بالذات صوتواً بصورة مكتوفة لبونابرت. كانوا يرون أن الجمعية الوطنية قد عرقلت تقدمه. وكل ما فعله بونابرت الآن هو أنه كسر القيود التي فرضتها المدن على إرادة الريف. بل أن الفلاحين في بعض الأحياء داعبتهم الفكرة السخيفة: فكرة قيام كونفانسيون جنباً إلى جنب مع نابوليون.

بعد أن حولت الثورة الأولى الفلاحين من أشباه أقنان إلى ملاكين أحرار ثبت نابوليون ونظم الشروط التي يمكنهم بموجبها أن يستغلوا دونما عائق أرض فرنسا التي آلت إليهم قبيل ذلك بقليل ويقطنوا علىهم الفتى للملك. ييد أن سبب أملاك الفلاح الفرنسي الآن أنها هو أرضه الصغيرة نفسها، تقسيم الأرض، شكل الملكية الذي وطنه نابوليون في فرنسا. أنها بالضبط تلك الظروف المادية التي جعلت من الفلاح الفرنسي من عهد الإقطاع، مالكاً عقارياً صغيراً، وجعلت من نابوليون إمبراطوراً. وقد كفى جيلان لبلوغ النتيجة التي لا مناص منها: التدهور المتزايد في الزراعة والدين المتزايد على المشتغلين بالزراعة. أن الشكل "النابوليوني" للملكية الذي كان في بداية القرن التاسع عشر شرطاً لتحرير أهل الريف الفرنسيين وإثراهم قد تطور في بحر هذا القرن إلى قانون يثبت استبعادهم وفقرهم. وهذا القانون بالضبط هو أول فكرة من *idées napoléoniennes* (الأفكار النابوليونية. الناشر) كان يترتب على بونابرت الثاني أن ينود عنها. وإذا كان ما يزال يشاطر الفلاحين الوهم القائل بأن سبب خرابهم ينبغي تلمسه لا في هذه الملكية العقارية الصغيرة ذاتها في خارجها، وفي تأثير ظروف ثانوية، فإن تجاربه سوف تتفجر كفقاعات الصابون لدى ملامستها علاقات الإنتاج.

أن التطور الاقتصادي للملكية العقارية الصغيرة قد غير علاقات الفلاحين بطبقات المجتمع الأخرى تغييراً جذرياً. ففي عهد نابوليون كان تقسيم الأرض في الريف على قسائم صغيرة يكمel المزاحمة الحرجة والصناعة الكبيرة المبتدئة في المدن. وكانت طبقة الفلاحين في جميع الأماكن هي الاحتجاج ضد ارستقراطية الأرض التي أطيخ بها قبل ذلك بقليل فحسب. أن الجذور التي ضربتها الملكية العقارية الصغيرة في التربة الفرنسية قد حرمت الإقطاع من كل غذاء. وكانت علامات الحدود لقطعة الأرض الصغيرة بمثابة التحصينات الطبيعية للبرجوازية ضد أي هجوم عليها من جانب أسيادها القدماء ييد أن النساء الإقطاع حل محلهن في غضون القرن التاسع عشر مرابطو المدن، والالتزام الإقطاعي الذي ينبع بكلله على الأرض حل ملحة الرهن، والملكية الارستقراطية للأرض حل محلها رأس المال البرجوازي. أن قطعة أرض الفلاح لم تعد سوى ذريعة تتبع للرأسمالي أن يجيء من الأرض ربحاً وفائدة وريعياً، وأن يترك لمالك الأرض نفسه أمر الاهتمام بالطريقة التي يراها ناجحة للحصول على أجورته. أن دين الرهن الذي يتقد أرض فرنسا يفرض على الفلاحين الفرنسيين دفع مبلغ من الفائدة السنوية المترتبة على الدين القومي البريطاني بأسره. أن الملكية العقارية الصغيرة، التي أستبعدها الرأسمال لهذه الدرجة - ويؤول

تطور هذه الملكية إلى هذا الاستبعاد بصورة محتومة - قد حولت أغلبية الأمة الفرنسية على سكان كهوف. ستة عشر مليوناً من الفلاحين (بمن فيهم النساء والأطفال) يسكنون في أخصاص معظمها ليست له سوى فتحة واحدة، وبعضها الآخر له فتحان فقط، وأحسنها حظاً له ثلات فتحات فحسب. والنواخذ بالنسبة للبيت هي كالحواس الخمس بالنسبة للرأس. أن النظام البرجوازي الذي أقام الدولة في بداية القرن حارساً على الملكية العقارية الصغيرة الناشئة وسمّتها بالغار أصبح الآن عفريتاً يمتص دماءها ونخاعها ويقف بها في القدر الكيماوي لرأس المال. إن *Code Napoléon* ليست الآن سوى مجموعة قوانين لتنفيذ قرارات المحاكم وإجراءات الحجز والبيع بالمزاد العلني. ولا بد لنا أن نضيف إلى الملابس الأربع (بمن فيهم الأطفال، إلخ) من المسؤولين والمتشردين وال مجرمين والموسمات في فرنسا، المعترف بهم رسمياً، خمسة ملايين يحومون على شفا البقاء وهم إما يسكنون الريف نفسه أو يهرون الريف باستمرار، هم وخرقهم وأطفالهم، إلى المدن أو يهرون المدن إلى الريف. وبكلمة، إن صالح الفلاحين لم تعد، كما كانت في عهد نابوليون، تتفق مع مصالح البرجوازية، مع رأس المال بل هي في تناقض مستعص معهما. ومن هنا يجد الفلاحون حلفهم الطبيعي وقادتهم في بروليتاريا المدن التي مهمتها الإطاحة بالنظام البرجوازي. ولكن الحكومة القوية المدن التي مهمتها الإطاحة بالنظام البرجوازي. ولكن الحكومة القوية غير المحدودة - وهذه هي « *napoléoninne* » الثانية التي يترتب على نابوليون الثاني تنفيذها - مدعوة للدفاع عن هذا النظام "المادي" بالقوة. والحقيقة، إن هذا « *ordre matériel* » ("النظام المادي"). الناشر) يتكرر كالالزمة في جميع بلاغات بونابرت ضد الفلاحين العاصين.

وبإضافة إلى الرهن الذي يفرضه رأس المال على قطعة الأرض الصغيرة ترهق الضرائب هذه القطعة. إن الضرائب هي ينبوع الحياة بالنسبة للبيروقراطية والجيش والكهان والبلات وبالاختصار بالنسبة لجهاز السلطة التنفيذية بأسره. إن الحكومة القوية والضرائب الباهضة هما شيء واحد. إن الملكية العقارية الصغيرة تشكل بطبيعتها أساساً مناسباً لبيروقراطية كاملة الجبروت ولا حصر لها. إنها تخلق مستوى متبايناً للعلاقات والأشخاص فوق أديم البلاد جميعها. ولذا تتبع أيضاً ممارسة تأثير متناسق من مركز واحد أعلى وعلى جميع نقاط هذه الكتلة الربطية. إنها تقضي على الدرجات الأристقراطية المتوسطة بين جمهرة الشعب وسلطة الدولة. وهي لذلك تستدعي التدخل المباشر الشامل لسلطة الدولة هذه وتتدخل أجهزتها المباشر. وهي تخلق أخيراً فيضاً من السكان العاطلين الذين لا مكان لهم سواء في الريف أو في المدن الذين يمدون أيديهم بناء على ذلك إلى وظائف الدولة بوصفها صدقات لائقة وتشكل حافزاً لزيادة عدد المناصب في جهاز الدولة. كان نابوليون يسدد الضرائب الإجبارية مع الفوائد وذلك بالأسواق الجديدة التي افتتحها بحد السيف وبنهب القارة. وقد كانت هذه الضرائب النابوليونية حافزاً لنمو الحرف الفلاحي بينما هي تسلب الآن هذه الحرف مواردها الأخيرة وآخر إمكانية لمقاومة الإملاق. والبيروقراطية الضخمة، التي تنعم بالحلل الموشاة والطعم الطيب، إنما هي « *idée napoléonienne* » كانت أقرب فكرة إلى نفس بونابرت الثاني. وكيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك ونحن نراه مرغماً على أن يخلق إلى جانب الطبقة الفعلية في المجتمع طائفة اصطناعية تصبح المحافظة على حكمة بالنسبة لها مسألة رزق وعيش؟ عليه كان من أوائل العمليات المالية التي قام بها رفع مرتبات الموظفين التي جرى تخفيضها من قبل إلى مستواها القديم وإيجاد وظائف جديدة بلا عمل.

وهناك « *idée napoléonienne* » أخرى هي سيطرة الكهان بوصفها أداة في يدي الحكومة. ولكن بينما تكون قطعة الأرض الصغيرة التي برزت إلى الوجود حديثاً، في وافقها مع المجتمع واعتمادها على القوى الطبيعية وخصوصيتها للسلطة التي هي حاميها الأعلى، متدينة بطبيعة الحال، فإن قطعة الأرض الصغيرة التي تخربها الديون والتي هي المجتمع والسلطة على طرفى نقىض والتي تكلف فوق ما في وسعها والمضطربة إلى أن تخرج من نطاق محدوديتها ذاتها، تصبح بطبيعة الحال غير متدينة. أن السماء كانت ملحاً لا يأس به بالنسبة لقطعة الأرض الصغيرة التي كسبت حديثاً خصوصاً لأن السماء تصنع الطقس، ولكن هذه السماء تغدو إهانة حالما تطرح بمثابة بديل عن القطعة الصغيرة. وعندئذ يتحول القيس إلى كلب ممسوح

بالميرون من كلاب الشرطة الدنبوية - وهذه أيضًا « idée napoléonienne ». وفي المناسبة التالية ستجري الحملة على روما في فرنسا نفسها ولكن بمعنى معاكس لذاك الذي يقصده المسيو دي مونتالمير.

وأخيراً أن نزوة « idées napoléoniennes » هي غلبة أهمية الجيش. إن الجيش كان point d'honneur (مطاعط العزة. الناشر) للفلاحين الصغار: كان الجيش يجعل منهم أبطالاً يدافعون عن ممتلكاتهم الجديدة ضد الأعداء الخارجيين، ويجدون الوحدة القومية التي اكتسبوها مؤخراً، وينهبون الدنيا وينفون فيها روح الثورة. الزيارات العسكرية كانت لباسهم للاحتفالات وال الحرب كانت قصيدهم، وقطعة الأرض الصغيرة التي يضخمها الخيال ويكملاها كانت وطنهم، والشعور الوطني كان الشكل المثالي للشعور بالملكية. بيد أن الأعداء الذين كان على الفلاح الفرنسي الآن أن يحمي ملكيته منهم ليسوا هم القوزاق، أنهم أمورو الأجراء وجباة الضرائب. وقطعة الأرض الصغيرة لم تعد تقع فيما يدعى بالوطن بل في سجل الرهون. والجيش نفسه لم يعد زهرة شباب الفلاحين. إنه زهرة مستقوع حثالة الفلاحين، إنه يتآلف إلى حد كبير من المتجمدين البدلاء تماماً كما أن بونابرت الثاني نفسه ليس إلا بديلاً عن نابوليون. إن مأثره البطولية تتجلى الآن في مطاردة الفلاحين وفي القيام بوظيفة الدركي. ولو أن التناقضات الداخلية لنظامه رئيس جمعية العاشر من كانون الأول طاردت هذا الرئيس إلى ما وراء الحدود الفرنسية فإن جيشه سوف يجني، بعد بضعة أعمال تصووصية، لا أكاليل الغار بل الضربات.

وهكذا نرى أن جميع « idée napoléonieenes » هي أفكار قطعة الأرض الصغيرة غير المتطورة، والتي لا تزال بعد في ريعان شبابها، أما بالنسبة لقطعة الأرض الصغيرة التي انقضى زمانها فهي سخافة، إنها مجرد أضغاث نزعها الأخير، كلمات تحولت إلى عبارات، أرواح تحولت إلى أشباح. بيد أن مهزلة الإمبراطورية كانت ضرورية لتحرير جمهرة الأمة الفرنسية من وطأة التقليد والاستجلاء التناقض بين سلطة الدولة والمجتمع بصورته الخالصة. ومع التدهور المتزايد الذي طرأ على الملكية العقارية الصغيرة ينهار مبني الدولة المشيد فوقها. إن مركبة الدولة التي يتطلبها المجتمع المعاصر تنشأ فقط على أنقاض جهاز الحكم العسكري البيروقراطي الذي صُنِع في سياق النضال ضد الإقطاعية⁽⁶⁰⁾.

إن حال الفلاحين الفرنسيين تكشف لنا عن لغز الانتخابات العامة في ٢٠ و ٢١ كانون الأول التي قادت بونابرت الثاني إلى أعلى طور سيناء لا ليتلقي التشريعات بل ليعطيها.

وظهر أن البرجوازية لم يكن لديها الآن خيار إلا انتخاب بونابرت. عندما شكا أنصار الأخلاق الصارمة في مجمع كونستانتسيا⁽⁶¹⁾ من الحياة المنحلة التي يحياها الباباوات وأعلوا حول ضرورة الإصلاح الخلقي، أرعد الكاردينال بيير دابي قائلاً لهم: "ما من أحد إلا الشيطان بشخصه يستطيع الآن إنقاذ الكاثوليكية وأنتم تطلبون ملائكة!" ويمثل هذا صاحب البرجوازية الفرنسية بعد الانقلاب: ما من أحد إلا رئيس جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر) يستطيع الآن إنقاذ المجتمع البرجوازي! السرقة وحدها هي التي تستطيع الآن إنقاذ الملكية، والزور وحده إنقاذ الدين والن垢لة إنقاذ العائلة، الفوضى إنقاذ النظام!

(60) بدلاً عن الجملتين الأخيرتين في آخر الفقرة المعنية ورد في طبعة عام ١٨٥٢ ما يلي: "أن تحطم آلة الدولة لا يشكل أي خطر على المركبة. فإن البيروقراطية ما هي غير الشكل الواطئ والفتى من أشكال المركبة التي ما تزال مصابة بتقبيتها، الإقطاعية. وعندما تخيب آمال الفلاح الفرنسي في العودة النابوليونية، فإنه سيتحلى كذلك عن إيمانه بقطعة أرضه الصغيرة، وينهار كل صرح الدولة المشيد على قطعة الأرض هذه، وتحظى الثورة البروليتارية بتلك الجوفة التي بدونها يتحول غناها المنفرد في جميع البلدان الفلاحية إلى غناء طير التم" (هذا التعبير الأخير يعني غناء الاحتضار. المترجم). - ص ١٥١.

(61) بمجمع كونستانتسيا (١٤١٤ - ١٤١٨) انعقد من أجل توطيد وضع الكنيسة الكاثوليكية المتقلقل في ظرف الحركة الإصلاحية البدائية. شجب الجميع تعليم زعيمي الإصلاح جون ويكليف ويان هوس. قضى الجميع على انشقاق في الكنيسة الكاثوليكية بانتخابه رئيساً جديداً للكنيسة بدلاً عن الطاععين الثلاثة المتنافسين على الكرسي الباباوي - ص ١٥١.

إن بونابرت، بوصفه السلطة التنفيذية التي جعلت نفسها قوة مستقلة، يعتبر أن رسالته هي حماية "النظام البرجوازي"؛ أما قوة هذا النظام البرجوازي فتكمن في الطبقة الوسطى ولذا ينظر إلى نفسه باعتباره ممثلاً للطبقة الوسطى ويصدر مرسيم مناسبة. ولكنه، مع ذلك لم يصبح شيئاً يذكر إلا لأنه حطم القوة السياسية لهذه الطبقة الوسطى وأنه يحطمها مجدداً في كل يوم. وبناء على ذلك ينظر إلى نفسه كخصم لقوة السياسية والأدبية للطبقة الوسطى. ولكن إذ يحمي قوتها المادية، بولد قوتها السياسية من جديد. ولهذا لا بد للعنة أن تبقى على قيد الحياة؛ أما المعلوم، حينما ظهر، فينبغي أن يقضي عليه. بيد أن هذا لا يمكن أن يحدث دون خلط بسيط بين العلة والمعلوم لأنهما كلِّيهما يفقدان في تفاعلهما المشترك خصائصهما المميزة. مرسيم جديدة متولية تمحو خط الحدود. وبونابرت ينظر إلى نفسه، في الوقت ذاته، باعتباره ممثلاً للفلاحين وللشعب بصورة عامة ضد البرجوازية، ممثلاً يريد أن يسعد الطبقات الدنيا من الشعب ضمن إطار المجتمع البرجوازي. مرسيم جديدة تحالف على "الاشتراكيين الحقيقيين" (62) وتسلیهم سلفاً قدرتهم على إدارة الدولة. ولكن بونابرت ينظر دائماً إلى نفسه، قبل كل شيء، بوصفه رئيساً لجمعية العاشر من كانون الأول، بوصفه ممثلاً لحالة البروليتاريا التي ينتمي هو نفسه وبطانته وحكومته وجيشه إليها والتي همها الأول هو العيش كما يطيب لها وسحب جواز يانصيب كاليفورنيا من خزينة الدولة. وهو يزكي لفبه كرئيس لجمعية العاشر من كانون الأول بمراسيم وبدون مرسيم وبرغم المراسيم.

إن مهمة هذا الرجل المتناقضة هذه تفسر الإجراءات المتناقضة لحكومته التي تتصرف على غير هدى وتسعى تارة لتكسب وطوراً لتذل أولاً هذه الطبقة ثم تلك وتصف الطبقات جميعاً ضدها على حد سواء، تلك الحكومة التي يشكل ما بها من الحيرة العملية مفارقة مضحكة جداً مع الأسلوب العاتي القاطع لمراسيم الحكومة، وهو أسلوب منقول بمذلة وخنوع عن مراسيم العم.

إن الصناعة والتجارة، أي إشغال الطبقة الوسطى، ينبغي لها أن تزدهر برعاية حكومة قوية كأنها في مستحبت دافئ. فيجري منح ما لا حصر له من امتيازات سكك الحديد. بيد أن حثالة البروليتاريا من البونابرتين ينبع أن تثري. فيبدأ الأشخاص المطلعون سلفاً على أسرار امتيازات سكك الحديد لعبه الغش في البورصة. ولكن رأس مال السكك الحديدية لا يظهر له أثر، ويلزمون البنك بتقديم سلف على أسهم السكة الحديدية. غير أن البنك، في الوقت نفسه، سيستغله بونابرت لأغراضه الشخصية ولا بد من مداجاته لهذا السبب. يغفون البنك من الالتزام بنشر تقريره أسبوعياً ويعد البنك اتفاقية مع الحكومة تضمن له حصة الأسد. والشعب لا بد من إيجاد أعمال له، فيشرعون في الأشغال العمومية. ولكن الأشغال العمومية تزيد من أعباء الشعب الضرائية. من هنا تخفيض الضرائب بالهجوم على إيرادات أصحاب الدخل والريع بتحويل ريع الخمسة في المائة إلى أربعة ونصف في المائة. ولكن لا بد للبرجوازية أن تأخذ الطوى من جديد مع الحبة المرة. ومن هنا مضاعفة ضريبة الخمر على الشعب الذي يشتريه en detail (بالفرق. الناشر) وإنقاص ضريبة الخمر إلى النصف بالنسبة للطبقة الوسطى التي شرّبه en gros (بالجملة. الناشر). تحل جمعيات العمل القائمة فعلاً ولكن الحكومة تعد بمعجزات بعد تشكيل الجمعيات في المستقبل. الفلاحون لا بد من تقديم المساعدات لهم. تؤسس بنوك الرهن التي تعجل في إيقاعهم بالديون وفي تركيز الملكية. ولكن يجب استخدام هذه البنوك لابتزاز المال من أملاك آل أورليان المصادر. ما من رأسمالي يريد أن يوافق على هذا الشرط الذي لم يذكر في المرسوم ويبيقي بنك الرهن مجرد مرسوم. الخ، الخ.

(62) المقصود هنا الاشتراكية الألمانية أو الاشتراكية "الحقيقية" تيار رجعي انتشر في ألمانيا في الأربعينيات من القرن التاسع بين المثقفين البرجوازيين الصغار على الغالب استعراض مثلو "الاشتراكية الحقيقة" غرون وغريغ وكريرا وغيرهم عن أفكار الاشتراكية بوعظ عاطفي بالحب والأحقرة وأنكروا ضرورة الثورة البرجوازية الديموقراطية في ألمانيا. اعتقد ماكس، وأخليص، هذا التيار في مؤلفهما "الأيديولوجيا المانية"، "منشئ، ضد كيجة"، "الاشتراكية المانية في الشعر والشّـ" ، "بيان الحزب الشيوعي".

إن بونابرت يحب أن يظهر بمظهر الأب المنعم لجميع الطبقات. ولكنه لا يستطيع أن يعطي طبقة من الطبقات دون أن يأخذ من الأخرى. وكما كان يقال عن الدوق دي جيز زمن الفروند بأنه كان أعظم متفضل في فرنسا لأنّه حول جميع أملاكه إلى التزامات في ذمة أنصاره يديرون له بها. كذلك سيقبل بونابرت راضياً بأن يكون أعظم متفضل في فرنسا ويحول كل ممتلكات فرنسا وكل شغلها إلى التزام شخصي له. إنه يحب أن يسرق فرنسا بкамلها حتى يتمنى له أن يقدمها هدية إلى فرنسا أو بالأحرى حتى يتمنى له أن يشتري فرنسا من جديد بنقود فرنسية وذلك لأنّه ينبغي عليه بالضرورة، باعتباره رئيس جمعية العاشر من كانون الأول، أن يشتري ما ينبغي أن يكون له. وجميع مؤسسات الدولة ومجلس الشيوخ ومجلس الدولة والهيئة التشريعية ووسام الشرف ومداليات الجنود ومحال الغسيل والأشغال العمومية والسكك الحديدية والأركان العامة للحرس الوطني باستثناء عامة الجنود والأملاك المصادر لآل أورليان – جميعها تصبح موضوعاً للبيع والشراء. وكل مركز في الجيش وفي جهاز الحكومة يصبح وسيلة للرشوة. بيد أنّ أهم ملامح هذه العملية التي يمكن معناها في أخذ فرنسا من أجل إهدائها إليها إنما هو الفوائد المئوية التي تجد طريقها إلى جيوب رئيس جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر) وأعضائها أثثاء دورة رأس المال. إن الملحمة التي وصفت بها الكونتنست لـ، حظية المسيو دي مورني، مصادر أملك أورليان: *C'est le premier vol de l'aigle* « كلمة « vol » تعني طيران وسرقة) (هذا أول طيران للنسر) تطبق على كل طيران لهذا النسر الذي هو أشبه بالغراب. إنه هو وأشياعه ينطقون كل يوم بأنفسهم لأنفسهم كلمة الراهب الكارتيريان (الكارتيزياني - من أتباع فلسفة ديكارت (ديكارت باللغة اللاتينية، cartesius. المترجم) الإيطالي إذ وعظ البخل الذي تباهى بعد المتعاج الذي كان في وسعه أن يعيش عليه لسنين مقبلة طويلة: *Tu fai conto sopra i beni, bisogna prima far il conto sopra gli anni* (أنت تحصي متعاك، وأولى لك أن تحصي سنينك) ولنا يخطئوا في السنين عدوا الدقائق. لقد شقت حفنة من الأشخاص طريقها إلى البلاط، إلى الوزارات، إلى رأس الإدارة والجيش، جماعة من الأجلاف ينبغي أن يقال عن أحاسنهم بأن أحداً لا يعرف أصله، جماعة بوهيمية صخابة نهابة شأنة السمعة تدب في المعاطف المقصدية بعين الوجاهة المضحك مثل أعيان سولوك. وفي وسع المرء أن يتصور بوضوح هذه الطبقة العليا من جمعية العاشر من كانون الأول (ديسمبر) إذ أخذ بعين الاعتبار أن فيرون - كريفيل (لقد حدد بلزاك في روايته "ابنة العم بيتي" معلم الباريسي التافه المنحل كلّياً في شخصية كريفيل، وهي شخصية روائية رسّمها على غرار دكتور فيرون صاحب جريدة « Constitutionnel ») هو واعظها الأخلاقي وأن غرانييه دي كاسانياك هو مفكّرها. كان غيزو، إبان وزارته، يستخدم غرانييه هذا للعمل في صحيفة سيئة السمعة ضد المعارضة الأسرية وكان بياهي به قائلًا عادة في تملق: « *C'est le roi des drôles* » « إنه ملك المهرجين ». ومن الخطأ أن يعيد المرء عهد الوصاية⁽⁶³⁾ أو لويس الخامس عشر إلى ذهنه في مجال الحديث عن بلاط لويس بونابرت وعصابته. وذلك لأنّ "فرنسا قد بلت مراراً من قبل حكم محظيات، بيد أنها لم تبل فقط حكم قوادين" (الكلام المقتبس هو كلام مدام جيراردين).

إن بونابرت، وقد ساقته إلى ذلك مطالب وضعه المتناقضة وكان في الوقت نفسه يقوم بدور الحاوي المضطر إلى إبقاء نفسه محظ الأنظار كبديل لنابوليون، وذلك بقيامه بالمفاجئات المستمرة، أي بالأحرى إلى إجراء انقلاب مصغر كل يوم، إن بونابرت هذا قد ألقى الاقتصاد البرجوازي برمه في هاوية الفوضى وانتهك كل ما كان يبدو مصوناً بالنسبة لثورة ١٨٤٨، يجعل البعض يتسامحون مع الثورة، وآخرين يرغبون في الثورة، وخلق فوضى فعلية باسم النظام، بينما كان في الوقت نفسه يجرد جهاز الدولة بكماله من الهالة التي تحيط به ويلوته و يجعله بغضاً ومحلاً للسخرية في آن واحد. إنه يعيد في باريس بصورة مزورة ساخرة عبادة الرداء المقدس في ترير⁽⁶⁴⁾ على شاكلة عبادة العباءة الإمبراطورية النابوليونية. ولكن عندما

(63) المقصود هنا عهد وصاية فيليب أورليان في فرنسا من عام ١٧٢٣ إلى عام ١٧٢٥ عندما كان لويس الخامس عشر لا يزال قاصراً. - ص ١٥٦.

(64) الرداء المقدس في ترير، ذخر كاثوليكي محفوظ في كاتدرائية ترير (المانيا) ويقال أنه رداء مقدس أخذ عن المسيح عند صلبه. وكان الرداء المقدس في ترير موضع إحلال الحاجاج. - ص ١٥٧.

تسقط العباءة الإمبراطورية أخيراً على كتفي لويس بونابرت، سيهوي تمثال نابوليون البرونزي من على قمة مسلة فندوم وينحط.

كتبه ماركس في ديسمبر/كانون الأول ١٨٥١
لغایة مارس / آذار ١٨٥٢ . نشر في مجلة
١٨٥٢ «Die Revolution»
الطبعة الثانية التي راجعها ماركس ظهرت في
كتاب على حده في هامبورغ عام ١٨٦٩ .
الطبعة الثالثة ظهرت في هامبورغ عام ١٨٨٥ ،
مع مقدمة بقلم أنجلس.

دليل الأسماء

- آيلي (Ailly) بيار دي (ولد عام ١٣٠ توفي في عام ١٤٢٠ أو في عام ١٤٢٥) كردينال فرنسي، لاهوتي معروف. اضطلع بدور بارز في مجمع كونستانسيا.
- الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ قبل الميلاد) قائد عسكري شهير ورجل دولة في العالم القديم.
- أوبول (Hautpoul) الفرنسي هنري دي (١٧٨٩ - ١٨٦٥) جنرال فرنسي. شرعى. فيما بعد بونابرتى. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ - ١٨٥١). وزير الحرية (١٨٤٩ - ١٨٥٠).
- أودينو (Oudinot) نقولا شارل فيكتور (١٧٩١ - ١٨٦٣) جنرال فرنسي. أورليانى. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. في ١٨٤٩، كان أمراً للقوات التي أرسلت ضد جمهورية روما. حاول مقاومة انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١.
- أورليان سلالة ملكية في فرنسا (١٨٣٠ - ١٨٤٨).
- باراغه d'Hilliers (Baraguay) ديليه آشيل (١٧٩٥ - ١٨٧٨) جنرال فرنسي. ماريشال منذ عام ١٨٥٤. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. في ١٨٥١ كان أمراً حامياً بباريس. بونابرتى.
- بارو (Barrot) أوديلون (١٧٩١ - ١٨٧٣) سياسي برجوازي فرنسي. قبل شباط (فبراير) ١٨٤٨، رئيس المعارضة الأسرية الليبرالية. من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨ إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٩، ترأس الوزارة المعتمدة على ائتلاف الكتلتين الملكيتين المعادي للثورة.
- باروش (Baroche) بيار جول (١٨٠٢ - ١٨٧٠) سياسي وحقوقى فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية، وممثل من حزب النظام. في ١٨٤٩، مدع عام في محكمة الاستئناف. بونابرتى، اشتراك في جملة من الوزارات قبل وبعد انقلاب الثاني من كانون الأول (ديسمبر).
- باريس كونت. راجع: لويس فيليب الدوق أورليان.
- باز (Baze) جان ديديه (١٨٠٠ - ١٨٨١) محام وسياسي فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. أورليانى - ص ١١٢، ١٣٢.
- باي (Bailly) جان سيلفان (١٧٣٦ - ١٧٩٣) فلكي فرنسي، من رجالات الثورة البرجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، ومن قادة البرجوازية الدستورية الليبرالية.
- برشيه (Persigny) جان جيلبر فيكتور، كونت (١٨٠٨ - ١٨٧٢) رجل دولة فرنسي، بونابرتى. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ - ١٨٥١). من منظمي انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١. وزير الداخلية (١٨٥٢ - ١٨٥٤ و ١٨٦٠ - ١٨٦٣).
- بروت مارك يوني (حوالي ٨٥ - ٤٢ قبل الميلاد) سياسي روماني. من منظمي المؤامرة الجمهورية الأريستقراطية ضد يوليوس قيصر.
- برودون (Proudhon) بيار جوزيف (١٨٠٩ - ١٨٦٥) صحفي واقتصادي وعالم اجتماعي فرنسي. أيديولوجي البرجوازية الصغيرة. من مؤسسى الفوضوية. في ١٨٤٨، نائب في الجمعية التأسيسية.
- بروغلى (Broglie) آشيل شارل ليو فيكتور، دوق (١٧٨٥ - ١٨٧٠) رجل دولة فرنسي. رئيس الوزارة (١٨٣٥ - ١٨٣٦). نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ - ١٨٥١). أورليانى.

- بلان (Blanc) لويس (1811 – 1882) اشتراكي برجوازي صغير ومؤرخ فرنسي في 1848، عضو الحكومة المؤقتة، ورئيس لجنة اللوكسمبورغ. وقف مواقف الاتفاق مع البرجوازية. في آب (أغسطس) 1848 هاجر إلى بريطانيا. أحد قادة المهاجرين البرجوازيين الصغار في لندن.
- بلانكي (Blangui) أونوره دي (1805 – 1881) ثوري فرنسي. شيوعي طبوي. نصیر التاكتيك التآمرى. قائد الجمعية السرية، "جمعية مواسم السنة"، منظم انتفاضة 12 أيار (مايو) 1839. إبان ثورة 1848، وقف في أقصى الجناح الأيسر من الحركة الديموقراطية والبروليتارية في فرنسا. حكم عليه غير مرّة بالسجن - ص 21.
- بلزاك (Balzac) أونوره دي (1799 – 1850) كاتب واقعي فرنسي كبير.
- بنوا دازى (Benoit d'Azy) داني (1796 – 1880) سياسي ومالي وصناعي فرنسي. نائب رئيس الجمعية التشريعية (1849 – 1851) شرعى.
- بوربون، سلالة ملكية في فرنسا (1589 – 1792، 1792 – 1814، 1814 – 1815، 1815 – 1830).
- بولينياك (Polignac) أوغست جول أرمان ماري، أمير (1780 – 1847) رجل دولة فرنسي في عهد العودة. شرعى وإكليريكي. وزير الخارجية ورئيس مجلس الوزراء (1829 – 1830).
- بيدو (Bedeau) ماري ألفونس (1804 – 1863) جنرال وسياسي فرنسي. جمهوري برجوازي معتدل. في عهد الجمهورية الثانية، نائب رئيس الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية.
- بيربيه (Berryer) بيير أنطوان (1790 – 1868) محام وسياسي فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. شرعى.
- بيو (Billault) أوغست أدولف ماري (1805 – 1863) سياسي ومحام فرنسي. أورلياني. نائب في الجمعية التأسيسية (1848 – 1849). بعد عام 1849 بونابرتى، وزير الداخلية (1854 – 1858).
- توريني (Thorigny) بيير فرانسوا إيلزابت (1798 – 1869) حقوقى فرنسي. في 1834، حقق في قضية المشتركين في انتفاضة نيسان (إبريل) بمدينة ليون. بونابرتى. وزير الداخلية (1851).
- توكفيل (Tocqueville) ألكسيس (1805 – 1859) مؤرخ وسياسي فرنسي. شرعى ونصير الملكية الدستورية. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير الخارجية (حزيران – يونيو – تشرين الأول – أكتوبر 1849).
- تيير (Thiers) أدولف (1797 – 1877) مؤرخ ورجل دولة برجوازي فرنسي. رئيس وزراء (1836، 1840). في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. أورلياني. رئيس الجمهورية (1871 – 1873). جلاد كومونة باريس.
- جيراردين (Girardin) إميل دي (1806 – 1881) كاتب برجوازي وسياسي فرنسي. من العقد الرابع إلى العقد السابع ضمناً، كان بصورة متقطعة محرراً في جريدة «Presse». في حقل السياسة تميز بأقصى اللامبدئية. قبل ثورة 1848، عرض حكومة غيزو. إبان الثورة، جمهوري برجوازي. نائب في الجمعية التشريعية (1850 – 1851). فيما بعد بونابرتى.
- جيراردين (Girardin) دلفين دي (1804 – 1855) كاتبة فرنسية. زوجة إميل دي جيراردين - ص 156.
- جيرو (Giraud) شارل جوزيف برتيليمي (1802 – 1881) حقوقى فرنسي. ملكي. وزير التعليم (1851).
- جوانفيل (Joinville) فرانسوا فردینان فيليب لويس ماري، دوق أورلياني. أمير (1818 – 1900). ابن لويس فيليب. بعد انتصار ثورة شباط (فبراير) 1848، هاجر إلى بريطانيا.
- دانتون (Danton) جورج جاك (1759 – 1794) واحد من أبرز قادة الثورة البرجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. زعيم الجناح اليميني من اليعاقبة.

- دای بیبر، راجع: آیی، بیار دی.
- دوبان (Dupin) اندری ماری جان جاک (1783 – 1865) حقوقی و سیاسی فرنسي. اورلیاني. نائب في الجمعية التأسيسية (1848 – 1849) ورئيس الجمعية التشريعية (1849 – 1851)، فيما بعد، بونابرتی.
- دوبرا (Duprat) باسکال (1815 – 1885) سیاسی فرنسي. صحافي. جمهوري برجوازي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وقف ضد لويس بونابرت.
- دوبول أفنون هنری، راجع: أوبول أفنون هنری.
- دوشائل (Duchatel) شارل (1803 – 1867) رجل دولة فرنسي. اورلیاني. وزير الداخلية (1839 – 1840 – شباط (فبراير) 1848).
- دیفلوت (De Flotte) بول (1817 – 1860) ضابط بحري فرنسي. ديموقراطي واشتراكي. نصیر بلانکی. مشترک نشیط في احداث 15 آیار (مايو) وانتفاضة حزیران (يونیو) 1848 في باریس. نائب في الجمعية التشريعية (1850 – 1851).
- دیمولان (Desoulins) کمیل (1760 – 1794) کاتب سیاسی فرنسي. من رجالات الثورة البرجوازية في أو اخر القرن الثامن عشر. یعقوبی یمینی.
- راتو (Rateau) جان بیار (1800 – 1887) محام فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. بونابرتی – ص ۳۹.
- روبسپیر (Robespierre) ماکسیمیلیان (1758 – 1794) قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في أو اخر القرن الثامن عشر. زعيم الیعاقة. رئيس الحكومة الثورية (1793 – 1794).
- رویه کولار (Royer Collard) بیار بول (1763 – 1845) فیلسوف و سیاسی فرنسي. نصیر الملکیة الدستوریة.
- روویه (Rouher) اوجین (1814 – 1884) رجل دولة فرنسي. بونابرتی. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير العدالة (1849 – 1852 مع انتقطاعات). في عهد الإمبراطورية الثانية، شغل عدة مناصب عليا في الدولة.
- ریتشارد الثالث (Richard III) ملک إنگلیزی (1483 – 1485).
- رموزا (Rémusat) شارل فرانسوا ماري، کونت (1797 – 1875) رجل دولة فرنسي. کاتب اورلیاني. وزير الداخلية (1840). في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير الخارجية (1871 – 1873).
- رینو دی سان جان دانجیلی (Regnault de Saint-Jean d'Angély) أوغست میشال آیتیان، کونت (1794 – 1870) جنرال فرنسي. بونابرتی. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير الحرب (کانون الثاني – ینایر 1851). اشتراك في حرب القرم.
- سالاندروز (Sallandrouse) شارل جان (1808 – 1867) صناعي فرنسي. نائب في الجمعية التأسيسية (1848 – 1849). دعم لویس بونابرت أثناء انقلاب ۲ کانون الأول ۱۸۵۱.
- سلفاندی (Salvandy) فرسیس آشیل، کونت (1795 – 1856) کاتب و رجل دولة فرنسي. اورلیاني. وزير التعليم (1837 – 1839 و 1845 – 1848).
- سان - آرنو (Saint - Arnaud) أرمان جاك لیروا دی (1801 – 1854) جنرال فرنسي. ابتداء من عام 1852، ماریشال. بونابرتی. وزير الحرب (1851 – 1854). أحد منظمي انقلاب ۲ کانون الأول ۱۸۵۱. في ۱۸۵۴ القائد الأعلى للقوات الفرنسية في القرم.

- ساندبريس (Saint-Priest) عمانوئيل لويس ماري، فيكونت (1789 - 1881) جنرال وديبلوماسي فرنسي.
- شريعي. نائب في الجمعية التشريعية (1849 - 1851).
- سان - بيف (Saint-Beuve) بيير هنري (1819 - 1855) صناعي وملك عقاري فرنسي. نصير حرية التجارة.
- ممثل حزب النظام. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية .
- ساندجان دانجيلي. راجدعا: رينو دي سان - جان دانجيلي أوغست ميشال إيتان.
- ساندجوست (Saint-Just) لويس أنطوان (1794 - 1797) قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. من زعماء العاقبة .
- ساي (Say) جان باتيست (1767 - 1832) اقتصادي برجوازي فرنسي. ممثل الاقتصاد السياسي المبتدئ.
- سو (Sue) أوجين (1804 - 1857) كاتب فرنسي. مؤلف روايات عاطفية مبنية في مواضيع اجتماعية. نائب في الجمعية التشريعية (1850 - 1851) .
- سولوك (Soulouque) فاوستين (حوالي 1782 - 1867) رئيس جمهورية هايبتي الزنجية. في عام 1849 نادى بنفسه إمبراطورا تحت اسم فاوستين الأول .
- سيسموندي (Sismondi) جان شارل ليونار سيموند دي (1773 - 1842) اقتصادي سويسري. ناقد برجوازي صغير للرأسمالية.
- شاراس (Charras) جان باتيست أولف (1810 - 1865) رجل سياسي وعسكري فرنسي. جمهورية برجوازي معتدل. اشتراك في قمع انتفاضة عمال باريس في حزيران (يونيو) 1848. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. عرض لويس بونابرت. بعد انقلاب 2 كانون الأول 1851، نفي من فرنسا.
- شامبور (Chambord) هنري شارل، كونت (1820 - 1883)، آخر ممثل الفرع الأكبر من آل بوربون. حفيد شارل العاشر. طامح بالعرش الفرنسي تحت اسم هنري الخامس .
- شانغارنييه (Changarnier) نقولا آن تيودول (1793 - 1877) جنرال وسياسي برجوازي فرنسي. ملكي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. بعد حزيران (يونيو) 1848، أمر حامية باريس والحرس الوطني في باريس. اشتراك في تفريغ مظاهرة 13 حزيران 1849 في باريس.
- شرام (Schramm) جان بول آدم (1789 - 1884) جنرال وسياسي فرنسي. بونابرت. وزير الحرب (1850 - 1851) .
- شكسبير (Shakespeare) وليم (1564 - 1616) كاتب إنجليزي كبير.
- غراك تيير سمبروني (163 - 133 قبل الميلاد) خطيب شعبي (133 قبل الميلاد). في روما القديمة، ناضل من أجل سن قوانين زراعية في مصلحة الفلاحين.
- غراك غايي سمبروني (3 - 121 قبل الميلاد) خطيب شعبي (123 - 122 قبل الميلاد). في روما القديمة ناضل من أجل سن قوانين زراعية في مصلحة الفلاحين. أخوه تييري غراك .
- غرانيه دي كاسانياك (Granier de Cassagnac) أولف (1806 - 1880) صحافي فرنسي. سياسي لا مبدئي. قبل ثورة 1848 أورياني. ثم بونابرت. في عهد الإمبراطورية الثانية، نائب في المجلس التشريعي - ص 155 .
- غيزو (Guizot) فرانسوا بيير غيوم (1787 - 1874) مؤرخ برجوازي ورجل دولة فرنسي. من عام 1840 إلى ثورة شباط (فبراير) 1848، أشرف عملياً على السياسة الداخلية والخارجية، وأعرب عن مصالح البرجوازية المالية الكبيرة .
- فاتيمينيل (Vatimesnil) أنطوان فرانسوا هنري (1789 - 1860) سياسي فرنسي. شريعي. وزير التعليم (1828 - 1830). نائب في الجمعية التشريعية (1849 - 1851) .

- فالو (Falloux) ألفريد (١٨١١ - ١٨٨٦) سياسي وكاتب فرنسي. شرعي وإكليريكي. في ١٨٤٨، صاحب المبادرة إلى حل المشاغل الوطنية وملهم قمع انتفاضة حزيران (يونيو) في باريس. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير التعليم (١٨٤٨ - ١٨٤٩).
- فايس (Vaisse) كلود ماريوس (١٧٩٩ - ١٨٦٤) رجل دولة فرنسي. بونابرتى. وزير الداخلية (قانون الثاني (يناير) - نيسان (أبريل) ١٨٥١).
- فوشيه (Faucher) ليون (١٨٠٣ - ١٨٥٤) صحفي وسياسي برجوازي فرنسي. أورلياني. اقتصادي من أنصار مالتوس. وزير الداخلية (قانون الأول - ديسمبر ١٨٤٨ - أيار - مايو ١٨٤٩، ١٨٥١). فيما بعد، بونابرتى.
- فولد (Fould) آشيل (١٨٠٠ - ١٨٦٧) سياسي وصاحب مصرف فرنسي. أورلياني. فيما بعد، بونابرتى. في ١٨٤٩ - ١٨٦٧ شغل غير مرة منصب وزير المالية.
- في DAL (Vidal) فرانسوا (١٨١٤ - ١٨٧٢) اقتصادي فرنسي. اشتراكي برجوازي صغير. في ١٨٤٨، أمين لجنة اللوكسمبورغ. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٥٠ - ١٨٥١).
- فيديماير (Weydemeyer) يوسف (١٨١٨ - ١٨٦٦) شخصية بارزة في الحركة العمالية الألمانية والأميركية. عضو عصبة الشيوعيين. اشتراك في ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ في ألمانيا. إبان الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية، كولونيل في جيش الشمالين. دشن عهد ترويج الماركسية في أميركا. صديق ماركس وأنجلس ورفيقهما بالفكر والنضال.
- فيليل (Villèle) جان باتيست سيرافان جوزيف، كونت (١٧٧٣ - ١٨٥٤) رجل دولة فرنسي في عهد العودة. شرعي. رئيس وزارة (١٨٢٢ - ١٨٢٨).
- فيصر غايي يولي (حوالي ١٠٠ - ٤٤ قبل الميلاد) قائد عسكري ورجل دولة روماني شهير.
- كارلبيه (Carlier) بيار (١٧٩٩ - ١٨٥٨) مدير البوليس في باريس (١٨٤٩ - ١٨٥١). بونابرتى.
- كافينياك (Cavaignac) لويس أوجين (١٨٠٢ - ١٨٥٧) جنرال وسياسي فرنسي. جمهوري برجوازي معتدل. اشتراك في فتح الجزائر. بعد ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨، حاكم الجزائر. تميز بطريقه الوحشية في خوض الحرب. من أيار (مايو) ١٨٤٨ وزير الحرب الفرنسية. قمع بقاوة خارقة انتفاضة عمال باريس في حزيران (يونيو). رئيس السلطة التنفيذية (حزيران (يونيو) - كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨).
- كاليغولا (١٢ - ٤١) إمبراطور روماني (٤١ - ٣٧).
- كرومويل (Cromwell) أوليفر (١٥٩٩ - ١٦٥٨) زعيم البرجوازية والنبلاء المتبرجزين إبان الثورة البرجوازية الإنجليزية في القرن السابع عشر. ابتداء من عام ١٦٥٣، اللورد حامي إنجلترا وأسكتلندا وأولنده.
- كريتون (Creton) نقولا جوزيف (١٧٩٨ - ١٨٦٤) محام فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. أورلياني.
- كوزين (Cousin) فيكتور (١٧٩٢ - ١٨٦٢) فيلسوف فرنسي. مثالي. اختياري.
- كوسيديير (Caussidière) مارك (١٨٠٨ - ١٨٦١) ديموقراطي برجوازي صغير فرنسي. مشاركون في انتفاضة ١٨٣٤ في ليون. واحد من منظمي الجمعيات الثورية السرية في عهد ملكية تموز (يوليو). بعد ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨، مدير البوليس في باريس. نائب في الجمعية التأسيسية. في حزيران ١٨٤٨، هاجر إلى بريطانيا.
- كونستان (Constant) بنجامين (١٧٦٧ - ١٨٣٠) سياسي برجوازي ليبرالي فرنسي. صحفي وكاتب.
- لاروشجاكلين (La Rochejaquerlein) هنري أوغست جورج، مركيز (١٨٠٥ - ١٨٦٧) سياسي فرنسي. عضو مجلس الشيوخ. أحد زعماء الحزب الشرعي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. فيما بعد، شيخ في عهد الإمبراطورية الثانية.

- لامارتين (Lamartine) ألفونس (1790 – 1869) شاعر ومؤرخ وسياسي فرنسي. في الأربعينيات جمهوري برجوازي. في 1848 وزير الخارجية ورئيس الحكومة المؤقتة عملياً.
- لاموريسيير (Lamoricière) كريستوف لويس ليون (1806 – 1865) جنرال وسياسي فرنسي. جمهوري برجوازي معتدل. في 1848 اشتراك بنشاط في قمع انتفاضة حزيران (يونيو). فيما بعد، وزير الحربية في حكومة كافينياك (حزيران – يونيو – كانون الأول – ديسمبر). في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية.
- لاهيت (La Hitte) جان أرنست (1789 – 1878) جنرال فرنسي، بونابرتى. نائب في الجمعية التشريعية (1850 – 1851). وزير الخارجية (1849 – 1851).
- لوتر (Luther) مارتن (1483 – 1546) من رجال الإصلاح البرازيين. مؤسس البروتستانتية (اللوثرية) في ألمانيا. أيديولوجي البرجوازية الألمانية. إبان حرب الفلاحين في عام 1525، وقف ضد الفلاحين الثائرين وضد فقراء المدن إلى جانب الأمراء.
- لوك (Locke) جون (1632 – 1704) فيلسوف ثانئي إنجليزي بارز. حامي. اقتصادي برجوازي.
- لويس الرابع عشر (1638 – 1715) ملك فرنسا (1643 – 1715).
- لويس الخامس عشر (1710 – 1774) ملك فرنسا (1715 – 1774).
- لويس الثامن عشر (1724 – 1824) ملك فرنسا (1814 – 1815 و 1815 – 1824).
- لويس فيليب (1773 – 1850) دوق أورليان. ملك فرنسا (1830 – 1848).
- لويس فيليب ألب دوق أورليان. كونت باريس (1838 – 1894). حفيد الملك لويس فيليب. طامح بالعرش الفرنسي.
- لويس نابوليون، راجع: نابوليون الثالث.
- ليدرو – رولان (Ledru-Rollin) ألكسندر أوغست (1807 – 1874) كاتب وسياسي فرنسي. من زعماء الديموقراطيين البرجوازيين الصغار. محرر في جريدة «Réforme» في 1848، عضو الحكومة المؤقتة. نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية حيث ترأس حزب "الجب". بعد مظاهرة 13 حزيران (يونيو) 1849، هاجر إلى بريطانيا.
- ليفلو (le Flo) أدولف عمانوئيل شارل (1804 – 1887) جنرال وسياسي وديبلوماسي فرنسي. مثل حزب النظام. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير الحربية في "حكومة الدفاع الوطني" (1870 – 1871).
- ماراست (Marrast) أرمان (1801 – 1852) صحفي وسياسي فرنسي. من زعماء الجمهوريين البرجوازيين المعتدلين. محرر جريدة «National». في 1848 عضو الحكومة المؤقتة ورئيس بلدية باريس. رئيس الجمعية التأسيسية (1848 – 1849).
- ماركس (Marx) كارل (1818 – 1883).
- مازنيللو (Masaniello) (اللقب لтомازو أنييللو) (1620 – 1647). صياد سمك. زعيم الانتفاضة الشعبية في نابولي عام 1647 ضد السيطرة الإسبانية.
- مالفيل (Maleville) ليون (1803 – 1879) سياسي فرنسي. أورلياني. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. وزير الداخلية (النصف الثاني من كانون الأول – ديسمبر – 1848).
- مانيان (Magnan) برنار بييار (1791 – 1865) جنرال فرنسي. من كانون الأول (ديسمبر) 1851، ماريشال. بونابرتى اشتراك في قمع انتفاضات العمال في ليون (1831 – 1849) وفي ليل وروبيه (1845) وانتفاضة

حزيران (يونيو) ١٨٤٨ في باريس. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ - ١٨٥١). من منظمي انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١.

- موبا (Maupas) شارلمان إميل (١٨١٨ - ١٨٨٨) محام فرنسي. بونابرتى. مدير البوليس في باريس (١٨٥١). من منظمي انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١. وزير البوليس (١٨٥٢ - ١٨٥٣).
- مورنى (Morny) شارل أوغست لويس جوزيف، كونت دي (١٨١١ - ١٨٦٥). سياسي فرنسي. بونابرتى. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ - ١٨٥١). من منظمي انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١. وزير الداخلية (كانون الأول ١٨٥١ - كانون الثاني ١٨٥٢).
- موغين (Mauguin) فرانسوا (١٧٨٥ - ١٨٥٤) حقوقى وسياسي فرنسي. قبل ١٨٤٨، أحد زعماء المعارضة الأسرية الليبرالية. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. التصدق بالنواب اليمينيين.
- موليه (Molè) لويس ماتيه، كونت (١٧٨١ - ١٨٥٥) رجل دولة فرنسي. أورليانى. رئيس وزارة (١٨٣٦ - ١٨٣٧، ١٨٣٩ - ١٨٤٠) في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية.
- مونتالمبير (Montalembert) شارل (١٨١٠ - ١٨٧٠) سياسي وصحفى فرنسي. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية. أورليانى. ترأس الأوساط الكاثوليكية. دعم لويس بونابرت أثناء انقلاب ٢ كانون الأول ١٨٥١.
- مونك (Monk) جورج (١٦٠٨ - ١٦٧٠) جنرال إنجليزى وقائد في الثورة البرجوازية الإنجليزية في القرن السابع عشر. اشتراك بنشاط في بعث الملكية في إنجلترا عام ١٦٦٠.
- نابوليون الأول بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١). إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ - ١٨١٤ و ١٨١٥).
- نابوليون الثالث (لويس نابوليون بونابرت) (١٨٠٨ - ١٨٧٣) ابن أخي نابوليون الأول. رئيس الجمهورية الثانية (١٨٤٨ - ١٨٥١)، إمبراطور فرنسا (١٨٥٢ - ١٨٧٠).
- نيمایر (Neumayer) مكسيمiliان جورج جوزيف (١٧٨٩ - ١٨٦٦) جنرال فرنسي. نصير حزب النظام. أمر القوات العسكرية في باريس (١٨٤٨ - ١٨٥٠).
- نېي (Ney) أدغار (١٨١٢ - ١٨٨٢) ضابط فرنسي. بونابرتى. مرافق الرئيس لويس بونابرت. نائب في الجمعية التشريعية (١٨٥٠ - ١٨٥١).
- هنرى الخامس، راجع: شامبور هنرى شارل.
- هنرى السادس (١٤٢١ - ١٤٧١) ملك إنجليزى (١٤٢٢ - ١٤٦١).
- هوغو (Hugo) فيكتور (١٨٠٢ - ١٨٨٥) كاتب فرنسي كبير. في عهد الجمهورية الثانية، نائب في الجمعية التأسيسية والجمعية التشريعية.
- هيغل (Hegel) غيورغ ولهم فريديريك (١٧٧٠ - ١٨٣١) أكبر ممثل الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. مثالى موضوعي. أسهب في عرض الديالىكتيك المثالى على أوسع وجه.